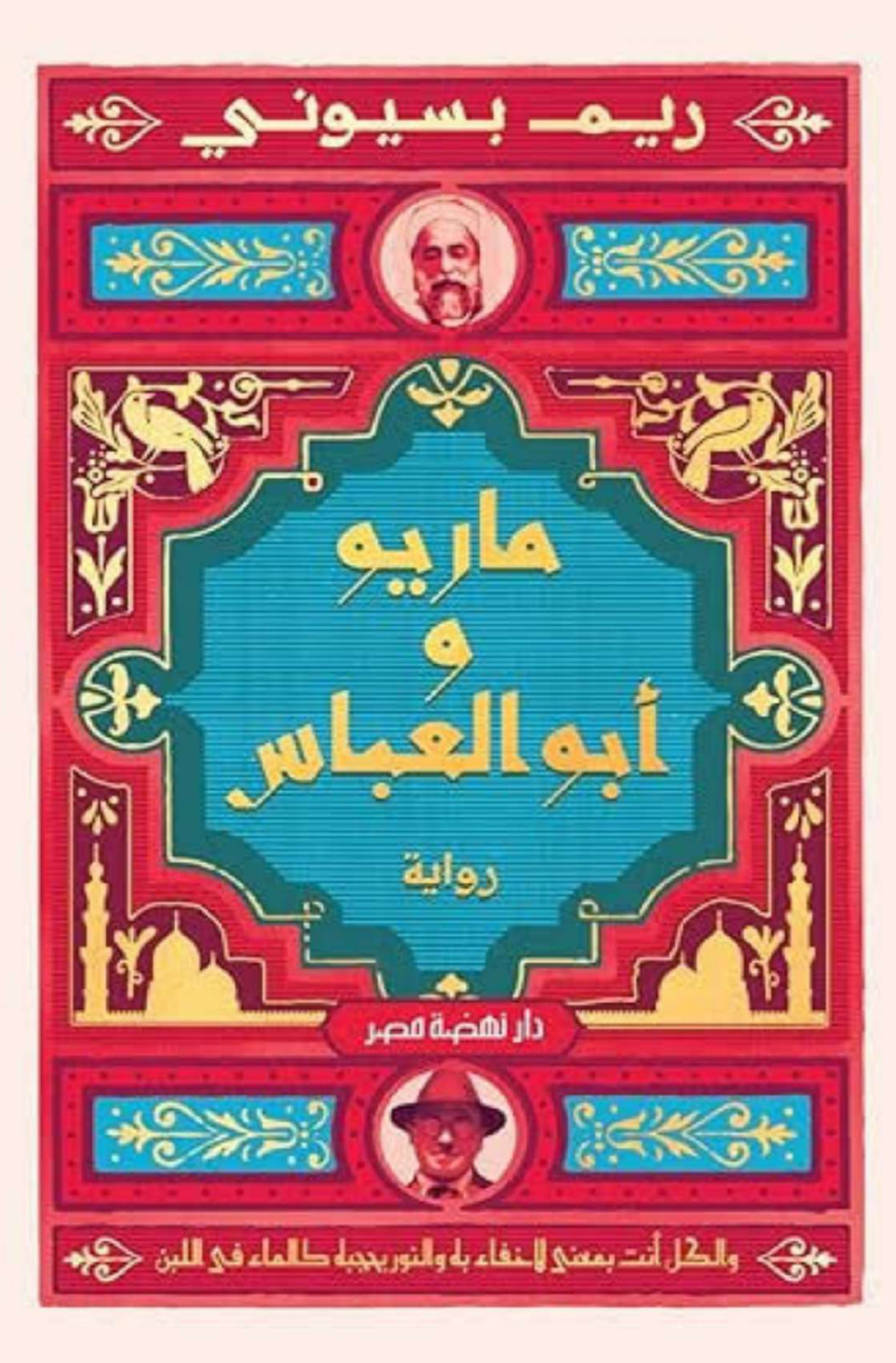

ريم بسيوني
ماريو
و
أبو العباس
رواية
دار نهضة مصر
والكل أنت بمعنى لا انتفاء به والنور يحجبه كالماء في اللبن

طرق الباب

وكنت قد انتهيت للتوّ من كتابة رواية «سبيل الغارق». أرهقتني، وفتنتني، وأخرجت من أنحاء الفؤاد نفسًا جديدة لم أكد أهنأ بها إلا ووجدت الأفكار تتناثر حول عقلي ولا تستقر فقررت التوقف، وزفر الأنفاس حتى أعتاد النفس الجديدة، ولا أغرق في اليابس كالشاطر حسن في «سبيل الغارق». لملمت حقائبي وغايتي البحث عن الأثر لا البشر فوجدت نفسي أغرق في حكايات البشر وأتذكر كلمات فرانشسكو دي تيلدي في الرواية «ينكشف البشر في قصص العابرين». عبرت إلى طائرة وأنا أكره المسافات، لم يعد لي صبر عليها. في العبور الطويل وقت لانتقاء الذكريات وغربلتها. لم أتوقع حين جلوسي على المقعد الضيق أنني سأغوص في حكاية غير كل الحكايات، وأتعرف على أبطال يفاجئونني بقلوبهم وخيالاتهم وشغفهم.

أيقنت حينها أن القصة مثل الرزق تأتي من حيث لا نحتسب. اختزنت الحكاية ولم أخرجها إلى النور حتى إنني كتبت بعدها روايتين، ثم طاردتني في أحلامي طالبة الخروج من الظلمات. ثم حان الوقت.

قابلت كريستينا الإيطالية المصرية التي هاجرت إلى أستراليا في ستينيات القرن العشرين أثناء رحلتي الطويلة إلى أستراليا، وانشرح صدري لمعرفتها بكتاباتي ولكن حكايتها كانت قيد الأحلام، بل لم تكن حكايتها؛ فما نحن إلا حراس للحكايات نتسلمها من فم إلى فم، نحملها كالأمانة، بعضنا يحرفها، والبعض ينساها، والقليلون ممن لا تُريكهم الدنيا يدركون ولا يكذبون الفؤاد. أخبرتني أن لديها حكاية جاءت إلى مصر لتقتفي أثرها من جديد ففي استعادة رحلات الماضي عودة إلى جرأة الصبا ورونقه. هي حكاية تفوق الخيال وتفتح أبواب النور داخل القلوب وتخترق كل

المسافات.

بدأت الحكي مباشرة، أحيانًا يرتجف جفنها أو تشرق أو تزيح دمعة كأنها تخاف أن تنسى أية تفصيلة في الحكاية. تلقفت حكاية في طائرة من كريستينا تحكي فيها عن نفسها، وعن ماريو رومي، وعن المُرسيّ أبي العباس ولي الإسكندرية وعن مدينتي...للحق هي حكاية تحكي فيها كريستينا عني أنا أيضًا لو تعلمون.

قالت:

- جئت إلى مصر هذا العام أبحث عن صورة وأوراق. معي في حقيبة السفر وجدتها الحمد لله. ماذا يتبقى منا يا ابنتي سوى صور وبعض الحكايات؟ ولكنك ستكتبين الحكاية أليس كذلك؟

قلت في حسم: هو كذلك.

فقالت: الوقت نسبي كالعمر يمر على البعض ببطء، وعلى آخرين كالنجم الذي هوى. أرحل من وطن إلى وطن، وأبقى غريبة في الوطنين...الحكاية ترافقنا طوال العمر، ولكن ما إن تتلاشى الذاكرة حتى ينفض البشر من حولك. كنت أخشى من فزع الناس من حولي..ذهبوا جميعًا..ولكنني أتحدى الذاكرة ..أبحث عن صورة رسمها ماريو رومي لأبي العباس المُرسيّ. هل تعرفين حب المراهقات؟ كنت أحب ماريو رومي، بل أعشقه. يعجبني جسده الممتلئ وعقله اليقظ. وكان صديق والدي الذي يعمل في الإسكندرية. هو أعطاني هذه الصورة، أعتقد أنه أحبني كما أحببته. فكيف لا يحبني وقد فاض قلبي وانسكب؟ ولم أكترث بوجود زوجته. عشق المراهقات أناني دومًا. ولكنه يتدفق كالمياه المحتبسة وراء الجسر. أنت تعرفين ماريو، أليس كذلك؟

بلعت ريقي وقلت في تردد: لا أعرفه. هل كان إيطاليًا مصريًا؟

نظرت إليّ في غضب ثم قالت: وهل تعرفين أبا العباس المُرسيّ؟

- بالطبع أعرف مسجده في الإسكندرية. أنا من الإسكندرية. الإسكندرية تُقسم باسمه كل يوم مرات ومرات. هو إسكندراني حتى النخاع. مثلي ربما أو أنا مثله.

- سأحكي لك ما حكاه لي ماريو، وما حكاه أبو العباس المُرسيّ لماريو، وأصدقاء أبي العباس المُرسيّ أصبحوا بعد ذلك أصدقاء ماريو، وتكلموا معه، وحكوا له. وأحيانًا سأحكي لك ما لم يحكِه أيٌ منهم ما عرفته وحدي.

حدقت بها في ذهول وشفقة، فقالت كأنها قرأت أفكاري: تظنين أنني مجنونة. لا بأس..استمعي لحكاياتهم كلهم، ثم أخبريني لو كنت صادقة، أم ضل عقلي.

الإسكندرية 1960

قالت كريستينا

جلست أمام ماريو كأنني قبضت بيدي على بريق القمر. لم أستطع أن أمنع عيني من الشرود في نظارته المستديرة، ونظرة عينه اليسرى الثاقبة، أما عينه اليمنى فقد أسبلت جفنها، وغفلت عن ذاك الضوء، لأول مرة ألاحظ أنه فقد الرؤية بهذه العين، مر زمن منذ تقابلنا؛ كأنه قرأ أفكاري فقال: لا تقلقي أستطيع أن أراك. الرسم هو ما أصبح صعبًا.

وكيف يفترق القلم عن يد الفنان؟ وكيف يتحمل فراقًا كهذا؟ كدت أعانقه لحظتها، ومنعت نفسي.

قال في بطء: لو كنت تتساءلين عن حالي فقد تعلمت أن الفراق مجبول

بالألم، ولا بد منه في كل حال. جسد يفترق عن روح، حبيب عن حبيبه، رسام عن أوراقه وقلمه. ما نتعلق به نفارقه لأننا نظن برهة أننا امتلكنا ولم نمتلك، وأننا قدرنا ولم نقدر. لكل شيء في الدنيا حق انتفاع لا أكثر.

لم أفهم كلامه بالضبط، ولكنني كنت أكاد أسبح وأطير معًا، وأنا في حضرته.

هل يدرك أني أعشقه منذ عشر سنوات أو أكثر؟ مجرد الخاطر أصابني بالسقم. قلت وأنا أهرب من نظراته: هذا الحوار لأتعلم منك يا أستاذي، أنت قدوة لنا جميعًا.

تفحصني بنظرته كأنه يدرك كذبي، ثم قال: حسنًا. ولكن لا تكثري الأسئلة.

- أعدك أنها أسئلة قليلة.

هل رأى رجفة أصابعي؟ ربما، وربما لا. كان في الستين، وكنت في الثالثة والعشرين ولكنه قال في حسم: لا تتكلمي معي عن الدين. أنا لا أجيب على هذه الأسئلة.

قلت: أعرف.

ثم قلت بلا مقدمات: تأتي إلى هنا كل حين. تجلس في ساحة مسجد أبي العباس المرسي. رأيت تصميمك بعيني. بحق الله أنت عبقري.

لم يجب كأنه اعتاد الإطراء.

قلت مسرعة: عند مسجد أبي العباس المرسي..هنا تأتي يا أستاذ. مع أن المهندس ماريو روسي بنى أكثر من 260 مسجدًا، وكل مسجد مختلف عن الآخر. ولكنك تأتي إلى هنا، هنا فقط لماذا؟ ماذا بينك وبين المرسي؟

انحنى قليلًا، وكان وجهه يقترب من وجهي، وقلبي يختلج، ثم قال:

تحومين حولي منذ زمن. وتدعين أنك تكتبين للجريدة الإيطالية. تكذبين يا كريستينا. اسمك كريستينا، أليس كذلك؟

أطرقت ثم قلت: هو كذلك. أريد معرفتك أكثر ربما.

رمقني بنظرة كلها فهم، ثم ابتسم، وقال: وبعد أن تعرفيني؟

صمت. ثم استعدت شجاعتي، وقلت: ما لك ومال المُرسي؟ أنت إيطالي، وهو إسباني، أم تفضل أن أقول أندلسي؟ من استدعى تاريخ الآخر ومن بدأ الصداقة؟

- أسئلتك تعجبني، أنت مختلفة..

كلمة واحدة سكنت القلب فطمأنته. همست: أرى قلبك دومًا.

رفع حاجبه ثم استطرد: أحمد أبو العباس المُرسي عشرة.. عمر طويل بيننا، صداقة تعدت الأربعين عامًا، هو من بدأ، وهو من كلف واستدعى.

- ولكنه مات منذ سبعمائة عام أو ما يقرب ذلك

- ومن قال إن الأصدقاء موجودون معنا دومًا بأجسادهم؟ ليس للصداقة قواعد؛ كالدنيا كلها إبداع وعطايا.

- أريد أن أسمع منك وأتعلم.

- تريدين أن تسمعي حكايات عني أم عنه؟ لم توضحي..

قلت بلا تردد: عنك أنت.

أشاح وجهه عني ثم قال: لنترك الحكاية تقرر مصيرها.

وبدأ ماريو في الحكي..

السفر الأول

حكى أبو العباس القرمي لماريو

تونس ..1242م 640هـ

بسم الله والحمد لله رب العالمين من به نستعين وإليه نفتقر.اعلم أيها التائه الغريب الوحيد أننا مُقيدون بصور الأشياء ما لم نُقتل بسيف الحب..

فاطمة المالقية، أمي، كانت تبكي وهي تُمسك ببطنها، ولم يكن بكاء دوار البحر بل دموع وداع. أمسكت بيدي قائلة: أحمد..

فقلت في قلق: أمي..بعد ساعات نصل إلى شاطئ تونس. أكاد أراه بعيني، ضوء الفنار يبرق، ثم يختفي في الليل.

استدارت وأمسكت بأخي ثم قالت: وضوء الأندلس خفت يا بني، لن نراها بعد اليوم.

ضغطت على معصمها الهش، دومًا أراها أرق من أن تخوض هذا البحر وهذا الطريق. قلت: نذهب إلى الحج كما قال أبي، ثم نعود إلى مرمية. لا تقلقي.

نظرت حولها في تيه ثم همست: أحمد، لا عودة إلى مرمية.

خرجنا مع والدي قاصدين الحج، وخرج والداي قاصدين النجاة. ولم أدرك ذلك إلا على شاطئ تونس. قلت في بعض الغضب وفي بعض اليأس: سأعود إلى بلادي. من هنا نسافر إلى مصر، ومن مصر إلى مكة، ثم نعود إلى مرمية.

أغمضت عينيها وتمتمت: أمسك بيدي.

كنت ممسكًا بيدها، لم أر أمي بهذا الضعف من قبل، ولم أدرك حينها أن فقد الوطن يطحن العظام. وضعت رأسها على صدري ثم قلت: لم يأخذ الفرنجة مرمسية ولن يستطيعوا. سنعود. أبي..

التفت أبحث عنه لأسأله. كنت دومًا ألتمس الطمأنينة من راحتيه. تجارته دومًا تربح، وبيته دومًا عامر ومستقر. أدركت حينها أن بكاءها كان بسبب قرب الوصول إلى شاطئ غير شاطئنا، ووطن غير موطننا، وأشجار غير مألوفة، ورائحة غير رائحة السفرجل التي اعتدناها.

أبقت يدها بيدي حتى نامت في وسط الليل، اقترب شاطئ تونس ولكننا لم نصل. الاقتراب لا يعني قط الوصول.

***

كنت أغرق على شاطئ تونس أو كدت. انشطرت السفينة أمام عيني نصفين كأنها كسرة خبز يابسة. وأنا بداخلها أسبح مع الريح.

مرحبًا بالموت القادم مع زبد البحر كل ما نتمناه أن يرأف بحالنا، ويدخلنا على أبوابه بهدوء ولطف، بل نتمنى ألا يترك بيننا يتيمًا تذروه الرياح، ولا عجوزًا تتحكم فيها الذئاب فلتمح يداك كل الماضي والقادم يا ملك الموت لن أنكر أنني أخشاك بعض الشيء، بل الآن تتصارع أنفاسي وترجو، ويأبى فمي أن يستقبل المياه بحفاوة كما أتمنى. رفعت يدي أدفع بالموجة وأنادي أمي، غريب أن أنادي أمي فقط. مع أن أبي وأخي حولي، كأنني أتذكر مصدر الأنفاس، وأرجو شفاعة الرحم من الرحمن. فاطمة..أين أنت يا ابنة الأندلس؟ هل أغمضت عينيك الواسعتين؟ طالما أسمع صوتك أو صرخاتك فأنا على ما يرام. خرجت كلماتي إلى ربي متقطعة، كلها خجل، ربما كذبت... نعم، أحببت جارة واشتهيتها، خرجت مع أخي نستمع للموسيقى ونستمتع بالرقص أمام البحر لا أتذكر ربما لم أفعل. ولكني أرى طفلًا

بجلباب من الحرير الثمين لم يتعدَّ العاشرة يمسك بيد أبيه الذي يسير معه في فخر في طريقنا إلى المسجد في مرمية لصلاة العيد. قال أبي: أحمد أغنى وأفضل صبي في كل الأندلس. تذكر أن أحمد غير كل الرجال. هو ابن عمر الخزرجي أكبر تاجر في كل البلاد. سر في الأرض شامخًا فليس مثلك أحد.

سر في الأرض..يا أبي..أين أنت الآن من أمواج بحر الروم؟ صوتك لا يترك أذني، والجلباب الأبيض يضرب عيني، كلما حاولت أن أزيحه التصق بوجهي. ورائحة السمك المقلي تفوح من بين رائحة الملح المعتق والأعشاب المحنطة. مقاومة الأمواج ليست أصعب الابتلاءات، ولكن اليأس هو ما يسيطر في اللحظة والتو، يغمر العين والقلب، ويحرق الكبد المشتاق إلى النجاة. ما فائدة المحاولة وفاطمة لم تعد تصرخ، ولا والده يطلب منه الصلاة، ولا صوت أخيه يوقظه من نومه. لم يعد يسمع سوى صوت المطر الذي لا ينتهي، والغيث الذي يغرق ولا يحيي. لا فائدة من المقاومة.

والده يقول: التاجر الذكي يعرف متى يبيع، ومتى يشتري، ومتى يعطي بضاعته للفقير ومتى يعطيها للغني.

هل حان وقت البيع أم الشراء يا عمر؟ يا أبي. لم يعد للماضي مكان وسط الغرق. أغمضت عيني، ومددت جسدي، وفتحت ذراعي ورجلي، وصحت بأعلى صوتي المكتوم: هيا يا بحر..قلبني كيف شئت. اختبرني..

بعد الفزع تأتي الراحة، وبعد الهول يتلاشى الأرق. الوقت يشفي العليل. استسلمت للبحر وتركته يعبث بالجسد والكبد. حملني وطرحني أرضًا، رفعني إلى أعلى، ثم سقطت من بين يديه إلى أعماق الرمال. أعيتني حيلتي كما تعيي البلية أولي النظر. غضبت بعد الرجاء، وتشجعت بعد الفزع ،ثم استسلمت بعد ذلك كله.

رائحة الرمال تختلف من شاطئ إلى شاطئ، ومن بلد إلى بلد، ومن أنف إلى أنف. أدركت أني لست في وطني، ولم أتأكد من أنني حي. ولكن الجنة لا بد أنها برائحة المسك وطزاجة الندى الذي يعج بالدفء والصقيع معًا. والنار تحرق بلا هوادة. لا أنا أحترق، ولا أنا أستنشق روائح الجنة، بل تنبثق المياه من جوانبي، وتكتم الرمال أنفي. خرج سعالي ممزوجًا بالملح، وتجمع الناس حولي يبحثون في أمري. سمعت الأصوات: حي؟ بل سيموت .. حي .. سبحان من ينقذ من الغرق والهلاك.

الهلاك .. وهل هناك هلاك أكبر من هذا؟ تمتمت: أمي .. فاطمة ...

التف الرجال حولي يبحثون ثم قالوا: هناك امرأة تبكي على الشاطئ، تنوح، وتضرب رأسها وبطنها. لا بد أنها أمك.

انشرح الصدر، وتحركت المياه متجهة خارج العقل المشتت. مددت يدي، والعينان بالكاد تريان وهمست: محمد..أخي، أبي..أين هو.

زحف أخي على ركبتيه في إعياء ثم قال: لم تزل حيًا.

- ربما.

- بل لم تزل حيًا يا أحمد. لا تقل ربما. إياك من كلماتك التي لا أفهمها يا ابن أمي.

- أمك على الشاطئ؛ ساعدني نبحث عنها. والدك أين هو؟

تناثرت الكلمات، ولم أستطع أن أتحرك. لم ينج أحد من هذه السفينة، يقولون تركوا الأندلس بعد اضطهاد الفرنج وتهديدهم المستمر يضيقون على المسلمين، أهل مرسية لم يعد لهم وطن، بعد شهور ستسقط البلد في يد الفرنج، يعتقدون أن الأندلس من حقهم هم كانت لهم هم لا حول ولا

قوة إلا بالله، هؤلاء الهاربون قصدوا بيت الله الحرام .. بل بعضهم قصد تونس، وبعضهم قصد مصر، لم ينج أحد من هذه السفينة سوى ثلاث، هذان الولدان وأمهما. يا سبحان الله، له في خلقه شئون .. أراد للأم أن تنعم بأولادها .. أين هي؟ هل تركت الشاطئ؟ كانت في مرمى البصر أين اختفت؟ يا خالة.. هل تتكلمين العربية؟.

جريت بأقصى سرعتي، وكادت أنفاسي تتوقف؛ أخرجت ماء البحر من فمي فتقيأت، اليأس يتملكني من أن أصل إلى أمي مع أنها لا تبعد عني سوى خطوات. تختلط عليَّ المسافات، هرولت خطوة وكأنها بألف عام. أمسك محمد بيدي ثم هوينا معًا أمامها. احتضنتها بكل قوتي وقلت في شوق: أمي حمدًا لله أنك بخير، لا أعرف ما حدث، بحثت عنك ولم أجدك..كنت أدور حول نفسي، أغوص تارة وأطفو تارة.. يا أم أحمد..

فتحت عينيَّ ونظرت إليها. التقت أعيننا وساد الصمت. تعرف أمك من رائحتها.. الأم رائحة.

قلت وقد لُمت نفسي لأنني لم أدرك أن رائحتها ليست رائحة أمي، ولكنني في غمرة الشوق خدعت كل الحواس: يا خالة..

قالت وهي تنظر حولها: لا أجد أبنائي..هل تراهم؟

نظرت إلى أخي الذي سقطت الدموع من عينيه، وهو يدرك أن والدته غرقت مع الغارقين، وأن مَنْ تقف أمامنا أم فقدت أولادها. سألتها عن اسمها في شفقة وعرفت أنها يهودية، هربت مثلنا من بطش الفرنج، وسقوط مرسية الآتي اليوم قبل غد. كانت متجهة إلى الإسكندرية، وكنت متجهًا إلى الحجاز. ورافقتنا إلى السقف المتهاوي وكتمت حزنها وهي تردد كلمات من التوراة. لا سألت من نكون ولا أين سينتهي بها الحال.

أنت..يا قاهر وقادر..يا قريب وظاهر وباطن. يوم ضمرت الألم بداخل كبدي المحترق، ورثث على كتف الأم الثكلى، صاحت في غضب وهي تنظر إلى السماء: أين عدلك؟ تقول إنك عادل! أقسم لك أني هجرتك. ولا أتقبل قضاءك.. لا أتقبله.

كنت أفهم لغة الفرنج كما أفهم العربية. وجدت نفسي آخذها بين ذراعي وأبكي. أنا أبكي على والديّ وبلادي التي تركتها، وهي تبكي على كل ما ملكت أو شبّه لها. طلبت منها أن تهدأ، ولكنها أبعدتني وهي تمرمغ وجهها في التراب، وتصرخ وتضرب نفسها. أمسكت بيديها، التف الناس حولنا، غابت هي عن الوعي فأخذوها إلى بيت أحدهم وأعطوها الطعام والدواء إلى حين.

أما أنا فكلماتها رجت النفس رجًا.. أين عدلك؟ إلهي، كيف تجرؤ اليهودية على الحديث معك هكذا؟ ولكنك عادل، أليس كذلك؟ لا أشك في وجودك. أعرفك طوال عمري لكنني رأيت اليوم قسوة وألمًا لم أرَ مثلهما من قبل. هل جاءت منك؟ أعوذ بالله أن أغضبك. لا أجرؤ ولا أستطيع. أتعرف لماذا؟ لأنني أصبحت أخافك أكثر وأكثر.

***

أسرتني اليهودية بصراخها وكلماتها ويديها اللتين تدمسهما في التراب بحثًا عمن ضاع منها ومن انتزعته الأيام من حنايا صدرها. أصبحت أعودها كل أسبوع مرة أو مرتين. لا نتبادل الكلمات، أبقى معها فتهز رأسها، وتُطرق وتجفل ثم تغمض عينيها. أضع بنفسي الطعام أمامها. وأحيانًا أتكلم بعض الكلمات، لا تُجيب. أخرج وأعود إلى حياتي الجديدة في القيروان. وجد أخي صديقًا يعرف أبي، طلبنا المال من العم والخال. ترك والدي الكثير وأخذ معه الكثير، ثراء عمر الأنصاري القرمي معروف فهو من أمهر التجار.

ربّى ولديه على أكمل وجه؛ على العلم والدين والعمل.

ولكنني غير محمد؛ كنت دومًا غريب الأطوار. بعث بي أبي إلى مدرسة حفظ القرآن وتعليم الفقه منذ كنت في الخامسة. أغلقت عيني وأذني. وعندما كان الشيخ يأمرني أن أفتح يدي ليضربني كنت أفعل بلا تردد؛ كان الضرب محبوب لدي، وكلمات الشيخ تؤذيني. اشتكى الشيخ لأبي، واستمر الحال عامًا وعامين. وفاطمة أمي مقتنعة تمامًا أنه سحر من أحد الجيران. يحسدونها على الولدين وثراء الزوج. تتمنى النساء الزواج منه. «وأحمد لا يفقه شيئًا. ربما لا أمل في تعليمه. يعلم الله حاله». رأتني أمي وأنا في السابعة أكلم أشجار الزيتون، فشهقت في فزع ولم تواجهني. اقتربت لتسمع ما أقول، كنت أحكي لها عن الشيخ ونفاقه وكذبه وقسوته. كنت أشكو لها أني لا أفهم كلمة مما يشرح، وأني أغلقت قلبي عن كل هؤلاء. لا صديق لي سواها، ها هي تتفتح أمامي وتسمع. الأشجار خير مُستمع وأبلغ فقيه. بلعت الأم ريقها واقتربت ثم همست: ابني..أحمد..هل تكلم الشجرة؟

أطرقت ولم أجب. فقالت في شفقة: لو كنت تكره الشيخ نبحث لك عن غيره، ولكن محمد تعلم كل شيء، ولم يشك منه قط؛ فما الذي لا يعجبك فيه يا بني؟

تمتمت: كاذب.

- أعوذ بالله، لا تنطق هذه الكلمات على أحد رجال الله.

فقلت في ثقة البراءة: لكنني أعرف أنه كاذب.

صمتت في يأس وذهبت تكلم زوجها. هو الحسد أصاب الولد. ستذبح الذبائح وتوزعها على الفقراء. قال الأب في حسم: لنبحث عن رجل يستطيع أن يعلّمه.

قالت في ألم: أحمد غير محمد يا عمر أحمد يتكلم مع شجرة الزيتون.

تمتم بدعاء سمعت منه كلمات: اللهم لا تبتليني في ابني.

ذهب إلى الطبيب يسأل عن حال ابنه؛ إن كان قد أصيب بمس من الجنون أم بلعنة جانٍّ سفلي.

قال الطبيب: إن الولد بخير يهيم في الخيالات ربما أكثر من غيره، ولكنه بصحة تامة.

بحثنا عن شيخ آخر عن رجل يستطيع أن يتعامل مع طفل يتكلم مع شجرة زيتون. سأل أبي شيخًا وشيخين، وكلما حكى لأحدهم قصة شجرة الزيتون فزع وابتعد. حتى وجد شيخًا في الثمانين من عمره، يتحرك ببطء ويتكلم بعناء ذكّره هو نفسه بشجرة الزيتون. لجأ إليه وحكي له فابتسم ثم قال: آتني به.

أمسك أبي بيدي الصغيرة وهو يقول: يا أحمد، لا تخذلني. ابني لا بد أن يتعلم، وأنت في السابعة ولا تقرأ ولا تكتب ولا تحفظ آية واحدة. يا بني..

لم أنطق. ترقرقت الدموع في عينيي ولمت نفسي على غبائي وبلادتي.

الشيخ القرمزي غير كل الشيوخ، الصدق يفوح من بين أضلعه، وروحه تفيض بالخير. هكذا رأيته، ولا أعرف كيف في أقل من نصف عام حفظت كتاب الله كله، وقرأت وكتبت. تشهّد أبي وهو يظن أنها معجزة من الله. ثم همست له أمي: أحمد يرى ما لا نرى.

فقال: أعوذ بالله من هذا الكلام. هذا الكلام من الشيطان.

- كأنه يرى الكذب كما نرى الشمس. قُبض على الشيخ الزنواتي اليوم يا عمر كان يشهد الزور. هو رأى هذا؛ لذا لم يتقبل منه العلم.

قال مسرعًا: لا تتكلمي بهذا الكلام أمامه. لو أراد أن يعيش في دنيانا فلا بد ألا يرى سوى ما يظهر له كالشمس.

هذا ماض. اليوم أخي بدأ تجارته بالقيروان، وكتم الأحزان وانخرط في الدنيا. ولكني لم أستطع.

***

لم أزل أزور الأم اليهودية الهاربة في الملجأ الذي استقرت فيه في القيروان مع يهود آخرين ولم تزل تصمت في حضوري، وتهز كل جسدها كأنها تهم بالخروج من الدنيا، ثم تعدل عن ذلك أضع الطعام أمامها ثم أرحل طفت الشفقة واشتعل الخوف، جلست أمام البئر أنتظر دوري لحمل المياه إلى البيت الجديد، الهم لا يبرح الأضلع، لست أول من يفقد أبويه، ولكنني ربما كنت أتعامل مع تشويش أخطر؛ حمل ينوء عن حمله العقل المحدود، كنت أكلمه.. وأناجيه.. ولكم غضبت منه على استحياء، ولكم ارتعبت من قهره في خفوت. هو.. ربي.

***

تذكرت قصة موسى عليه السلام وأنا أنظر إلى الفتاة التي تحاول أن تحمل المياه مع الطفل الصغير ولا تعرف كيف؟ تُحرّك الجرة في كل الاتجاهات ترفع يديها وتنحني وتنتفض يأسًا. هرولت إليها.. تُرى هل سأقابل والدها وأعمل معه؟ هل سأبتر الوحدة التي تتوغل في الانحناءات؟ نظرت إلى وجهها لحظة ثم أمسكت بالجرة قائلًا: أساعدك يا سيدتي.

التفتت إليّ وابتسمت في براءة وامتنان. قسيمة.. هذا هو اسمها . جميلة الوجه، عيناها تناديان، وتستغيث، وتبذر الشوق في ساعدي.

تكلمت معي طوال الطريق. سألتني عن مكاني وعملي. حكيت لها ما كان.

ابتسمت في خجل ثم قالت: أنت أندلسي من مرسية سمعت عنها كثيرًا. يقولون إنها كالجنة، الأشجار تكاد تصل إلى السماء، والنساء بعيون المها وشعر كالحرير يخرجن دون غطاء للرأس، دينهم غير ديننا هناك.

قلت في هدوء: مسلمون يا سيدتي.

قالت في لهفة: قل يا قسيمة. لكم تمنيت أخًا مثلك. أنا وحيدة والدي وهو شيخ جليل يُدرس للأيتام القرآن والفقه.

تعلقت وتشبثت بكلماتها بلا تفكير قلت مسرعًا: أنا أساعده.

- ظننتك تعمل بالتجارة يا أخي.

- هذا لا يمنع أن أساعده.

***

جلس الشيخ عبد الجبار والد قسيمة يرتل القرآن دون أن يلتفت إلي. حكت له ابنته كيف ساعدتها، ثم تكلمت عن رغبتي في مساعدته. بدا لي الموقف مختلفًا كل الاختلاف عن قصة النبي موسى. ولكني انجذبت إليه هو وابنته كأنني أبحث عن غطاء أتلحف به من صقيع الغدر والتيه. بدأت أساعده في تدريس الأيتام. انقبض قلبي منذ أول يوم ولم أعِ السبب. عندما كنت طفلًا كنت أكثر صدقًا وأكثر شجاعة. أغلق عقلي عن كل كذب، وعندما أصبحت فتى بلمة سوداء طمر الضلال كل حواسي. أصبحت لا أثق في قلبي ولا أحدثه. هجرته لأنه يغضب ويثور والثورة ضياع هذه الأيام. عقلي يؤكد أن الشيخ عبد الجبار رجل صالح، وابنته زينة البنات. ربما أستقر هنا وأتزوجها. ولكن قلبي يتساءل عن الحزن الذي يخترق الأحداق، وهل لا بد منه على أية حال؟

لم تعجبني طريقته في تدريس الأطفال. تكلم عن عذاب القبر والنار، تكلم عن الكره والخيانة. رأيت أعين اليتامى تقفز من بين الأجفان رعبًا. أخبرهم عن ضلال اليهود والنصارى، وعن فتنة الشيعة الكفار. انقبض قلبي ولكن عقلي طلب مني التمهل. بعد أن انتهى، جلست أمامه وقلت في هدوء: سيدي.. هناك أم يهودية فقدت كل أولادها. هلّا شرحت لي ماذا جنت لتتحمل كل هذا العذاب؟

قال بلا تفكير: ضلت الطريق وهذا عقاب الله، لعلها تعود إليه. ادعُها إلى الإسلام يا بني، أو توقف عن زيارتها.

بلعت ريقي ثم قلت: وماذا عن الأم المسلمة التي فقدت أبناءها؟

قال في هدوء: عقاب على ذنب اقترفته أو بُعد عن الله.

- وماذا عني أنا؟ فقدت والدي.

- أنت تسأل كثيرًا يا أحمد وهذا لا يروقني. التلميذ يتبع الشيخ بلا كلمة.

تحرك أحد الأطفال من مكانه، فرفع الشيخ يده وهوى بها على وجهه بقوة حتى تركت كفه علامة حمراء واضحة قلت: هذا لا يجوز يا سيدي.. الرفق مع الأطفال..

قال في حسم: كنت أعاملك كابني، لا تجعلني أغير رأيي فيك.

عدت إلى بيتي والهم لا يتركني وأخبرت أخي بما حدث. فطلب مني أن أترك هذا العمل وأضع كل جهدي في التجارة. ولكني كنت منجذبًا للتدريس.

***

أغمضت عيني وأنا في الجب. كان جبًا تحت الأرض ولم يكن حلمًا. انتهى بي الأمر إلى السجن. هذا أيضًا لم يكن حلمًا. لم يمر شهر على عملي مع

الشيخ وعلى تقرب ابنته لي حتى انهزم عقلي أمام قلبي هزيمة نكراء، فرأيت الأهوال. قسوة مع الأيتام ثم سرقات لطعامهم وملبسهم. تكلمت مع قسيمة. العفن يطفئ الشوق دومًا. همست لي: لديك أجمل عينين رأيتهما، تعرف أني أحبك يا أحمد.

بلعت ريقي في خجل ولم أنطق. كنت أنوي الزواج منها. لا شيء يعيبها وأنا في بداية العشرين فلا بد من الزواج. ولكن كل شيء تناثر من حولي وأنا أراها تضرب الأولاد بعصا سميكة بلا رحمة. أمسكت منها العصا وطلبت منها التوقف، ولكن قسوتها تنسكب من بين كل أطرافها، أرعبتني. أردت الهروب بأقصى سرعة، ولكنني شعرت بالمسئولية تجاه الأطفال. أخبرت الشيخ بما رأيت، طلبت منه في رفق أن يتوقف عن أخذ الطعام من نصيب الأيتام. عرضت عليه أن أعطيه بعض أموالي من التجارة. ولكنه بدأ يشك في نواياي، وكان على حق. عندما لم ينته هددته فاستهزأ بالتهديد. هرولت إلى الوالي أشرح له وأطلب منه إنقاذ الأيتام. ولكن الشيخ سبقني واشتكى مني إلى الوالي. قال إني أسرق أموال الأيتام! من يُصدّق الوالي؟! الشاب الغريب القادم من مرسية أم الشيخ عبد الجبار؟ انتهى بي الأمر إلى السجن لكن ولا أدري ما القادم.

لم أندهش لأصدقك القول. ولكني صرخت بأعلى صوتي: إلهي..أين عدلك؟ أنت عادل..تكره الظلم ولم أر منذ قدومي هنا سوى الظلم، لا عدل هنا، ولكن ربما توقعت الكثير من عمر ضائع لا محالة. هبط آدم إلى الأرض عقابًا له، ونحن ندفع ثمن خطيئته، لو لم أولد لكان أفضل. ليتني كنت نسيًا منسيًا. ترى هل سأبقى في سجني بقية عمري؟ لأنني لم أصمت عن قول الحق؟ ترى أتختبر صبري أم قلبي؟ ما أكثر القتلة! البعض يقتل البدن والكثيرون يقتلون الروح.

تمتمت وأنا أستلقي على الأرض: لا إله إلا الله.

حاولت النظر إلى يدي ولكن الظلام طغى على كل شيء.

***

ثم خاطبته..هو..

إليك أنت..أتكلم معك اليوم وأنا ساجد بين يديك والخوف ينتفض بين أحشائي....منك..

أصبحت أخافك أنت المنتقم الجبار..ولكن لمَ تنتقم مني؟

أقسم أني أرتعد منك. أعرف أنك موجود، ولكنني لم أعد متأكدًا أنك تعرفني أو تسمعني..أو تهتم بي أصلًا..أخافك..

أخذت أغلى ما عندي بلا هوادة، وتركتني كالنبتة المعلقة في جبل موسى قبل أن تتجلى له ويهوي.

وليس لي أن أسألك أو أعترض. ولكن ظلام الحزن لم يتزحزح ليسمح للضوء بالدخول. فلم تحزني كل هذا الحزن؟

كنت أطيع أوامرك.. حفظت كتابك ودرست شريعتك، وبينما يلهو الشباب كنت أسجد لك إيمانًا وتقديرًا. هل هذا جزاء طاعتي؟ تأخذ جذوري وتقتلعني وتلقي بي في السجن؟

هل هذا جزاء طاعتي؟ تنصر عليّ الكاذب القاسي؟ تناثر الغضب حولي حتى إنني لا أدري لِم وُلدت ولِم لا أموت؟ أتريد أن تحرقني بنار الشوق للغائب؟ أم تلقي بي إلى المعصية؟ حسنًا..أهذا ما تريد؟ أن أصبح مثله وأتزوج ابنته؟

تعرف ما في نفسي، فما فائدة الكذب؟ أصبحت أخافك وأغضب منك. نعم أنا غاضب، أصلي بغضب، وأسجد لك اضطرارًا..تريد الحقيقة وتعرفها.. أغضب منك، وأخاف غضبك، وأحاول أن أتذكر ذنبًا يستحق ما أعاني. لم أر سوى عذابك. أين رحمتك؟ وأين أنت؟ هل تراني؟ هل أستحق كل هذا العقاب؟

***

شعرت بأول لكمة غائصة في العتمة ولم أصرخ. مددت يدي أحاول الدفاع عن نفسي. كانوا عشرة أو أكثر. ركلة وضربة بعصا، ثم ركلة وضربة بالسوط، صرخوا في: كيف تجرؤ..الشيخ عبد الجبار..تهين الشيخ يا كافر!

تمتمت لنفسي: كنت أتكلم مع شجرة الزيتون..هل تعرفونها؟

لو أستطيع أن أدافع عن نفسي! ولكن كيف أدافع عن نفسي في الظلام، والأيادي تسيطر على جسدي، واللكمات والركلات تأتي من حيث لا أتوقع. ما أبشع الظلام! تتبلور فيه كل الأشباح وكل الهواجس، وتتربع على العرش اللكمات وسيوف الأعداء.

اشتد غيظي وتذوقت الكُره لأول مرة في عمري. فالكره له طعم من الحنظل لا يترك اللثم، ورائحته تسد الأنف عامًا أو بعض عام، يضيء نارًا ويكوي الجوانح. تخيلت نفسي أضرب الشيخ عبد الجبار، بل أحيانًا كنت أتصور نفسي ألوح بسيفي فيركع طالبًا العفو. رأيت أمامي أحمد غير الذي أعرفه. ولكنني عشقت صورتي الجديدة؛ كالكأس الممتلئة بالخمر الفاسد الذي لم يزل يُسكر ويقطع الأمعاء معًا.

يقولون إن الشيخ عبد الجبار كله رحمة. يريد العفو عني مع أنني أستحق أن أجلد ثمانين جلدة على الادعاء الكاذب. جاء ليزورني وكانت معه شمعة.

وضع يده على فمه ليكتم رائحة الأحجار التي نما حولها الفطر الإسفنجي. لا أدري لمَ تتسم السجون بالعفن. هل لأنها تتوغل في العقل فتفقده براءته؟ أم لأنها تنزع من على جدار القلب شغافه؟ يقولون: إن الشيخ عبد الجبار رحيم، جاء بالشمعة وحوله الحراس. ربما توقع أن أقبل يديه وأطلب المغفرة، ولكنني لم أفعل. لمحت أخي وراءه أو شُبه لي.

قال الشيخ في صوت هادئ: يا إخواني، هذا الزنديق جاء من الأندلس، من مرسية بلد ابن عربي الكافر وابن رشد أيضًا. لا بد أنه تأثر بهما. هل تأثرت بهما؟

لم أجب، وللحق لم أكن أعرف الكثير عن ابن عربي أو ابن رشد، ولكنني سمعت أن أحدهما فيلسوف، والآخر صوفي، وأن الصوفية والفلسفة ربما لا تجتمعان إلا على الكفر عند الشيخ «الرحيم» عبد الجبار.

هممت بالكلام فنظر لي أخي في عتاب، فقال الشيخ: يا أخي كنت أنوي أن أزوجه ابنتي مع أنه بلا أهل هنا غريب بيننا، ولكن رحمتي به جعلتني أتخذه ولدًا، وها هو الجحود يتفشى من جسده. طلب منه أخي في رفق أن يعفو عني، مد يده فقبلها أخي في وجل قائلًا: تقبل أسفي يا شيخ، هو صغير أتم العشرين للتو، وكان دومًا غريب الأطوار.

مد الشيخ يده لأقبلها لكنني أشحت بوجهي، فركلني الحارس في احتقان فلم أستسلم، بل وجدت كل جسدي ينتفض، يرد الضربة بضربة والركلة بركلة وكأنني فقدت عقلي، وأخي يصيح في وجهي والشيخ يردد الآيات بلا فهم والحراس يستغيثون .. كل الكره بداخلي انبثق من أطرافي ووجدتني أدفع بالشيخ إلى الحائط، ولو كان معي سيف لحظتها لغرسته في قلبه بلا تردد. فصرخ بأعلى صوته، وانهالت على رأسي عصا فغبت عن الوعي.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا نائم على الأرض في بيتنا الصغير وأخي يعاتبني في شفقة. نظرت إلى النافذة قائلًا: كيف خرجت؟

قال في رفق: يا أخي، لا بد أن تتعلم كيف تحيا، نحن لسنا في بلادنا، لا عائلة تحمينا ولا عشيرة ما تركه والدنا من مال هو كل ما نملك وأنت تعرف أن مرسية على وشك السقوط في يد الفرنجة أود أن أنصحك أن تتوقف عن الكلام مع الأشجار وتتعلم الكلام مع البشر.

قلت في يأس: ربما من الأفضل أن أعيش مع الأشجار.

- أنت لم تعد طفلًا ولن أستطيع أن أنقذك مرة أخرى. اضطررت أن أدفع للشيخ نصف أموالنا ليغفر لك.

- الله فقط من يغفر لعباده.

- أول ما تفعل هنا هو أن تثير عداوة شيخ كبير في القيروان! ماذا تنوي؟

لم أجب. لاحت الصور حولي، تارة أضع خطة لقتل الشيخ، وتارة أضع أخرى لخطفه وتعذيبه. وبدت كل الخطط ممكنة. ما أروع قدرة الغفلة! وما أخطر خيال المظلوم!

والظلم ينمو كما حشائش البرية، والخير يُضمر تحت طيات الطين اللزج. ثرثرت الألسنة، وشاعت حكاية الغريب المرسي الذي يتحدى شيخ المدينة، يدفع بي شاب وآخر يوبخني. ولم يجرؤ أحدهم على سؤال الأطفال. تحملت بعض الوقت ثم التفت حولي أبحث عمن يسبني كل يوم، وجدته

شابًا قويًا اقتربت منه فجفل، أمسكت بتلابيبه محذرًا فلكمني في وجهي، لكمته لكمة بين راحتيها كلُ نفوري وغيظي للشيخ وله ولهم جميعًا. سالت الدماء من فمه ووقع على الأرض، لم أدرك حجم قوتي حينها، قلت في رفق وأنا أساعده على القيام: ابتعد عن طريقي تسلم.

* * * * *

السفر الثاني

انطلقت بفرسي وسط حقول القيروان، وكل ما أتمناه أن أبتعد عن كل البشر وكل المصائب والظلم. صرخات الأم اليهودية لم تتركني، وصوت الشيخ عبد الجبار وهو يأمرني أن أقبل يده ينهال على أذني كما المطارق مجمعة. وضربات السوط بطعم القهر وأقسم أني لم أشعر بالرغبة في القتل مثل اليوم. رددت الاستغفار ووغزت الفرس بقدمي ليسرع حتى كدت أطير في الهواء. فتحت فمي ليدخل الهواء البارد فيفرق عناقيد الحقد من كبدي. تركت يدي، ومددت راحتي لعلي ألمس ذرات الهواء المستعصية على الرؤية. صحت آمرًا الفرس أن يسرع، ولكنه كاد يتعثر ويسقطني من فوقه. هاج وماج ورفع قدميه الأماميتين خائفًا من حصان يقف أمامه فيسد عليه طريقه. لم ألتفت لمن يمتطي الحصان، ولكنني قلت في حدة: تقطع طريق فرسي يا سيدي. تحرك..

فقال الرجل في هدوء: فرسك يتألم يا أحمد وأنت لا تشعر به، لو مرض الفرس فلن تصل. ما أسهل خوض الطريق بسرعة ثم التعثر سنوات! لتتأكد من عدتك قبل السير يا أحمد.

ارتبكت كما لم أرتبك من قبل. نظرت إلى عينيه وإلى عمامته البيضاء. لا أعرفه ولم أقابله من قبل فكيف له أن يعرف اسمي؟! ولكن هذا يحدث، نحن غرباء هنا، ربما سأل عنا، ربما كنا جيرانًا ولم ندرك. ولكن عيناه

اخترقتا صدري بلا هوادة. بلعت ريقي ثم قلت في صوت أقل حدة: يا سيدي..كيف عرفت اسمي؟

ابتسم ابتسامة هادئة مطمئنة لم أر مثلها منذ ولدت، ثم نزل من على حصانه وانحنى وأمسك برجل فرسي وتفحص أسفل قدمه وبدأ ينزع الشوك والفرس يتأوه ثم قال: انظر! فقد حدوته عندما غاص في الطين، ثم اخترقت قدمه الأشواك. لا بد يا أخي أن تراقب أين يغوص الفرس وليس فقط كم هو سريع.

قلت وأنا أحاول أن أنهي هذا الوهل الذي انتابني: هل تعرف الكثير عن الخيل؟

أكمل والابتسامة لا تتركه: أعرف القليل، لا أحد هنا يعرف الكثير.

- هنا تقصد القيروان؟

- أقصد الدنيا.

صمتُ برهة أبحث عن الكلمات ولا أجد سوى الصمت. ويبدو أنني بقيت صامتًا مدة طويلة حتى قال هو: تذوقت الكره فلم لا تتذوق الحب؟ ألم تخف من سخط الشيخ وأنت تقف أمامه وتعارضه؟

سيرة عبد الجبار كانت كفيلة بعودتي إلى الدنيا التي تركتها ربما لثوانٍ فقلت: لم أخف.

- لا تخاف في الحق لومة لائم.

- لست متأكدًا ما لو كان هذا إطراء أم ذمًا.

- الصدق دومًا هو الطريق إلى الله.

قلت في جفاء: وكيف وجد الشيخ عبد الجبار طريقه يا ترى؟

- ومن قال إنه وجده يا أحمد؟

قلت بتأكيد: أقسم لك أنه لم يجده.

- لا تقسم ولا ترتكب الذنب. فأنت لا تعرف نفسه ولا نفسي ولا حتى نفسك.

- كيف تعرف اسمي؟

فرد قائلًا: ...ادع له بالهداية. سألتني من قبل.

- أدعو لمن؟ تقصد عبد الجبار؟ فليحترق في نار جهنم هذا الفاسق.

ساد الصمت برهة ثم قال: أرى قلبك صافيًا ولكن الغضب كالغبار يحجب الرؤية.

- لا أفهم كلماتك يا سيدي.

فقال الرجل: كنت خائفًا يومًا أتوقع أن يقتلني السلطان، ثم ذكّرني العليمأن لا سلطان غيره، فخجلت من نفسي واستغفرته. يومها يا أحمد توقعت السجنأو أن تُقطّع أطرافي من خلاف، كنت أردد أن غضب السلاطين كله جهل والجهل قسوة وعقاب وأنا غريب في هذا البلد، مثلك كنت -يا بني- غريبًا. لم أدرك حينها أن الغربة تتبع كل بني البشر وهممت أن أدعو عليه ولكن جاءني هاتف من نفسي خافتًا قائلًا: «إن الله لا يرضى لك أن تدعو بالجزع من مخلوق». وألهمني الله أن أدعو قائلًا: أسألك الإيمان بحفظك؛ إيمانًا يسكن به قلبي من هم الرزق وخوف الخلق. فطلبت من ربي أن أقترب منه فيحجب عني كل شر. طلبت منه أن أقترب فأغيب في حضرته وأقوى، وليس أقوى من الملك لو تدري. لو ظلمك سلطان تلجأ للملك، ومن

يعرف الملك لا يصاب بالخوف أو الغم أبدًا. ولكن هل تعرفه؟

قلت بلا تردد: بالطبع أعرفه وأحفظ كتاب الله.

- لم أسألك عما تحفظ بل عما تبصر. لا يعرف أحدنا أحدًا إلا عندما يقترب. دعوته وأنا منتظر السجن وقلت حينها: إني أسألك أن تغيبني بقربك مني حتى لا أرى ولا أحس بقرب شيء ولا ببعده عني، إنك على كل شيء قدير.

التقت أعيننا من جديد، قلت بلا تفكير: أنا قريب من الله.

- بل هو قريب منك ولكنك لم تقترب بعد.

- وكيف تعرف هذا؟

- من غضبك.

- أي غضب؟

صمت من جديد وأخرج من جيبه دواء وضعه على قدم الفرس وهو يقول: راع فرسك حتى لا تفقده. يقول تعالى: ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾. كيف تسجد؟

- كل يوم في صلاتي.

- حبًا أم خوفًا؟

- ألا نخاف منه جميعًا؟ أم أنك ستقول لي ما قاله عبد الجبار إنني جئت من بلاد الكفار! وإني لا أعرف شيئًا عن ديني.

- حاشا لله أن أحكم على دينك يا أحمد، من أنا لأحكم عليه؟ لا يحكم عليه سواه.

قلت: ولا تظن أن الله يعاقب الأم اليهودية بقتل أولادها؟

قال في هدوء: يقول في كتابه: {الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ}. وفسرها الشيخ الأكبر بأن كل ما تحت العرش مرحوم؛ رحمته وسعت كل شيء، هو لا يعاقب أحباءه ويرحم كل مخلوقاته.

- ولكن .. ما الرحمة في موت الأبناء؟ وهل يرحم الله اليهودية؟

- مهما ضيق البشر الرحمة فهي واسعة، هو يرحم كل عباده. استفت قلبك يا أحمد عندما يعجز العقل عن الوصول. سر القدر يعيا العقل عن إدراكه، وفي الاعتراف بالعجز عن الإدراك إدراك. اطمئن له لتقترب. هل يقترب منك شيء؛ من إنسان أو حيوان إلا عندما تطمئن؟ ثق به ولا تثق بغيره.

- من أنت؟

- اسمي علي.

- من أي مكان؟

- من الدنيا ولكني أبغي وجه الله.

فتحت فمي في ذهول: ماذا تعمل هنا؟

- عبد فقير..

- لا تبدو لي فقيرًا يا سيدي من ملابسك ومن فرسك.

- بل كلنا فقراء، ومن يعترف بفقره ينجُ أنا هنا لأتأكد أن فرسك بخير وأنه لن يغوص مرة أخرى في الوحل ولن يفقد حدوته أستأذنك في الانصراف وألقي عليك السلام يا مرسي

- حيرني اللقاء كما حير الفرس المتهور فرسي وسكن أم أن الحدوة الجديدة أراحت قدميه من عناء الغوص في الشوك والطين الرث؟ ولكنني

تناسيت أمر اللقاء وركزت في أمر تجارتي مع أخي كأنني لم أقابل الشيخ عبد الجبار ولا ابنته. ازدهرت التجارة وأحببت رغد العيش وجمع المال. ازدهرت بسرعة النجوم، ولكن قسيمة لم تتركني أنسى. جاءت بعد حين، دخلت عليّ الخان ورفعت خمارها والدموع تتساقط، وحكت لي كيف أنها حاولت نسيان حبي ولم تستطع. التقت أعيننا برهة ولم أسأل نفسي أصدقت أم لا. حتى وجدتها تقترب مني وتضع يدها على لحيتي وتمررها عليها وهي تهمس: ننسى الماضي ونتزوج.

قلت في بطء: قسيمة هذا لن يحدث.

قامت ونظرت إليّ في غضب ثم خرجت من الخان بلا كلمة. أغمضت عيني حينها ورأيت وجه الشيخ الذي كان يدرس لي القرآن وأنا طفل، هو الزيف نفسه والرياء نفسه. ثم وجه الشيخ الذي درس لي القرآن بعد الثامنة تذكرت صدقه وتدفق الكلمات من حلقه بلا تصنع. وكنت قد أغلقت قلبي عن الكذب حتى جاء أخي مهرولًا يخبرني في حماس أنه ينوي الزواج من قسيمة. قابلها ورأى جمالها وأخلاقها الحميدة لا تزر وازرة وزر أخرى، ما فعله الأب لا تدفع ثمنه البنت. ثم ماذا فعل الأب أصلًا؟ تأجج الفزع بداخلي وقلت له إن هذا مستحيل مأنني لو كنت أريدها لنفسي ولكنني أخبرته أنني لا أوافق، ومع أنني أخوه الأصغر إلا أننا كل ما تبقى من عائلة والدنا ولا بد أن نبقى معًا بدأت خطوات الجفاء بيننا أخبرني أنه سيفكر في الأمر وازداد التوتر منذ ذلك الحين.

كنا نقف معًا في الخان ولا ينظر أحدنا إلى الآخر نبيع القمح ثم نضع الأموال في الصندوق ونقسمها في صمت. نعود إلى بيتنا بلا كلمة.

دخل عليّ شابٌ يصغرني بعدة أعوام وقال في ثقة: إنه يريد شراء القمح له ولكل بلدته وطلب مني أن نوفر له كمية كبيرة. فأخبرت أخي وأنا أتحاشى

النظر إليه. جلس الشاب ثم حرك عينيه ناحية محمد ثم ناحيتي ثم قال: أنتما أخوان أم يعمل أحدكما عند الآخر؟

قلت: أخوان.

فقال: حسنًا ما أجمل حظكما!

- عن أي حظ تتكلم؟

- أنتما في القيروان مدينة مباركة.

قلت في تهكم: نعم مدينة مباركة.

فنظر إليّ في امتعاض وقال: ولكنك لا تعرف السبب يا أخي، هل تعرف السبب؟ وهل ستبيع لي القمح بثمن باهظ طمعًا في مكسب أكبر؟

قلت في حسم: نحن لا نفعل هذا.

ردد أخي: نحن أبناء عمر الأنصاري أكبر تاجر قمح في مُرسية.

- نعم مُرسية.. تُرى هل ستستسلم للفرنجة ظنًا منها أنها ستنجو حينها؟ لا شيء يخدع صاحبه مثل الأنفاس، لا أمان لها. الفرنجة ستدمر أثر البلدة. أنت تعرف يا أحمد.

قلت في مرارة وهذا الحديث لا يستهويني: أعرف.

- الفُرقة تؤدي إلى الهلاك، هكذا علمنا ديننا، وها هي الأندلس تتفكك كما قطعة اللحم العفنة.

التقت عيناي بعين أخي حينها ورق قلبي حتى كدت أعانقه، وتمنيت رحيل الشاب بأسرع وقت لأتكلم معه. وكأنه سمع ندائي قام قائلًا: ولكنك لا تعرف لمَ أصبحت القيروان مباركة ولم تسأل.

قلت: لم؟

- لأن بها الشيخ أبا الحسن الشاذلي.

- البركة لا تأتي بوجود شخص ما.

قال وهو يقوم: البركة تأتي يا أخي بالنفوس الجميلة. هلّا أتيت معي لدرس الشيخ أبي الحسن الشاذلي؟

أطرقت برهة ثم قلت: لا أعرف.. لا تستهويني الدروس، تعلمت وكفى.

ابتسم لي ثم ردد في استهزاء: تعلمت وكفى...يقول تعلمت وكفى! الدرس غدًا فكّر في الأمر.

***

عانقت أخي بلا كلمة ثم شرحت له خوفي وما حدث بيني وبين قسيمة منذ البداية بكل صدق. استمع إليّ ولم ينطق فقلت في تأكيد: هل تعرف عني الكذب؟

خفت حينها على كسرة قلبه وقد بدا تعلقه بابنة الشيخ عبد الجبار. فقلت في حسم: أخي لن يفرق بيننا شيء، فقطع ما هو موصول من الله ليس من سمات الشرفاء.

ليلًا فكرت في أمر أبي الحسن الشاذلي. كلما أطل الفضول على رأسي تذكرت عبد الجبار فنفرت من كل الشيوخ. صليت صلاة استخارة ولمت ليلتي وحلمت حلمًا لم أفهمه ولم أحكه لأحد .

كأنني في بيتي طفل صغير أخاطب شجرة الزيتون أشكو لها ضياع الأهل والوطن. أحدثها عن وحدة ووحشة وسط المدينة، فأومض الضوء من زيتونة خضراء، ثم تبعتها ثانية، وثالثة، ورابعة، وخامسة. استمر الضوء

يخفق كما القلب النابض يدنو وينأى، يحجب ثم يتكشف للبصر كأنه أضاء الدنيا أو بالكاد أضاء قلبي. انفرجت قضبان على صدري وذابت من حرارة النور. لبرهة أصبت بشيء يشبه صحوة الموت ولا أعرف كيف أشرحها. كأنني أغوص في بحر من الحرية والنور، وآية واحدة تتردد في نفسي ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾. لم تستمر اللذة المحيرة سوى دقيقة أو أقل، ولكن ضوء الثمار لم يخسف. استيقظت ونظرت حولي وصليت الفجر ثم عدت إلى النوم والقلق لا يخفت. ثم حلمت من جديد كأنني أتسلق جبل زغوان وحدي، وما إن أصل إلى قمته وأنا ألهث حتى أجلس وأنا أسبح باسم الله. بدت الدنيا محدودة بهية من حولي وجاءني صوت، فالتفت وكان هو «علي» الذي رأيته يوم فقد فرسي حدوته. يرتدي عباءة خضراء وعمامة بيضاء وينظر إليّ وهو يقول: عثرت على ما أبحث عنه. كنت أبحث عنك أنت.

فتحت عيني وقد عزمت أمري على الذهاب لمقابلة الشاذلي.

***

ما إن دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي حتى تسمرت قدماي وفقدت القدرة على النطق. إنه هو علي؛ من حلمت به أمس، ومن أخرج الشوك من قدم الفرس. قام واستقبلني ببشاشة غريبة كأنني ابنه الذي تاه أعوامًا، ثم أجلسني على ردائه الأخضر وقال: عثرت على ما أبحث عنه.. أنت يا أحمد.

الكلمات نفسها التي سمعتها في حلمي. لم أفهم ما يقصد لسنوات بعدها.

اقتربت لأقبل يده فنزعها في قوة قائلًا: أنا العبد الفقير تعال إلى درسي فربما نتعلم معًا.

- ماذا تقصد يا سيدي نتعلم معًا؟

- نجاهد النفس ونفهمها طالما حيينا. أحيانًا تومض النفوس الطيبة كالبرق بالمعرفة فتنضح على غيرها.

فلتأتِ إلى درسي لربما استفدت منك. كل يوم تدفع بنا الحياة لموجة جديدة فتتبدى لنا النفس أكثر وفي مواجهة الأمواج تترك نفسك لتطفو. لا تظن أنها قادرة على المواجهة بدونه. اسجد حينها حبًا وليس خوفًا.

- أنت الشيخ الشاذلي ..

قاطعني: الشيخ يفتح لك الباب، ولو نظرت بالداخل فلم تجد ما تبحث عنه لا تدخل. رحلة المعرفة رحلة وحدة كما الموت والحب.

بحث عني الشيخ الشاذلي قبل أن أبحث عنه، لكل عمر رحلة ووصول، ولكل نفس ما تبحث عنه وتتوق إليه. كنت أبحث عن طمأنينة ومعنى للعيش. كانت الدنيا أمام عيني كالأحرف بلا حركات أو نقاط فالتبست لدي الكلمات وارتبك الهدف ذاته. لِم يغيث التدريس للصغار ولم أبحث عن شيء أعمق من الحروف؟ الإيمان بالله يكفي فلِم تؤرقني علاقتي به؟ أريد القرب والاطمئنان، أريد السكينة والسعادة. ربما قادني نحو الشيخ طموح بريء إلى الرضا ولم أدرك حينها ما أروم إليه ولا مخاطر الطريق.

* * * * *

السفر الثالث

شاطئ الإسكندرية

1245م 643هـ

الغربة كما الندبات التي تحيط بشغاف القلب، والوحدة لا تترك الصدر ولا تريحه. رأيت مدينتي أمامي تدنو وتنوء، يمحو الفرنجة معالمها فتنهدم

المساجد ويفر الخلق ما بين حيران ومذعور وخائف ومترقب. ما أقبح البشر وما أبشعهم! سفر البحر ينكأ الجراح، والأمواج تثقل على الأحمال. لم أر من بني آدم سوى البؤس والجهل.

وأنت يا هو يا الله، إليك أنت الجأ.. قربني إليك فمحاولتي لا تبدو نافعة. تركت طيب العيش ولبست الصوف، ذكرتك محزونًا في الغار وبين ثنايا الجبال، خفت من سخطك ولم أفز برضاك. ماذا تطلب مني؟ كيف لي أن أعرف أنني اقتربت؟ وكيف لهذا الشيخ أن يطيب له العيش بين سفك الدماء والغدر؟ أرى الاطمئنان في كلماته القليلة، والرضا في الأحداق والتسليم بين الجوارح. ها أنا أحمل من مدينة إلى مدينة.. من مرسية إلى القيروان، ومن القيروان إلى الإسكندرية والغم لا يتركني. أحمل غربتي ووحدتي لا أكثر. مات بداخلي الوطن وأنا أدرك أنه لن يُبعث، فلا فرصة ثانية ولا توبة هنا.

يا قريب، أنت القريب وأنا البعيد، قُربك منى أيأسني من غيرك، وبُعدي عنك ردني للطلب منك، فكُن لي بفضلك حتى تمحو إرادتي بإرادتك يا قوى يا عزيز.

تفحصت الشيخ وهو مسبوغ بالرحمة والرضا، خرَج من تونس وهو يعرف أن الحاكم لن يتركه لحاله، ترك وطنًا من المسلمين كما تركت وطني للفرنجة. وما الفرق بين شاطئ وشاطئ والبحر كله أسماك يأكل بعضها بعضًا؟ لو عدت اليوم إلى مرسية أقابل الأسماك المتوحشة بأنيابها الفتاكة وعشوائية بطشها، ولو عاد أبو الحسن الشاذلي إلى وطنه يقابلهم أيضًا. تغير عليه الحاكم وأصبح مصيره السفر أو السجن والموت.

دلني على الطريق يا ربي فقد أرهقتني القسوة وأضناني طول الأمل.

قال الشيخ وكأنه يسمع مناجاتي وعيناه تتجهان إلى ضوء الشمس النائي

من شاطئ الإسكندرية والسفينة تقترب كأنها نهاية الرحلة: يا أحمد.. ألق بنفسك على باب الرضا وانخلع عن عزائمك وإرادتك..

وكأن غبار الشمس يعبر مسبر الأحداق فترقرقت الدموع لأول مرة والتفت إلي وقال: أحمد لِمَ أنزل الله آدم للأرض؟

قلت بلا تفكير: جاء إلى الأرض ليسفك الدماء وينشر الفساد.

- هذا كلام الملائكة.

- رأيته بأم عيني.

- ولكن الله رأى القلوب ورأيت أنت الرسوم والصور.

- نقطة سوداء داخل النفس تدمر الأرض وما عليها.

فقال أبو الحسن: بل نقطة خير داخل النفس تقيم الأرض وما عليها، انظر حولك.

- أرى الحروب والضلال.

- وأنا أرى الخير والحكمة ..الأثر والعلم، الرحمة والكرم، صفاء النفوس ورضا الجوارح ورقة الأفئدة.

- يا سيدي ...

- أنت مثل الملائكة أعلم بأمور السماء عنك بأمور الأرض، ولكنك لا تعلم بعد أمور الأخلاء والأحبة. لا تكترث للشر.. أنت تعطيه أكبر مما يستحق. يا أحمد..

- نعم يا سيدي.

- تُرى ماذا ينتظرك في الإسكندرية؟

- زهدت في الدنيا وما عليها.

- لم يخلقنا الله للسخط، الزهد أكبر من لبس الصوف. الزهد هو أن تثبت مع تقلبات الحال بنفس راضية، وتجعل الدنيا في كف يدك وليست في قلبك. لو لبست الصوف لأنك غاضب فلا قرب، ولو زهدت في الدنيا وهي في قلبك فأنت لم تعرفها. اعرف الله وكن كيف شئت.

- أعرفه يا سيدي.

- تصلي وتصوم وتدعوه بصدق أعرف، أعيتك الحِيَل، تهرول للاقتراب منه خوفًا ورغبة في النجاة. اقترب لتفرح بقربه، اقترب ثقة وطمأنينة بلا مطالب وبلا خوف. لمَ أنزل الله آدم إلى الأرض؟

قلت بلا تفكير: ليعاقبه.

ابتسم ثم قال: آدم خلقه بيده، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، ثم نزل به إلى الأرض؛ والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله. ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ما قال في السماء ولا في الجنة؛ فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة، فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توافرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته. وأنت أيضًا لك قسط من آدم، كانت بدايتك في سماء الروح في جنة التعريف، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف. فإذا توافرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

لا أدري لو كنت أعي حينها تداعيات كلماته ولكنها سكبت على الفؤاد دواء سحريًا، فسألت الله حينها في لهفة: بم تكلفني يا ربي؟ وكيف لي أن أعرفك

بحق؟

عندما يغيب وطن الطفولة لا بد من بناء أركان في الذاكرة، زوايا لأماكن خاصة بك وحدك حكرًا عليك دون البشر. كنت أفضل الوحدة على مصاحبة الناس منذ الصغر. كل فجر أخرج من باب البحر إلى فنار الإسكندرية، عند الفنار أشاهد من يغادر ومن يصل، وأرى الضوء الخافت للقمر تارة وللفنار تارة. أطارد الضوء أينما كان. ولعي بالأضواء جعلني أقضي كل أوقات فراغي هنا عند الفنار، هو أطول بناية رأتها عيني. كأنها تتضرع إلى السماء. أهل الإسكندرية يقولون إنها أقدم فنارة في الكون. هنا أضاء أول ضوء ليرشد السفن الحائرة. ليس من العجب أن يختار اللاهث اللجوء إلى هنا، ولا من العجب أن ألتصق بنوافذها كما الغريق الهارب من بطش البشر. كنت أصعد إلى أعلى المنارة كل يوم أحيانًا جريًا وأنا ألهث، وما إن أصل إلى القمة حتى أختلي به. عند قمة الفنار يستقر الفانوس الضخم منبع الضوء للسفن والمسافر وعند قمة الفنار أبحث أنا عن ضوء أكثر اتساعًا وحرية من ضيق البحر وحدود العالمين.

في الطابق الأول من المنارة تتعدد النوافذ وتمتص نور الشمس والقمر معًا. الطابق الثاني مثمن الأضلاع والثالث دائري، ووسط فراغ الدائرة يكمن السر الذي أبحث عنه. ولكنني لم أجده بعد، ولَكَم حاولت ويئست وصرخت وناجيت الراحلين كما الطفل التائه. هذه المنارة عجيبة؛ ليلًا يرى المسافر نورها من بعيد، ونهارًا تنعكس المرآة المعدنية على الشاطئ لتنبه السفن بنهاية الرحلة. هذه المرآة قرأت عنها وولعت بها. تمنيت واحدة داخل نفسي ترشد وتدل. كل يوم أحاول فك لغز المرآة ولا أعرف. بدأت تسيطر عليّ حتى أتيت بالكتب القديمة وحاولت تعلم لسانها ولم أحتج إلى الكثير من الوقت. كنت أتقن لغة الفرنجة، ولغة القدماء قريبة منها. بحثت بلهفة عن كيفية نقل الخشب إلى أعلى الفانوس، وتعلمت حينها أن العلم يقف عاجزًا

عن فهم الماضي. هل تحركت الحمير طلوعًا ونزولًا بالخشب لإشعال الفانوس؟ أم أن هناك ابتكارًا استعصى علي فهمه؟ ومن هو الحاذق في الهندسة الذي بنى هذه المرآة المعدنية؟ أصبحت أقضي يومي أحاول أن أفهم سر النور المتدفق من أسفل إلى أعلى. أغمض عيني وأسمع أصوات السفن وحركاتها. أحيانًا تتمثل أمام عيني سفينة تغرق بأمي وأبي، وأخرى تحمل فارين من بلادي. كم سفينة أتت من بلادي إلى الشاطئ أرشدتها الأنوار إلى الإسكندرية! من يأتي هنا يعرف أن العودة مستحيلة كأن العمر قصير على عبور البحر مرتين. أثر يمحى وآخر يبنى، هذا يدنو من النور وهذا ينوء.

***

كنت أجلس عند الفنار كل فجر كأنني أنتظر سفينة تحمل معها النجاة ولم تأتِ بعد. مر عام وراء عام، قضيت أيامي في التجارة والقراءة، أصبحت القراءة هي سلواي عن كل غربة، أقرأ عن الحساب وعن المنطق وعن الهندسة، كما أقرأ كتب الشيخ الأكبر وحجة الإسلام والقشيري وأبي طالب المكي. ولكن عندما قام شيخي من نومه وهو لا يرى، تسرب الخوف ثم استقر. فقد أبو الحسن الشاذلي بصره وفقدت أنا الطمأنينة التي اكتسبتها خلال السنوات القليلة في الإسكندرية؛ لماذا؟ ماذا فعل أبو الحسن الشاذلي ليستحق هذا البلاء؟ سؤال ساورني كما الوسواس.. فرددت: كل قضاء الله خير. وكأن الشيخ سمعني فوجدته يردد: ذهب العمى وجاء البصر..

قلت في شفقة: يا سيدي..

- يا أحمد انظر ببصر الإيمان واليقين تر الله في كل شيء. أما الحواس فلا يعوَّل عليها. خلق لنا الروح والقلب والعقل؛ لأنه يعلم قدرنا عنده ويتوقع منا كل جميل.

قلت في ألم: يا شيخي..

- قضاء الله خير يا أبا العباس، انعكس بصري على بصيرتي فأصبحت كلي مبصرًا.

ثم أملاني الرسالة لأكتبها إلى أصحابه في تونس والذهول لا يتركني من رضاه بالقدر وشكره على القضاء: «أكتب الكتاب إليكم من الثغر حرسه الله ونحن في سوابغ نعم الله نتقلب، وهو بفضله وبوده إلينا يتحبب، قد ألقى علينا وعلى أحبابنا كنفه، وجعلنا عنده، فما ألطفه! ندعوه فيلبينا، وبالعطاء قبل السؤال ينادينا، فلله الحمد كثيرًا كما ينبغي لوجهه الكريم وجلاله العظيم. وأما الأهل والأولاد والأصهار والأحباب ففي سوابغ نعم الله يتقلبون، وبإحسانه ظاهرًا وباطنًا مغمورون. نسأل الله المزيد التام العام لكم ولهم أجمعين، وأن ينوب عنا في شكره، إنه أكرم الأكرمين».

ولكن الراحة التي تكلم عنها شيخي لم تكن تطرق خاطري إلا قليلًا. لم يزل القلق يسيطر على أيامي وانتظار الخطر يؤرقني، وجاء الخطر كما توقعت. خرجت من بلادي قبل أن تقع في يد الفرنجة ولكن وثب ورائي الخطر فلا مفر. هجم الفرنسيس على مصر ظنًا أنهم يرفعون اسم الله عاليًا. اضطرب المصريون وازداد يأسهم عندما استقر ملك الفرنسيس في دمياط واتخذ مسجدها كنيسة. كأنني أرى بلادي مرة أخرى وأهلي والخراب الذي سيعم. الحروب لا تخيفني ولكن يفزعني القسوة باسم الرب والمحو باسم الورع. خرج أهل مصر يدافعون عن بلادهم وخرج معهم الشيخ أبو الحسن الشاذلي.

السفر الرابع

المنصورة

1250م 648هـ

في لحظات الخطر تتصرف اليد باستقلالية مفزعة. بارزت الفارس الإفرنجي بكل قوتي، ضغطت على سيفه، دفعت بجسده إلى الأرض، صارعته عندما هم بلكمي، راوغته وهو يهاجمني، تملصت من قبضته وهو يهم بغرز الخنجر في يدي ثم أغمضت عيني وارتجفت شفتاي وسيفي ينهال على صدره.. إلهي لقد كرهت إليّ قتل النفس التي خلقتها، ولكن لا مفر اليوم؛ إما أن أقتله أو يقتلنا جميعًا. يا رب، لو فعلت ما يغضبك فرحمتك واسعة.

شهد لي كل أمراء المماليك منذ قدومي مع الشيخ أبي الحسن الشاذلي إلى المنصورة أنني أسوأ مقاتل رأوه. فأنا أتردد وأنا أصيب السهم، أفكر وأنا أغرس السيف، يختلج صدري وأنا أرمي بالرمح. قالوا: هذا رجل لم يُخلق للقتال الحشي، يجاهد نفسه نعم، ولكن ما باله بجهاد الفرنجة ؟!. بعد إعلان النفير العام أصبح من واجب كل إنسان أن يقاتل. أمسكت بيد شيخي ومررت به على كل أزقة المنصورة ثم حدود دمياط، يدعو الشاذلي الناس لقتال الفرنج والسيف في يده. تمكن الفرنج من دمياط قبل عام. قالها الملك الكامل في الماضي: المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت. ورددها الأمراء. ولكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يحتضر اليوم في الديار المصرية أو ربما مات منذ أيام. كنت أحكي لك عن كرهي للقتال. قضيت السنوات السابقة في الإسكندرية أتعلم وأتاجر وأحارب نفسي وغضبي. كنت أبحث عن الجمال وسط القبح، وأساعد المذنب قبل التائب. أزور السجناء وأستمع إليهم، أخفف عنهم

وأدعو لهم. بدأت أرى ذرات متناثرة من الخير وسط العفن. واليوم عند بحر أشموم لا أرى سوى القبح. لو كنت تختبرني يا ربي فلا أعرف إذا كنت سأنجح. إليك أنت يا الله أدعو، سامحني لو قتلت عبدًا من عبادك فكلهم عبادك الكافر والمؤمن. واغفر لي كرهي اليوم لجهل البشر وكبرهم، حاولت أن أكره أفعالهم ولا أكرههم ولكني لا أدري إذا كنت أستطيع.

كنت أحكي لك عن هجومنا على الفرنجة من حين إلى حين وتمركزنا جميعًا عند المنصورة. طالما بحر أشموم يفصل بيننا وبينهم فلا دخول لهم إليها. لو دخلوا من دمياط إلى المنصورة وانتصروا ضاعت مصر ومعها كل البلاد. اليوم خرجت مع بعض الجنود لنقوم بهجوم مفاجئ على عسكر الفرنج المستعدين للقتال. واليوم غرست سيفي في كتف الجندي..واليوم تغيرت حياتي.

سمعت الصراخ والجندي يهوي على الأرض وكدت أن أفقد اتزاني حتى إنني لم أدرك هل جاء الصراخ من ورائي أم أمامي. فتحت عيني أنظر إلى الجندي الملقى على الأرض.. لم يأت الصراخ منه. أدرت وجهي فرأيت فارسًا يرفع يده بسهم بعد أن رمى بآخر للتو فاستقر في صدر أحد جنود الفرنجة. لوهلة اختلط عليّ الأمر أعدت كل المشهد أمام عيني. كنت أصارع جنديًا همّ بقتلي فضربته بالسيف، ثم جاء جندي آخر من جنود الفرنجة لقتلي وكاد يغرز سهمه في ظهري، جئت مع سرب من الجنود ولكنني لا أرى أيًا منهم. لم يكن معي إلا فارس ظهر كأنه جن سليمان. لولا الفارس الملثم الذي باغت جندي الفرنجة بسهم في صدره كنت سأصبح ميتًا. انتزع الفارس السهم من صدر جندي الفرنجة في قوة وبلا أي تأثر وأعاده إلى جعبته ليستعمله من جديد. من الصعب شرح ما يحدث في الحروب.

متى اختفى من حولي السرب؟ ومتى ظننت أنني منتصر؟ فوجدت أن الخطر ليس من السيف في يد الجندي الذي أمامي، بل من السهم المصوب خلفي. ولم أزل غريبًا أقاتل وحدي. حدقت في الفارس ومرارة القتل تصيبني بالدوار وأنا أستغفر ربي بلا توقف. فقال الفارس في حدة: لقد أنقذت حياتك للتو، هيا انزع سيفك من كتف الجندي وارحل من هنا. ما طلبه مستحيل، كيف أستطيع أن أنزع السيف وأنا لم أزل أعاني من غبش ليل القتل؟ تملكني الذهول فجأة وأنا أسمع صوت الفارس. لا بد أنني فقدت عقلي لحظة القتال. التقت أعيننا أنا وهو ولم تخطئ أذناي ولا عيناي. من يتكلم معي ليس بجندي ولا برجل بل امرأة.

أغمضت عيني وأنا أظن أنني في سكرات الموت ثم فتحتهما وقلت وأنا أنظر حولي: كيف..

قالت في نفس الثبات: كيف ماذا؟ كيف أحارب كالرجال وتتردد أنت في قتل الجندي؟ لأنني أعرف مصير البنات في يد جنود الفرنسيس يا رجل. ولكنك ستحتاج إلى أن تؤمن ظهرك بعد ذلك، ابحث عن السرب الذي تنتمي إليه.

قبل أن تكمل وقبل أن أفكر أمسكت بيدها ودفعت بها إلى الأمام لأتفادى رمحًا قد اتجه ناحيتها، ثم جريت بها حتى كادت تتعثر وأنفاسها ترج الأرض رجًا ووراءنا ثلاثة جنود. دفعت بها إلى أحد البيوت وطلبت منها أن تصعد إلى سطح البيت وتختبئ هناك، فأبت ومدت يدها بسيفها وهمست وهي تستقر وراء عمود البيت المظلم: سيجدوننا الآن. قلت لك: خذ سيفك ولم تطاوعني؛ خذ سيفي أنا إذًا ولا تتردد ولا..

قاطعتها: توقفي عن إعطاء الأوامر وجودك هنا خطأ أصلًا.

- لقد أنقذت حياتك.

- ولكنك امرأة!

نزعت الغطاء من على وجهها، نظرت إليها في الظلام وأكاد أقسم أنني رأيت كوكبا دريًا ينير في عتمة الليالي؛ وجهها المستدير وعينيها الواسعتين والشموخ في لحاظها والكرامة في فيها. سقط قلبي أو كاد. نسيت أين أنا وماذا أفعل. لهنيهة جفلت، ثم غفلت وتملكتني صحوة الموت فقلت: وجودك هنا خطر تعالي أعيدك إلى أهلك.

قالت: عد أنت إلى أهلك، فلا قدرة لك على القتال، أما أنا فقد تدربت طوال عمري.

- يا سيدتي..

- ابحث عن السرب الذي تنتمي إليه.

وضعت يدي على فمها في تلقائية ففتحت عينيها في فزع ولكنها أدركت ما يحدث أمام البيت المهجور. دخل جنود الفرنجة يبحثون عنا فسمعت حسيسًا كأنه حسيس النيران. لم أعرف بالضبط هل أحرقوا البيت بنا أم أن أقدامهم نيران تحرق النفوس. حركت جسدي حتى تكون ورائي وبحثت حولي عن أي سلاح، فأعطتني السهم وانتظرت، ثم أطلقت السهم فنفذ إلى الصدر مباشرة، ولم أعرف إن كنت قد أطلقته أنا على قلب العدو أم أخذته بنفسي من يدها ليرمو في فؤادي. سقط الجندي أمامي فحاول آخر أن يرمي بسهمه فتفاديته وأخذته وردته إلى صاحبه فأصاب كتفه. عمّ الصمت. بعد برهة تسللت خارج البيت فلم أجد سوى جندي ميت وآخر جريح يتأوه. أمسكت بيده وجررته ورائي إلى داخل البيت وأسندته على العمود القائم وأنا أنظر إلى جرحه فقالت في غضب: ماذا تفعل؟

- لم يزل حيًا.

- لكننا سنموت لو لم نتركه، لا وقت لدينا لهذا، أصحابه يعالجونه.

قلت في تأكيد: بل لو تركته يموت.

نزعت عني قميصي وربطت به الجرح الذي أغرق ذراعه وقلت بلغته التي أتقنتها منذ الصغر لأنها كانت لغة أمي أيضًا في مُرسية: لا داعي لهذه الحرب، تعرف أنه لا داعي لهذه الحرب، الطمع نهايته الفناء.

لا حروب باسم الرب يا أخي، الله في كل مكان اعبده حيثما تكون، لا تسافر المسافات بحثًا عنه، فلو لم تجده في قلبك فلن تجده.

قاطعتني في استهزاء: لقد فقدت عقلك! ماذا تخبره؟ إنه عدوك!

قلت فجأة: أين بيتك يا أختاه؟

- هذه المدينة بيتي.

- أريد أن أحميك..

- احمِ نفسك لو استطعت يا شيخ.

- وكيف عرفت أني شيخ؟

- تتقن الكلام ولا تفرق بين من يسمع ومن لا يسمع.

- لأننا لا نعرف أي كلمة تصيب القلب.

ابتسمت وأمسكت بشعرها لترفعه وترتدي العمامة مرة أخرى وقالت: اخش على قلبك يا شيخ أن يصاب في هذه المعركة. أما أنا فلا تخف عليّ، أعرف كيف أحارب.

ثم اتجهت إلى الباب فقلت مسرعًا: ما اسمك؟

ابتسمت وقالت في رقة لأول مرة: لطيفة.

خرجت من البيت فتتبعتها بعيني وخرجت وراءها والخوف عليها ينتشر في الأحشاء وقلت: لطيفة، لا تخرجي وحدك.

رفعت سيفها ثم قالت: لا تقل لي هذا مرة أخرى يا شيخ.

- ما الذي أغضبك في كلامي؟

- من أنقذك؟

- أنت.

- إذن لا أحتاج إلى حمايتك.

- كل الجنود تحتاج إلى الحماية.

- إلا لطيفة. السلام عليك يا شيخ.

جرت بأقصى سرعة حتى غابت عن عيني وتهاوى وراءها الفؤاد. نظرت حولي أفكر كيف أصل إليها، فجريت بأقصى سرعة لألحق بها.. لكنني لم ألحق بها وتلاشت وسط الفوضى.

***

كنت أكره القتال.. نعم، ولكنني رأيت أهوال الحروب متمثلة أمام عيني، وأطعمتني الحرب رائحة الكره والدم فلفظت كل ما في جوفي. أراد الفرنسيس أن يتوجهوا إلى القاهرة مباشرة وحدثت الخيانة. الخيانة تحدث دومًا، تعلمت هذا في سنواتي الثلاثين. كنت أقول لك إن ما منع الفرنسيس من دخول المنصورة هو بحر أشموم. ولكن للبحر أسراره

ومفاتيحه، دلّ أحدهم الفرنجة على مخاض وسط البحر يمكنهم العبور منها إلى المنصورة. فعبرت أسراب من الفرنسيس والإنجليز مُحمّلة بالسلاح والخيول وأذهلوا جيوش بني أيوب في الجديلة. حتى دخل الفرنسيس قصر الأمير فخر الدين يوسف وكادوا يصلون إلى شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب. سمعت صرخات النساء وأصبح القتال أمرًا لا مفر منه، أتى المصريون من كل فج عميق وهم يدركون الخطر المحيط بهم.

هرولنا لإنقاذ نساء القصر وحرامة زوجة السلطان أم خليل شجر الدر. ها هو الأمير قد مات والملك مات أيضًا. أخفت شجر الدر الخبر وأمسك أمراء المماليك بقيادة الجيش وبالمعركة وبمصر. كنت أعرف الأمير بيبرس البندقداري، دربني بنفسه وأظن أنه لم يحب ترددي ولا طريقتي حتى إنه شكا إلى شيخي قائلًا: اتركه يعظ الناس فهو لا يصلح للقتال.

لكني رفضت. لو قاتل كل المصريين كيف لي أن أعظ؟ ومن أعظ؟ هذا خطر يحتاج إلى الحرب وليس العظة. كنت أفكر في لطيفة كل يوم وكل ساعة بين أنفاسي ولحظاتي وحركة يدي. كيف يجتاح الحب المعارك؟ وأي حب يحيا وسط كل هذه الدماء؟ أسهر على حرامة القصر ويسهر بجانبي صديق الحرب محمد البوصيري. تنعس عيني بسنة الكرى فأسمع صوته يحكي عن حبه لابنة الأمير فخر الدين الأيوبي التي استغاثت به عند موت والدها هنا في الجديلة.

أقول في تهكم: تحب أميرة يا أخي؟ ماذا تروم من هذا الحب؟

فيجيب البوصيري: وهل للعاشق أن يختار؟ أحببتها وتمنيت أن أدثرها بأحشائي من كل خوف، قوت القلوب ملكتني يا أحمد.

قلت في شفقة: وهل لك أمل في الزواج من الأميرة؟

فريد: الحب لا يعقل الآمال ولا يزنها ميزان العدل.

- كلماتك كما كلمات الشعراء يا محمد يا بوصيري. يا أخي، سقمي من سقمك، وشغفي كما شغفك، ولكن من أحبها تبدو كفارس من جان يختفي كلما دنوت، ويتملص من بين ساعدي كلما طويته.

المنصورة 1250 م

كلام الحروب لا يُعوَّل عليه. سمعت السب والشتائم، سمعت من يصرخ باسم ربه وهو يغوص في لجج لا نجاة منه. رجل يفقد ذراعيه، وآخر يفقد عينيه، وثالث يفقد أولاده. سيف يبتر كل الأماني، وسهم يثقب أغوار الفرح. سمعت بأذني بعضهم يصيح: أين أنت يا رب؟ تقول إنك موجود وتتركنا بين يد الفرنجة ينتصرون؟

أعرف هذه الأنفاس وهذا الخاطر وتلك العينين؛ رأيتها تداوي الجرحى وكأنها هي ولكنها ليست هي. فقد تبدلت الشجاعة بالحيرة والجرأة بالتوجس، اقتربت مني وبدأت تنظف جرح ذراعي، نطقت اسمها لأطمئن نفسي: لطيفة..

التفتت حولها ثم تظاهرت أنها لا تعرفني ولم تجب. قلت من جديد: أحمد الله أنك بخير يا أختاه.

نفزت ذراعي، فتأوهت، فقالت وهي تقطب حاجبيها: اثبت يا رجل، هو جرح بسيط.

فتحت فمي لأتكلم فقالت في حسم: أنا لا أعرفك اتركني أضمد جرحك، هناك الكثير من الجرحى.

وأخفت عينيها عني ثم ابتعدت قبل أن تقترب.

فتحت فمي وعدلت عن الكلام. رأيت أمامي طفلة خائفة واجتاحني الحنين. كنت أراقبها عن بعد خوفًا عليها من الأذى. ليلًا رأيتها تخرج من خيمة الجرحى، تلتفت حولها وتربت على السيف في ردائها. ثم هوت إلى الأرض وعضت على أصابعها بأسنانها وسمعت صوت تشنجات البكاء. جلست موازيًا لها وقلت وأنا لا أنظر إليها: هل أهلك بخير؟ أنت بخير؟

لم تجب.

فقلت: لو أخبرتني ما الذي يخيفك أساعدك.

ابتسمت بين دموعها قائلة: إذا كنت أنا من ساعدتك وأنقذت حياتك.

قلت وخفقات قلبي تملأ المساء: أنت أشجع مني هذا أكيد. نذهب إلى بيتك، أنت لست بخير

- لا أريد الذهاب ولا أستطيع.

- والدك غضب منك؟

- هو لا يعرف شيئًا.

سمعنا صوتًا يقترب من بين الأشجار. شهقت واحتضنت نفسها ونظرت إلي مستغيثة، ولولا خوفي على صونها لطويتها بين ذراعي وأبقيت عليها إلى أبد الآبدين.

قالت في صوت متقطع: سأبقى هنا حتى الصباح، لا أريد أن أبرح هذا المكان. هل تبقى معي؟

قلت بلا تردد: أبقى معك، ولكن لم تبقين هنا في الصقيع؟ ادخلي خيمة الجرحى.

قالت في حسم: لا ولو أردت الذهاب فاذهب.

خلعت لها عباءتي وافترشتها لها فجلست في ترقب وابتعدت أنا عنها خجلًا وعيني لا تترك ظلها. أدركت حينها أن للحب تعريفًا واحدًا، هو أن يجتمع الناس حولك ويتفرقوا وأنت غائب عنهم، لا زمن ولا مكان يقيدك، حالك في مقلتيه وروحك تحوم حول أنفاسه.

قالت بعد برهة: أنا أعرف من خان..

لم أندهش، كنت أشعر منذ رأيت حبال الخوف تتخلل قلبها النافذ الجريء. قلت: تقصدين أنك تعرفين من دل الفرنجة على المخالض في بحر أشموم؟ هو ليس بغريب عنا، هذا أكيد، وليس بمسيحي كما يدعي البعض.

التفتت حولها في يأس وقالت: لا أعرف اسمه ولكني رأيته.. ورآني.. سيقتلني قبل أن أخبرك ..أو أشهد عليه. لو قتلني أخاف حزن أبي. عندما رآني وهو يتفق مع الفرنجة هرول ناحيتي فجريت بأقصى سرعة ولكنه توعد بقتلي. لقد سمعته.

شهدت على تردد أصابعها وقبضتها على قلبها كأنها توبخه ثم قالت: أنا لا أخاف، أنا أخاف على أبي، لكنني أحارب مثل الرجال، ربما أفضل. طالما معي ربي وسيفي لا أخاف.

كتمت ابتسامتي فنظرت إلي في غضب وقالت: هل تسخر مني؟

- بل أتعلم منك الشجاعة.

التقت أعيننا فقالت في إحباط: كنت أتوقع أن أكون أكثر شجاعة.. ها أنا أرتجف كالنساء.

- بل كالبشر.

- أنت ..غير باقي الرجال هنا..

- كما أنك غير كل النساء هنا..

تحركت من مكاني فرفعت يدها وأمسكت بقميصي بلا تفكير وقالت في رجاء: لا تتركني.

- لم أكن أنوي تركك، لا أستطيع.

نظرت إليها وإلى أصابعها التي تتشبث بقميصي فجفلت هي، ثم ابتعدت قليلًا وقالت: ليتني لم أر ما رأيت، كل هذا الدمار! ما أبشع البشر! وما أقساهم!

فقلت: ولكن هناك بشر مثلك لا تنسي.

- قليلون من يجودون وقت الخطر ويرحمون في لحظات الخوف.

كنت أعرف شارعها وهذا يكفي. عند انتهاء الحرب أريدها لي. كأنني أريد أن أقبض على الحرية التي شعرت بها في أحداقها، وعلى الحيرة التي تصاحبني وعيني لا تنظر إليها. ساعات قضيناها مقتربين مبتعدين، نختبر الكواكب ونخاطر بالطير للنجوم. لا تسألني عن ماذا تكلمنا حتى اقترب الصبح.. ربما لم نتكلم، ربما حاولنا فقط أن نبقي على لحظة الانسجام التام وجمال ضوء الطمأنينة وسط الدجى. ترى لِمَ يحاول الإنسان دومًا أن يقبض على لحظات الرضا والأمان؟ أرى أننا خُلقنا للرضا لذا نبحث عنه، ولكننا نبحث حيثما لا يسكن. هذه الطاقة للبحث هي ما لا أفهمه أو ما لم أفهمه بعد. قبل انتهاء الليل جاء الفراق المصحوب بالخطر.

فهذه الأشجار لا تتحرك عبثًا، سمعت صوت صياح الجنود المصريين ورأيت المعسكر محاصرًا بجنود الصليبيين. كنا مائة ما بين جريح ومريض، ومعنا

عشرة جنود لا أكثر وخمس عشرة امرأة تساعد المرضى. لم يكن هناك أمل في النجاة.. هجم الصليبيون على المعسكر.

***

رأيت سيوف الصليبيين حول رقاب الجنود وأيديهم تقترب من النساء. سمعت أصوات الجرحى تحوم في الهواء وعرفت.. اقترب مني الجندي أو كاد، لم يزل بعيدًا، ولم يزل هناك لحظات تفصلنا عنهم. أمسكت بها.

قبل انتهاء الساعة سيفصلون النساء عن الرجال وستصبح هي جارية عند الصليبيين. كنت أدرك هذا. اقتربت منها وأنا أنظر حولي ثم قلت: هل تثقين بي؟

حركت رأسها لتنظر إليّ فقلت مسرعًا: لا تنظري إليّ، اهمسي بما تريدين..

- تسمع جيدًا يا أحمد.. حتى وسط الضجيج، أنا لست خائفة. الله معنا. أم تخاف يا شيخ؟

قلت في مرارة: أقول لك الحق.. أخاف عليك..

رأيتها تغلق عينيها ثم تنتفض ضلوعها وهي تقول: أريد أن..

قاطعتها: هي محاولة..انظري إلى هذا الفرس البائس أسير في يد الجندي.. أريدك أن تمتطي الفرس بأقصى سرعة وتهربي..

فتحت فمها في فزع: مستحيل..وسط الجنود..

- عهدتك مؤمنة..

- ماذا تنوي؟

- لا تسألي..عند مواتاتك الفرصة اهربي ولا تنظري خلفك ولا تبحثي عني..

عديني أن تهربي، أموت ولا أراك بين يدي الصليبيين..

- أنت..

قلت في حسم: تنفذين ما أطلبه.. لا تنظري وراءك..

ثم رددت وهي تبتعد وتلتفت إلي: لا تنظري وراءك..

قبل الانتهاء من الكلمة اندفعت بكل همتي ناحية الجندي الذي يسير أمام الفرس، وألقيت بنفسي عليه بكل ما أوتيت من قوة ونزعت سيفه ووضعته على رقبته فترك زمام الفرس من يده... هاج الجنود وتمتموا بالكلمات. صحت بالإفرنجية أنني لن أترك الجندي إلا بعد تحرير كل النساء. شعرت بها خلفي تمتطي الفرس وتختفي من جديد.

ما إن جرى الفرس حتى احتشدت النساء الواحدة تلو الأخرى يجرين ويصرخن..

مر الوقت لا أدري كيف، وكلما حاول الجندي أن يتحرر سيطرت عليه بما أوتيت من قوة في لحظتها، كانت معجزة ربما. اقترب آخر فركلته، وآخر ففعلت نفس الشيء. مرة وثلاثًا وأربعًا.. كانت قوتي حينها تكاد تحيط بمعسكر الجنود والمنصورة ودمياط. خرجت أنفاسي واثقة.. والخوف يوقظ الهمم أحيانًا.

انقض علي جندي قائلًا في قوة: اقتله وينتهي الأمر.

حاول أن يدفع بي إلى الأرض فلم يفلح. نظرت حولي فوجدت الفوضى تعم والنساء ما مكثت أن تجري بأقصى سرعة حتى اختفى أثرهن. قلت: هات حصانًا.. لو فعلت أتركه..

قربوا مني الحصان.. تركت الجندي وامتطيته، وقبل أن أهم بالتحرك

انهالت عليّ سهام الصليبيين، انحنيت ويدي تمسك باللجام والأخرى على رأسي ووغزت الفرس لعله يجري ولم أشعر بشيء بعدها. خيم ظلام يتسع مرة ويضيق أخرى.

***

غمر الألم كل الجوارح، حتى الآه أصبح نطقها مستحيلًا، لكنني شعرت بعينيه تخترقان الجروح وصوته الجاف الساخر يقول: أصيب الشيخ العابد كأن الكرامات حقيقة يا أخي.. كيف لمثلك أن يعيش، لا أدري! ولكنك أنقذت كل نساء البلد من الأسر والذل. ترى.. هل أخطأت في حكمي عليك يا أحمد؟

قطبت ما بين عيني ولم أنطق فقال في صوت حاسم: أجب يا أحمد عندما يسألك القائد. انظر إلي..من ترى..

حاولت فتح عيني بصعوبة ثم قلت في بطء: بيبرس..

- ها هي سكرات الموت تأتي محملة بالشجاعة.. بيبرس فقط.. بلا أستاذ مثلًا. قائدك بيبرس، أستاذك يا جندي..

جلس بجانبي والصوت يزعج الجروح وقال: أحمد ليس أي جندي.. أحتاج إليه معي، لا بد أن يستعيد عافيته لأن الحرب لم تبدأ..

قلت تائهًا: هرين؟

ابتسم في حذر ثم قال: كأنك تريد السؤال عن واحدة بعينها يا رجل.

لم أستطع النطق ولكني تيقنت أني حي، واجتاحني خوف مظلم بأنني لن أراها بقية عمري ولن أعرف هل نجت أم لا. الخاطر لم يسكن القلب ولكنه أصاب الفؤاد ففتته.

وضع أمراء المماليك خطة مختلفة، تقهقرنا داخل البلد وادعينا الهزيمة وانتظرنا دخول الجنود إلى أزقة المنصورة، هنا انقضضنا عليهم. رأيت العامة تحارب بقوة الملائكة وجرأة المماليك، ارتبك عقلي، تارة أتذكر قبح الهزيمة، وتارة أشهد على جمال الشجاعة. كنت أفكر فيها ولكنني كنت أفكر في مصر وفي مرمية وفي شيخي وفي نفسي. تغير الحال وأصبح جيشنا هو المنتصر قُتل أمراء الفرنجة الواحد تلو الآخر كنت أحارب وعيني عليه هو، جندي من الفرنجة ليس كأي جندي، يتلألأ الهدف بين لحظه، وتبرق يده التي تمسك السيف. هو الملك.. ملك الفرنجة. يضرب بإخلاص من اقتنع بهدفه وتوارى داخل بغضه. لم أستطع كرهه ولكنني أشفقت عليه. اجتمع الجنود المماليك حوله وكادوا يقضون عليه، وهو يستمر في حربه ولا يبالي، يحارب للرب وباسمه، أو هكذا تبدى لي. صحت بهم: أوقفوا القتال.. هذا الملك.

هرولت ناحيته لحظة اقتراب السيف من قلبه وصحت للجنود بالتوقف. رفع الجنود السيوف التي كانت ستستقر في صدره، فقلت بلغته: الأسر أفضل للملوك.

قال في تحدٍّ: لو كنت تتكلم لغتي لم تتبع هذا الكفر؟ هؤلاء كفار.

قلت: عندما نجتمع عنده سندرك أننا قاتلنا هباء. فغايات الطرق كلها تؤدي إليه. ولكنها لا بد أن تكون ممتلئة بالرحمة. اطلب الأمان حتى لا يقتلوك.

نظر إلي برهة ثم قال: أنت قس مسلم ولكنك على ضلال.

لم أجب فرفع سيفه في وجهي فرفعت يدي قائلًا: هذا ملك الفرنج وقد استسلم.

نظرت جانبي ورأيت أحد الطواشي يدعى جمال الدين محسن الصالحي

وقد قيد الملك بقيد من حديد ثم ذهب به إلى دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان. أوكل إلى الطواشي صبيح أن يتحفظ عليه. وهرولوا يخبرون الأمير بيبرس البندقداري. ولكنهم أيضًا هتفوا باسمي وهللوا بأنني أمسكت بالملك وأمرته. تنمو الحكاية من أطراف الحكاية وتنتفخ النفوس وتصاب بالتخم. صاح الناس باسمي.. أبو العباس...أحمد. من جاء من بلاد بعيدة.

اخترقتني الأعين وتسلل الزهو إلى نفسي فوغز الضلال أطراف عقلي. يهتف من حولي، الجندي أحمد أبو العباس، من جنود الحلقة، أسر ملك الفرنجة، يتكلم لغتهم، يفهمهم، هو شيخ وجندي، له كرامات، انظر كيف طوع الملك نفسه، يا أحمد..

خرجت الأنفاس من صدري ثقيلة كالمغشي عليه. يهتف لك الناس يا أحمد فماذا أنت بفاعل؟ يظنون أن لك كرامات، يا من تدعي الزهد في الدنيا. هل تشعر بالزهو يا أبا العباس؟ هل تشتعل نفسك بنيران البطولة يا صوفي؟ دارت أقدامي حول الأرض في بطء فانتفضت نفسي تقاوم القهر والهزيمة. رددت لنفسي، كرامة الولي أن يتخلص من أوصاف نفسه يا شيخ.. تذكر. كأنني أفقد الرؤية أمام الجموع. أمسك بي أحدهم وحملني على كتفيه وجرى بي ووراءه البقية إلى خيمة الأمير بيبرس. قبض الشيخ على ملك الفرنجة..

سار الطواشي جمال الدين محسن الصالحي وكان الملك مقيدًا بين يديه، والهتاف لا يتوقف. رجل يمسك بيدي ليقبلها، وآخر يمسح على رجلي ليأخذ البركة، وقلبي منقبض كأنه سيتوقف، وعيني زائغة، والضعف نذير المحن. أفتنة أم ابتلاء تلك؟ رددت اسمه وتكلمت معه.

وضعوني أمام الأمير بيبرس وهو ينظر إلي في تهكم ثم قال: أحمد مرة

أخرى! كيف حالك يا شيخ؟ أنت دومًا في خاطري.

قال رجل في حماس: هذا ملك الفرنج يا مولاي الأمير بيبرس. أمسك به أحمد أسيرًا، وها هو بين يدي الطواشي..

نظر إليّ بيبرس فقلت في هدوء: مولاي.. الملك بين يديك ولو أذنت لي أعود إلى الإسكندرية وأنا أعرف أنه لن يُقتل.

- تدافع عن ملك الفرنج؟

- العهد دين.

- هل عاهدته؟

- الأمير لا يُقتل يا مولاي.

- المماليك لا تغدر في الحرب يا شيخ. الملك لن يُقتل، ولكنك بلوت بلاء حسنًا..

نظرت حولي ثم قلت: إذا سمح لي مولاي بكلمة.

صرف بيبرس الحضور ثم قال: ماذا تريد أن تقول يا أحمد؟ هل ستطلب المال أم الولاية؟

ساد الصمت برهة ثم قلت: لو سمح لي مولاي أن أعود ليلًا إلى الاسكندرية مع شيخي. أحيانًا يبحث الناس عن بطل وقت الخطر عن فارس قادر ورع وحليم، يزداد الحماس حينها ويفقد الفارس الهدف والمراد. فتنة حب الناس أبشع من فتنة ازدرائهم.

- ماذا تقول؟ أي كلام هذا؟

- أحمد لم يفعل شيئًا، حارب مثل كل أهل مصر من جاء بالملك إلى هنا هو

الطواشي جمال الدين محسن الصالحي.

- ولكنك أنت..

قاطعته في رفق: أنا رأيته يحارب كملك يظن أنه قديس لا أكثر. اسمح لي أن أرحل.

- تريد أن تتجنب فتنة الغرور أم تخاف من غيرة السلطان توران شاه؟

- الله هو عالم بالقلوب. ليت حربي كانت بالسيف والرمح. هناك حروب أوعر وأقسى تنتظرني.

- تحارب من؟

- أحارب نفسي.

أصيبت نفسي فلا مفر لمست كلمات الإطراء أطرافي كأنها أيدي الساحرات الفاتنات، ولم أعرف الدواء بعد. لجأت إليه لجوء الفقير ولكنني لم أكن متأكدًا أنني لا أفتخر بالإطراء ولا أرضى بكل هذا الإعجاب.

***

في الطريق إلى الإسكندرية كنت هائمًا حائرًا؛ مرة لأن الإطراء أصاب النفس، وأخرى لأن الحب أصاب القلب. ظننت وأنا في الخامسة والعشرين بأنني وصلت إلى المعرفة والحب. تقبلت قضاءه بصبر واختليت به في الظلام وقرأت كتابه ودرسته، ثم ماذا؟ وأنا في الثلاثين تبدت لي طرق لم أدرك وجودها، قالها حجة الإسلام: من لم يفهم إلا حب المحسوسات، كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى وما له صورة ولا شكل. أدركت أن أمامي ميزًا وجهادًا لأعرف. أدركت جهلي فبدأت طريق المعرفة أو كدت.

نعم انتهت الحرب وحان موعد العودة إليها. وجاءت اللحظة التي انتظرتها

منذ البدء؛ لحظة التقاء الروحين بلا فراق. ذهبت إلى شارعها مهرولًا أبحث عنها، فلم أجد أثرًا لأي بيت. ناح الفؤاد وكذّب ما رأى. استغثت بكل الجيران أخبرهم عن صفاتها وشكلها، لطيفة، تدعى لطيفة، تحيا في هذا الشارع. قالوا إن كل من في الشارع هرب أو قُتل.. لا أحد يعرف. ولم يسمعوا بهذا الاسم ولا يعرفون من يسكن هنا. تغيرت الأحوال وقت الحرب وتقلبت الأماكن كتقلب يونس في بطن الحوت، ولم يعد للطيفة أثر.. ولم أنو العودة دونها.

* * * * *

السفر الخامس

التحم القلق بداخلي بالإرادة. سأجدها حتى لو عبرت كل شواطئ البحار وعاصرت هبوب الرياح على كل جبال الأرض واخترقت القفار دون قمر ولا دليل. عيناي تبحثان في العالمين، أدعو الله جهرًا وسرًا ثم أخرج باحثًا بين ثنايا الدنيا. عدت إلى دمياط، إلى المنصورة، أبحث عن دليل واحد، أي شيء. أوبخ نفسي على غفلتها وعقلي على غشاوته. لا سألتها من تكون، ولا تأكدت من شيء سوى شارعها. ظننت أنني أعرفه؛ كنت أعرفه. لم أخبر شيخي ولكنه عرف ولم يواجهني. رأى ببصيرته الندم في مقلتي والحزن والسقم يدثران جسدي. لم أكن أستطيع الشرح له بعد. خلوت إلى ربي أحدثه، طلبت منه أن أجدها في دمياط كل مرة أرحل إلى هناك أبحث واليقين يصاحبني وأعود والغضب يطفو على السطح يا ربي لم يعد لي سوى أخ وحيدا أنت قذفت الحب إلى قلبي فساعدني أن أتغلب عليه أو أطفئ نيران الغضى التي تضطرم في الفؤاد .

إليك أنت أشكو همي، رافقتني هي يومًا أو أقل وكنت حينها أتوق إلى العيش وأنطلق كالحمام بلا خوف ولا حذر.

مر شهر وراء شهر، استمررت في التعلم والقراءة والتجارة ومرافقة الشيخ، والقلب لا يهدأ ولا يفيق. لم أتوقف عن البحث ولا تركني الأمل.

ناداني الشيخ أبو الحسن الشاذلي اليوم.

جلست بجانبه في بطء، الهم يسري بين أنفاسي ويبرق من بين أضلعي، وكنت أعرف أنه يعرف. ربت على يدي وقال بصوته العميق وهو يرفع يديه إلى السماء: يا عزيز يا رحيم، يا حكيم يا غني يا كريم، يا واسع يا عليم، ياذا الفضل العظيم، اجعلني عندك دائمًا، وبك قائمًا، ومن غيرك سالمًا، وفى حبك هائمًا، وبعظمتك عالمًا، وأسقط البين بيني وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إليّ منك، ولا تحجبني بك عنك، إنك على كل شيء قدير.

مرت قشعريرة في كل جسدي وشعرت بضآلة حبي أمام حبه وبضآلة همي أمام يقينه. ترى هل أصل لهذا المقام يومًا؟

أكمل: اللهم هب لي من النور ما يجعلني غنيًا بك عن تجديد النظر لشيء من المعلومات. إلهي افتح علي وأظهر لي الحق حقًا والباطل باطلًا. اللهم ارزقني من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، واضربني بها ضربًا تمحق بها من قلبي كل قوة؛ وأغنني بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والخلق، وأخرجني به عن ذل الفقر والتدبير والاختيار وعن الغفلة والشهوة ومشيئة النفس والقهر والاضطرار، إنك على كل شيء قدير.

رددت الدعاء وراءه ثم ساد الصمت دقائق. ولطالما ساد الصمت المستنير بيننا. كان يفهمني وأفهمه. قلت بعد حين: أفعلت ما يغضبك يا سيدي؟

قال في هدوء: لا أغضب منك أبدًا يا أحمد، إنما خلقت لتكون أنت أنا وأنا أنت.

شهقت في وجل وقلت: يا سيدي أين أنا من علمك ويقينك؟!

- مفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما شاء، هكذا قال الإمام الغزالي.

أطال نظره إليّ ثم قال: تكلم معي عن الحب.

أطرقت برهة ولم أنطق. فقال: كل مُحب مُقيد بما يحب. هكذا قال الإمام وهكذا تعلمت. لا تجعل لك محبوبًا ولا معبودًا سواه.

قلت في أسى: يا سيدي.. أمرنا بالحب لعباده.

- تحب كل مخلوقاته على علم لا على جهل. تحبها لأنها مخلوقاته، ويبقى هو معبودك، ويبقى هو صاحب القلب والمتحكم به.

لم أنطق. قطبت حاجبي فقال: أعرف ما يجول بخاطرك، كل خطوة تخطوها تقربك من الحقيقة، ويوم تستوي لديك الأقدار وتطمئن النفس تدرك بعضًا من الحقيقة وليس كلها.

صمت الشاذلي ساعة أو أكثر ثم قال: ماذا تنوي يا أحمد بعد أن أنتقل إلى ربي

قبل أن أنطق قال وكأنه يقرؤني: تريد أن تعتزل الناس وتتعبد إلى ربك، أعرف.

قلت في رفق: يا سيدي، لم أخلق للخطابة في المساجد وأخاف من الذنب أكثر من خوفي من الفقر والفراق.

- أبو العباس أحمد المُرسي، قضاء الله نافذ، جئت إليها بتكليف من الله وليس لك اختيار في تكليف الملك. بعد بضع سنين تقعد مكاني وتتكلم

بلساني وتزيد.

لم أنطق، وكنت أكره الحديث أمام الناس، وأكره الظهور والرياسة، وأخشى الكبر والتمسك بموطن الرحلة.

قال في حسم: تتكلم عن نفسك وكأنك تملكها، ولكنها ملكه هو يفعل بها ما يشاء. كأنك يا أحمد تخاف على نفسك ولا تأبه بنفوس الآخرين. لكل زمن رجل صالح يعبد الله على عيان ومشاهدة، يراه ببصيرته ويعرفه بفؤاده وليس لهذا الرجل اختيار، واجبه أن ينشر الضوء، وأن يذكّر الآخرين بالجوهر، ويخرج اللؤلؤ المكنون، ويهدي إلى ربه من يريد الهداية ويطلبها منه. أنت هذا الرجل.

- أين أنا من المريدين الآخرين؟! حتى نفسي لا أسيطر عليها. درس معك عبد الباري أكثر مني وهو أعلم مني.

- أنت غير كل الآخرين. الصفاء يملأ قلبك، جلوته بنور المجاهدة والرياضة، ولكنك لم تصل بعد، أعرف.. تحتاج إلى المحنة، وبعد المحنة يأتي التمكين.

قلت في أسى: كل أيامي محن يا سيدي.

- بل كلها نعم يا أحمد، ولكن المحنة كسواد القلم تطغى على الصفحة البيضاء. أريد أن أخبرك بشيء.

- أستمع إليك يا سيدي.

- بعد أن أستقر مع ربي لن يصبح الصديق صديقًا ولا العدو عدوًا. سينقلب عليك البعض طمعًا في الرياسة، وسيخونك أعز الأصدقاء. حب النساء فتنة يستطيع الرجل السيطرة عليها أحيانًا، وحب المال أيضًا، ولكن حب السلطة والقوة والرياسة يذهب بعقول الرجال، هو أكبر الابتلاءات ويصاحبه

الحسد والبغض. لا تبال ولا تكره، ادعُ ربك أن يقويك. هو ربك القائم عليك. هو القيوم وهو ربك الذي رباك على رحمته ولطفه. أسلمك الرسالة ولتفعل بها ما تشاء. أنت مكلف يا بني، لا تجعل ضيق العيش وغدر البشر يوقفانك، ولا تجعل رغد العيش والعز بين الناس يضلانك. ابق كما أنت أحمد الأعلم بأحوال السماء عن أحوال الأرض.

أمسك عبد البارئ بيدي قائلًا: الشيخ يأمرك بالكلام يا أخي.

ابتسمت له. صديق رأيت منه كل خير منذ اصطحبت شيخي وهو معنا يستمع في حماس ويحفظ ويساعد ويعمل في التجارة مثلي تمامًا، ولكنه يتاجر في الأقمشة وأتاجر أنا في القمح.

فتحت فمي أبحث عن الكلمات.. الكلمة فتح وهبة من الله، رزق كما الرحمة في القلب ونطفة الشوق في الصدر. تكلمت ولا أدري ماذا قلت بالضبط. تلعثم لساني أمام الشاذلي وخفق قلبي وارتعد. عند الانتهاء اقترب مني عبد البارئ وقال: هذه أول مرة. في المرة القادمة تكون أكثر شجاعة.

قلت مسرعًا: أتمنى ألا يكون هناك مرة قادمة.

ناداني الشاذلي فذهبت إليه، أمسكت بيده وأسندته ليقوم فقال وهو ينظر إلى الأفق ببصيرة نافذة: أتخاف من الكلام في وجودي يا أحمد؟ ترتجف وشيخك في المكان!ولماذا ستفعل عندما تقف بين يدي الله يا بني؟

بلعت ريقي ثم قلت: فليعطني الشجاعة لهذا اليوم.

- تخاف الوقوف بين يديه؟

- علمتني أن الرحمة تنتصر على الغضب، والحب ينتصر على الخوف.

- ها أنت تتكلم بالأنفاس، ولكنك لم تكن تريد الحديث اليوم.

لم أجب. فأكمل الشيخ: لقد جاء زمن زيادة النيل، أريدك أن تقيم بمسجد المقص بالدكة خارج باب البحر في القاهرة. هناك حجرتان فوق المسجد تتخذهما بيتًا لمدة ثلاثة أشهر وتخطب بين الناس وتقيم الدرس بدلًا مني.

- يا سيدي..

- هذا تكليف يا أحمد.

- ولداك أحق مني بهذا.

- ولداي يعرفان كلام الله ويدركان معنى التكليف. لهما رزقهما وعملهما في هذه الدنيا ولك عملك. تكلم بصدق كما تفعل دومًا.

رحلت إلى القاهرة مضطرًا متذمرًا. أردت البعد خشية الفتنة، فوجدت نفسي محاطًا بالأنام.

خطبت بين الناس في حماس لم أتوقعه وزالت الرهبة. ولكن الغم والشوق إليها لا يتركاني. سأبحث عنها في القاهرة. هذه مدينة كبيرة، ربما غادرت مع أهلها خوفًا، وربما..لم أستطع نطق الكلمة ولكنها نفذت إلى عقلي.. ربما ماتت، وربما أخذها الفرنجة أسيرة. ولكنهم أعادوا الأسرى؛ هل أعادوا كل الأسرى؟ الشك أعظم ألمًا من الخوف وأكثر وطأة على الجسد من المرض.

تردد اسمي في القاهرة.. قالوا: تلميذ الشاذلي الشاب له كرامات، يعرف السر ويتقنه. يقولون: أتى من بلاد بعيدة..نحتاج إليه في هذا الغم وهذه الشدة.

وجدت الناس يلتفون حولي لأول مرة..أم تدفع بابنها الرضيع إلى صدري قائلة: سيدي، بارك هذا الطفل الوليد بنفحة من ثناياك.

فقلت مسرعًا وأنا أعيده إليها في رفق: تصدقي يا أختاه الصدقة بركة.

- ولكن بركتك تعم كل الدنيا.

- أنا عبد فقير تطلبين من ميت ومعك الحي الذي لا يموت!

ثم جرى نحوي عجوز يقول في وهن: أعطني دعاء يشفي المرض.

- لكل داء دواء، ابحث عن دواء عند الطبيب، ولو لم تجد فتوكل على الله وسلّم له في مقدوره، ولكن اسعَ أولًا ثم سلم.

- سيدي، حار الأطباء، لا علاج لي، أعطني أدعية بخطك أو رُقية.. الشيخ الخضر يفعل هذا..

استغفرت ربي ثم قلت: عليك بفحص الداء ثم طلب الدواء، ولو لم تجد فلتصبر ولتشكر الله أن داءك كان في البدن لا في القلب. تطلب من ميت ومعك الحي الذي لا يموت!

جاءني شاب قائلًا في يأس: ازداد الغم بي ولم أعد أعرف الطريق.

- طريقه سهل، وصبره طويل، وحلمه ليس كمثله شيء. تطلب من ميت ومعك الحي الذي لا يموت!

- أي شيخ أنت؟ لا كرامات لديك!

- كراماته تنتظرك أنت.. لو لم تحجب عنه ولو برهة ورأيته في كل شيء. الكرامة هي الاستقامة. استقم كما أمرت تجد الرضا. جاهد نفسك ووهمك وطلبك الرياسة والفخر المجاهدة صعبة وطلب التمائم والأدعية سهل. وبلا مجاهدة لا وصول إلى الباب. قالها الشيخ الشاذلي: يئست من نفع نفسي لنفسي، فكيف لا أيئس من نفع غيري لنفسي؟!

انتفض الناس من حولي في حيرة. أبو العباس غير الشيخ الخضر لا يطلب الهدايا ولا ينتظرها ولا يملك مفاتيح سحرية وليس له معجزات.

انتاب أهل القاهرة الحيرة.. أي شيخ هذا؟ ولكن كلماته تهدئ الوسواس.

في الصباح ألح علي عبد البارئ في طلب ابنة شيخي ولكنني لم أجب. خرجت مرة أخرى بحثًا عنها؛ لطيفة. مررت في طريقي على بلبيس أخلو في حدائقها وأدعو الله وأسبح باسمه، وهناك قابلت صديق الحرب والجهاد؛ البوصيري. التقت أرواحنا في حب مستحيل؛ فأميرته بعيدة عن ناظره وقدرته، ولطيفة لا أثر لها كأنها أضغاث أحلام. لم أكن أتوقع أن أرى محمدًا البوصيري يعمل في الحسبة في بلبيس، تأملته وهو يحار بين الأرقام ويتوه في الحساب كما يتوه الطفل في مسالك بغداد. بعد أن انتهى رحب بي ودعاني إلى بيته، تزوج وامرأته تحمل أول طفل لهما. قال لي في أسًى: لم أزل أشكو من شظف العيش وقلة الرزق ولكنها أيام أفضل من حرب المنصورة، هذا أكيد.

رددت: كل أيام الله جميلة.

- لم تزل صوفيًا كما رأيتك أول مرة، ولم أزل أنا محمد البوصيري، أعجب بك وبالصوفية ولا أجد طريقي إليها. العلم غير العمل.

- صدقني يا أخي، طريقي أنا أيضًا يحتاج إلى حروب كحرب المنصورة لكنها أشد وأخطر فلا مماليك تنظمها، ولا خطة تفجر أسوار النفوس.

- تتكلم كما شيخك. وما أجمله وأجملك! هل وجدت المحاربة التي ملكتك؟

ساد الصمت، فقال في رفق: يا أحمد الرزق مقسوم، أنت تعرف هذا، تبحث عنها منذ أكثر من عام. ربما..

قاطعته مسرعًا: لا تقل هذا.

- أخشى أن تسير وراء أوهام نفسك.

- بل أسير وراء صدق الفؤاد.

- تزوج وعش حياتك.

- لا أستطيع أن أكذب أو أظلم.

- من يدري؟ ربما تحب زوجتك. لم لا تعتبرها ماتت؟ فقد اختفت واختفى مسكنها، ولو ماتت فمن حقك أن تعيش أنت وتقوم بواجباتك.

- أعيش وأعمل وأتعلم، ولكني لا أكذب على نفسي، لا أستطيع.

- كأنك لا تريد الزواج من ابنة شيخك. هذا شرف كبير.

- شرف لا أستحقه.

***

عدت إلى القاهرة وحضرت بين يدي شيخي.

طأطأت رأسي فقال الشيخ مباغتًا: لا تريد الزواج من ابنتي زينب، أليس كذلك؟

قلت بلا تفكير: حاشا لله يا سيدي، أنا لا أجرؤ على طلبها، ولا أرتفع لهذا المقام، ولا أعتبر نفسي أهلًا لابنة شيخي وأستاذي وأبي.

- الصدق لا يتركك يا أحمد منذ رأيتك أول مرة.

فهمت ما يعني فقلت: القلب مهموم، هم من الشيطان، ولكني أعرف مقامي ومقام ابنتك يا سيدي.

- عن أي مقام تتحدث؟ عن عبد لا يملك شيئًا، فقير ذليل أمام ربه من يخدع مَن يا بني؟! كلنا فقراء أمام غناه، وكلنا. عاجزون أمام قدرته .أحمد.

كنت تبحث. بلعت ريقي وقلت وأنا أعرف أنه يقرأ أفكاري: كنت

- تملكت قلبك المحاربة.

قلت بصدق: مفاتيح القلوب بيد الله، هكذا علمتني.

- ها أنت تردد كلمات الإمام الغزالي وتفهمها. الإنسان يتملكه الوهم فيضل وسط شوقه ولوعته؛ لأنه مقيد بوقته وزمانه.

- علمتنا أن من لم يحب لا يصل إلى الله.

- صدقت يا بني في اليقين طمأنينة، ولكن بعض العذاب واجب. يطهر النفس ويزكيها. لِمَ لم تخبرني من قبل؟ عامًا كاملًا تحملت وحدك!

لم أجب.

- لكنني كنت أعرف. رأيت نيران الحيرة تضطرم بين أضلعك وتضيء وجهك.

نظرت إلى عينيه الهائمتين فابتسم وقال: قلت لك من قبل، فقدت البصر وأصبحت كلي بصيرة. هذا أيضًا من خير الله علي، كل أمر بني آدم خير.

قلت في أسى: هل أنت غاضب مني يا سيدي؟

- بل أنا فرح بك لأنك صادق، لكنك تحتاج إلى الوقت. لا حجاب إلا الوقت. اسعَ واعمل ثم اترك نفسك بين يديه.

- أحاول

***

وتكلمت معه..

إلهي، سترت عني مكاني منك حتى عصيتك وأنا في قبضتك، واجترحت ما اجترحت فكيف لي بالاعتذار إليك؟! إلهي، جذبك لي أطمعني فيك، وحجابي عنك آيسني من غيرك، فاقطع حجابي حتى أصل إليك، واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لغيرك.

يا ربي، يا الله، أشهدني كرمك على بساط رحمتك، وأرضني بقضائك، وصبرني على طاعتك، وأوزعني شكر نعمتك، وغطني برداء عافيتك حتى لا أشرك بك، إنك على كل شيء قدير.

انتهيت من صلاتي وكلماته لا تترك أذني: قد يرحل المرء لمطلوبه والسبب المطلوب أمام عينيه.

في الصباح ذهبت إليه أسأله عن مقصده بحماس فقال: شيخك من علمك كيفية السؤال لا من أعطاك الإجابة. شيخك يشير إليك بالمسلك ولكنك تسير فيه وحدك، في علاقتك به تسير وحدك دومًا. لا تقيد نفسك يا صوفي بإنسان أو دنيا أو شيء، كلها لا وجود لها، شيخك يوصلك للباب وأنت تطرقه وتدخل وحدك.

تركني أكثر حيرة وأكثر فضولًا، خلوت بنفسي أيامًا في فنارة الإسكندرية. أحيانًا تخترقني الدنيا، وتارة أغيب عنها ويتخللني الوجد إليه وحده.

الشوق على قسمين؛ شوق على غيبة لا يسكن إلا بلقاء الحبيب، وهو شوق النفوس، وهذا أعرفه وأعيشه، لكنني اليوم لوهلة قصيرة تذوقت شوقًا آخر شوق الأرواح على الحضور والمعاينة. اشتقت إلى حضرته، اشتقت أن أهيم حوله مطمئنًا به وبرحمته. كدت أصل ولم أصل. كدت أعرف ولم أعرف. كدت أجد سرائر الأزل لكنني في حيرة من أمري. خالَلت سرِّي محبته مثل إبراهيم، ولكنني لم أملك رضا إبراهيم بعد ولا تسليمه. كنت أعرف وكنت أطلب مقامًا غير ما أنا فيه ولا أصل؛ تارة يصيبني اليأس،

وتارة أعاود المحاولة. أبحث عن مرائر الأزل وسط فناء الدنيا فأجد نفسي متعلقًا بالعلائق لم أزل، ولكنك هنا يا الله داخل الجسد والروح.

***

عدت إلى شيخي وقد عزمت أمري، أريد أن أتعلم أكثر وأقرأ أكثر أما زواجي من ابنته زينب.. فقد عزمت أمري أيضًا.

أدخلني عليه ابنه محمد، قال إن الشيخ ينتظرني ويعرف بمجيئي.

جلسنا معًا صامتين ثم قال: جئت تخبرني أنك تريد العلم.

- المعرفة يا سيدي كما علمتني تؤدي إلى الجنة. ليس أسوأ من مقام الجهل للمؤمن. أن أعرف الله على علم ثم أقوم معه بعد ذلك هو هدفي.

ربت على يدي ثم قال: وجئت تخبرني عن قرارك من الزواج من ابنتي.

قلت في تردد: تعرف ما في نفسي دون كلام.

ابتسم ثم قال: أحمد أعلم بالسماء عن الأرض، لا يكذب على نفسه ولا يقوده الوهم. قررت أن تتفرغ للعلم والعمل ولا تريد الزواج من ابنتي.

قلت في ارتباك وقد قرأ خاطري: سيدي لست أهلًا لها، تستحق من يعطيها وقته وقلبه ويخلص لها بروحه وليس بجسده فقط.

ساد الصمت برهة ثم قال: تعرف أن الإنسان مقيد بجسده.

- أعرف.

- وأن الإنسان مقيد بعقله أيضًا.

لم أفهم قصده، فأكمل: يقول الله في كتابه إنه يرزق عباده من حيث لا يحتسبون؛ لأن خيالهم لا يدرك ما الخير لهم وما الشر. العقل قيد لتحرر منه

فقط عندما نتقرب من الله في لحظات القرب، والحب حرية، ولكنها لحظات شئنا أم أبينا، فهي دنيا كالسجن. نتحايل عليها ونفدي أنفسنا من القيد ودومًا نطلب عفوه.

بقيت ساكنًا، لم أستطع أن أخبره أنني أدرك أن ابنته رزق ولكنني لست أهلًا لهذا الرزق ولا أستحقه، لم أر زينب طوال عمري، خجلت من زيارة شيخي وهو مع زوجته وابنته حتى وأنا صديق لوالديه.

سمعت دقًا على باب الحجرة فقال لي الشيخ: قم يا أحمد وافتح للطارق، لا تؤاخذني يا بني..

قمت مسرعًا وفتحت الباب والتفت إليه قائلًا: أمرك سيدي، فتحت الباب..

هل للنظرات أن تتواصل مع الأطراف والأنف والأذن وأن تصل إلى أعماق الوجدان؟ لم أحتج إلى النظر أمامي ولكن الشهقة التي خرجت منها جعلتني أنظر أمامي وأتسمر في مكاني لا أستطيع النطق.

وضعت يدها على فمها وارتجفت كفها وكأنها تود أن تمدها إلي لتلتقط بها فؤادي. والتقت أعيننا. هي لطيفة.. في بيت شيخي. ليست في دمياط ولا أسيرة عند الفرنجة.. ماذا تفعل هنا؟ هذا هو السؤال.

قال الشيخ في بطء: زينب تعالي يا ابنتي..

هويت إلى الأرض جالسًا بجانب الشيخ حتى لا ترى ارتجافة أطرافي. واقتربت هي من والدها وجلست بجانبه، مد يده وأمسك بيدها ثم قال: ماذا بك؟ ترتجفين؟ هل تشعرين بالصقيع؟

قالت في صوت مبحوح: لا يا أبي.

قال وهو يشير إلي: هذا أحمد أبو العباس من مرسية. هو كالابن لي، كنت

قد عرضت عليك الزواج منه، هل تتذكرين؟ منذ عام وكل يوم كنت أطلب منك أن تفكري ورفضت. الغريب يا ابنتي أنه هو أيضًا لم يوافق. يبدو أن الغبار قد أصاب بصيرتي، كأنني شعرت به سيوافق، وبأنك تريدينه كما أريده لك، ولكنني ربما أخطأت للأسف. فأحمد يا زينب..يا لطيفة..

قال وهو ينظر إلي كأنه يراني: زينب لها اسم آخر تناديها به والدتها، لطيفة. تفضل هي هذا الاسم على زينب، هل تصدق؟ أردت فقط أن أقول إنني أتفهم أن الوفاق أهم شروط الزواج؛ لذا فقد.. قاطعته: سيدي، اسمح لي.. أتمنى.. بل هذا شرف لا أستحقه لو قبلتني زوجًا لابنتك.. لو..

قال وهو يضغط على يد ابنته: وكيف أقبلك وأنا أعرف أنك تحب محاربة في دمياط؟ قلت في لهفة وعيناي لا تتركان عينيها: لا هي هنا.. كانت أمامي وقادني الوهم، فلم أبحث.. اعذرني، تعلمت الدرس. اعذرني يا سيدي، أقسم إني لا أريد غيرها في هذا العالم وإن..

- هذا لا يستحق القسم يا أحمد.. هي أيضًا لم تكن تريدك..

قالت في صوت مبحوح وهي تقاوم خجلها: أبي.. أوافق. هذا أحد تلاميذك و..

- تريدينه لأنه تلميذ لي؟ ولكنك لا..

قالت في رجاء: بل أوافق.. أوافق ليس فقط لأنه.. تلميذ لك..

ضربت بكفي على رأسي كأنني أفيق من غبش أو سُكْر كيف لم أفهم ولم أبحث؟ كيف لم...؟

قلت مسرعًا: لو تسمح لي بالزواج منها يا سيدي..

ابتسم قائلًا: سأفكر في الأمر. أعطني بعض الوقت أستشير إخوانها

ووالدتها.

رأيتها تنطق اسمي.. رأيت شفتيها تتحركان بلا كلمة وصاحت عيناي بكل كلمات الحب الممكنة. أغمضت عينيها وخرجت دمعة فمسحتها بيدها ثم أعادت يدها ليد والدها فقال: أتبكين يا زينب؟ لو كنت ترفضين الفرمي..

قالت: لا يا أبي.. أوافق.

- ولكنه أبكاكِ حتى قبل أن يتزوجك، وأنت قرة عيني.

قلت وعيناي لا تتركان عينيها: هي في عيني يا سيدي. داخل مقلتي أحفظها إلى أن أموت. ولا أتكلم معك إلا الصدق.

قال وهو يربت على يد ابنته: يفعل الله الخير يفعل الله الخير.

فقلت: لو.. أمكن يا سيدي.. أن أتزوجها سريعًا.. فقد..

- تصبر..

- أصبر .. ولكن أصبر كم يومًا..

- قل كم شهرًا، كم عامًا..

قلت في رجاء: أصبر.. ولكن أتمنى منك الرحمة.

- اطلب منه هو لا مني أنا.

كنت أعرف أن الحديث بيننا انتهى. هرولت إلى بيتي وسجدت لله وقلت في صدق: يا رب.. ذقت الحب على يديك..وعرفت حبي لك كما لم أعرفه من قبل.. اجعلها لي.. ارزقني إياها.

***

زينب أو لطيفة ابنة شيخي.. تربت مع ولدين رافقاها كظلها طوال العمر. لا لعبت بالعرائس كما البنات ولا تعلمت الطبخ. تصارعهما في الحقول وتجري معهما في البساتين. ابنة غير كل البنات. لاحظت أمها اختلافها فأخبرت والدها بقلقها عليها. ولكنه قال: إن لكل نفس رسمًا وشكلًا، وهذه نفسها وهذا رسمها، نتقبلها ونشجعها، ففيها ما لا يوجد بغيرها. يُعرف عنها الجسارة والقوة، تركها تتعلم السيف والرمح مع أخويها. تركها تكون ما تشاء، وعندما سافر إلى المنصورة صحبته في حماس كما صحبه ولداه، وأخبرته أنها تريد أن تساعد المرضى وتداويهم. رفضت أمها وثارت.. قالت له: هذه ابنتنا الوحيدة، لو وقعت أسيرة في يد الفرنجة أو ماتت، فماذا يحدث؟ ولكن الأب قال إنها ابنته الوحيدة، ولكنها ترى نفسها أهلًا لهذه الحرب، فلا بد أن يصطحبها. لم تخبره أنها تنوي المحاربة مع أخويها، ولا أنها أخذت معها السيف والرمح وهي راحلة معهما من الإسكندرية. لا تسألني لِمَ وافق الشيخ ولِمَ تركها تغامر لم تخبره بغرضها الحقيقي من السفر ولكن لا بد أنه أدرك. هل أدرك؟ هل تركها تحارب؟

ذهبت إليه في حماس أطلب منه أن يتمم زواجنا بسرعة، فطلب مني الصبر. حاولت معه مرة ومرتين ولكنه ألحّ علي بالصبر. ثم تجرأت وطلبت رؤيتها فصمت ثم أجاب: يفعل الله الخير دومًا.

قلت في ضيق: يا سيدي..

فردد في حسم: يفعل الله الخير. تعلم الصبر وراوض النفس واجمحها.

***

خرجت مع عبد الباري نسير في الأسواق وعقلي شارد أجاهد نفسي قدر المستطاع، أعرف شيخي وأعرف تأديبه لنا، يقول دومًا: إن علينا تهذيب النفس والسيطرة عليها، نتحكم فيها ولا تتحكم فينا. ولكنه الحب. هو

يعرف، بل الله يعرف.

رأيت يومها عيني عبد البارئ تنظران إلى خنجر بيد مصنوعة من الذهب في خان الذهب، كادت نفسه تذوب من فرط شوقه إلى الخنجر. عرفت خاطره وشعرت به. قلت بلا تفكير: اشتره

فقال في حزن: لا أستطيع.

قلت مسرعًا: أساعدك على شرائه.

نظر إلي مليًا ثم قال: ولكننا زاهدون يا أخي.

- ألم تسمع شيخنا يشرح معنى الزهد؟ هو ليس في لبس الصوف ولكنه في معرفة الله؛ أن تجعل الدنيا في يدك وليس في قلبك. لو ميطر عليك الخنجر فمن الأفضل أن تقتنيه ولا يغير خاطرك أو يقيد أيامك. متفكر فيه وتشتهيه، لو معك المال فاشتره..

أخرجت من جيبي بعض المال وأعطيته له فنظر إلي مليًا وقال: لن أشتريه يا أحمد. أستطيع أن أسيطر على نفسي مثلك تمامًا.

ابتسمت ووضعت يدي على كتفه قائلًا: أنت أفضل مني، هذا أكيد.

لم نتكلم أنا وهو على الخنجر أخذه. هل احتفظ به، أم تصدق؟ لا أعرف. ولكنه كان قريبًا إلى قلبي بعفويته وحرصه على الدرس. لم يكن لدي الكثير من المال، أحيانًا تزدهر التجارة وأحيانًا لا. تزوج أخي بنتًا من الإسكندرية واستقر فيها معي.. ترى هل يمكن للشيخ أن يخاف على ابنته من الفقر معي؟ ملذا سأعطيها؟ لا مال يغنيني ولا زهو ولا قوة. ولكنه الشاذلي، يعرف عن الدنيا ما لا نعرفه. بالطبع لا، هذه وسوسة شيطان تحل بي لأنني لا أستطيع الصبر.

كل يوم أحضر درمه وأرافقه، ثم ألح عليه في خجل فلا يجيب. مر أسبوع ثم شهر، يومًا أقرر ألا أتكلم معه فريما يضايقه كلامي وأنتظر منه أن يبشرني فلا يفعل، ومرة ألح عليه فلا يفعل. كنت أريد فقط رؤيتها. فكرت أن أراقبها، أنتظرها لأراها ولكن نفسي أبت هذا دون إذن شيخي. قضيت كل الليالي بين ضيق من الصبر ودعاء إلى الله. ولكنها هنا بجانبي، وهذا شيخي وأبي. لو وثقت من هذا تطمئن النفس بعض الشيء.

***

بعد مرور ثلاثة أشهر بدأ الأرق يبدو على ملامحي وشحب لوني وذبل وجهي. نظر إلي كأنه يراني ثم قال: زواجكما غدًا بإذن الله.

لم أصدق ما أسمع، رددت كلماته كأنني أنقشها على صدري، وقلت: يا سيدي ماشتري لها هدية اليوم، وأشتري الخشب والشمعدان و..

قاطعني: لا تشترِ أي شيء، قالت لي: إنها لا تريد شيئًا.

ولكنني جمعت كل ما أملك لأشتري لها قطعة من الذهب. لم أكن أملك الكثير، كنت قد اشتريت قبلها الخنجر لعبد الباري. وبخت نفسي على تسرعي، ها أنا أعطيه هدية أكبر مما ساعطيها للطيفة، ثم وبخت نفسي على اتباع الهوى. ها أنا أقسم أموالي على هواي.. أندم على أنني خدمت صديقًا، وأريد أن أعطيها كلها لمن أحببت.

القلق لا يتركني ممتزجا بالترقب والدعاء، أتمنى فقط أن تصبح لي. أصبح العالم كله في لحظة اللقاء. تم الزواج وأنا لا أنظر إليها وهي لا تنظر إلي خشية رؤية الناس ما في العيون.

***

تسارعت أنفاسي وتأجج العشق واستقر جلست على السرير أنتظر دخول العروس وصوت الزغاريد ينطلق من حولي كما استغاثة جوانحي المشتاقة.

سبحت بالذاكرة إلى كل البحور رأيت أمي تضحك ضحكتها الصافية، وأبي يعود إلى بيتنا ليلًا وهو محمل بالعنب والخبز بالسكر الماضي يزين الدنيا كما الولد والمال. وأصبحت الآلام بلا ندوب، والجراح لا تئن، واستوت الأيام، وخرج وجه الشمس مُرحِّبًا بالإسكندرية كلها.

فتحت الباب ودخلت، ثم توقفت على بعد خطوات وطأطأت رأسها ولم تنبس. قمت من مكاني واقتربت منها، أزحت خمارًا أبيضَ من على وجهها الذي أعرفه. فكم من ليالٍ قضيتها مستيقظًا أراها تتعذب ولا أستطيع إنقاذها! الخيال قاسٍ أحيانًا أقسى من بُعد الأحباب والفقد ذاته. أمسكت بذقنها ورفعت وجهها إلي ونظرت إلى عينيها. كنت أظنني أقرأ العيون وتنجلي لي القلوب، ولكنني وقفت حائرًا كما الصبي الذي تركوه في البئر بلا خطيئة. خرجت أنفاس الشوق ترجرج رأسي. مررت بكفي على وجهها، فأمسكت بيدي تبقيها على خدها وألصقتها بفمها بُرهة، لا هي تقبلها ولا هي تتركها. كأنها تتأكد أنني معها، ربما، ثم لثمت كفي، وأنفاسها تخرج ممزوجة بعذاب مضى، فدنوت منها ووضعت رأسها على صدري، وجلست وأجلستها معي على مخدعنا.

أبقيت رأسها على صدري. كان فؤادي يستغيث أن تتلحف به وتنام بقية العمر الفاني وهي ملتصقة به. حاولت أن تتحرك فأبيت وطويتها بين ذراعي، أحاطت رقبتي بذراعيها ثم همست: كأننا في حلم.

مررت بيدي على شعرها، احتبست الكلمات واستغاثت ولكنني لم أحررها ماذا أقول؟ إن شوقي لها أحرق كبدي، وإنني بحثت عنها كأنني أبحث عن

بقايا طفولتي وأيامي ماذا أقول؟ إن عينيها لم تفارقا نومي، وإن الأرق لا يأتي فرادى بل ينهال على النفس كبيض الهند ورماح الصليبيين. أحيانًا يكون الصمت كلمات لا قدرة للسان بترجمتها.

قالت أم لم تقل..قالت بنبضات القلب إنها ظنت أنني مت، إنها تمنت أن تعرف لو كنت حيًا لا أكثر. قالت بعينيها إنها حارت مع الساعات والأيام واستنجدت بربها تدعوه أن تطمئن عليّ لا أكثر. تمنت أن تعرف أنني حي ثم لا تراني مرة أخرى. جاد الله علينا برحمة لا نستحقها. بحثنا بعيدًا فأدركنا العجز والتسليم. تعلمنا..تألمنا.. أذهلني أنها لم تنطق، لا طلبت أن تسمع مني كلمات الحب التي جهزتها منذ أيام ولا أن تخبرني بها. هل تعرف كيف يصبح الحب عصيًا على الكلمات؟ أنا أعرف. كل ما فعلته زينب أو لطيفة هو أنها حركت ذراعيها فأحاطت ظهري بهما، تشبثت بظهري ثم ازدادت قبضتها واستحكمت قبضتي.

تغير لون الكون وأشرقت الأنوار وأصبح الليل نهارًا يضيء بظل الأحبة وومضات برق الشوق.

***

عند الفجر تحركت من جانبها لأغتسل وأصلي، فانتفضت تساعدني، فقلت مسرعًا: اعتدت مساعدة نفسي.

ثم قبلت جبهتها قبلة طويلة تحاكي النشوة التي لم أنقها حتى اجتمعنا.

لا تكلمنا عن العشق ولا الغضا اللذين أذهبا عقلينا ليلًا، ولا نار الشوق التي ما تلبث أن تنطفئ لتشتعل من جديد.

صليت وصلت خلفي، وما إن انتهينا حتى بدأت أنا قراءة القرآن وهي تنظر إلي بلا كلمة. قمت من مكاني وخرجت من الحجرة حتى لا تتملص الكلمات

من إدراكي. انتهيت من القراءة ثم عدت إلى الحجرة. استلقيت على مخدعنا وشددتها لتنام على صدري وأصابعي تمر على شعرها ووجهها. فتحت فمي قائلًا:

لطيفة..

وضعت إصبعها على فمي وقالت: والدي يقول إن بعض الحقائق يصعب شرحها، ولو استعملنا معها اللغة نظلمها فتصبح كأبيات الشعر العربية الفصيحة بين يدي طفل أعجمي ينطق الحروف بلحن ويفقد كل المعاني.

ساد الصمت فقلت: كأنني سمعتك تقولينها لي.. يوم المعركة..

- قلتها لنفسي يا أحمد. بداخل القلب.

أمسكتُ بكفها ووضعته على قلبي.

كانت على حق.. ليس للكلمات مكان بيننا، فقد حلقنا في السماء ما بين الفناء والبعث؛ تارة نستسلم للوجد، وتارة نتغذى على محو الجراح

***

لم أتوقع أن أرى الشيخ واجمًا اليوم، ولكنني ما إن رأيته حتى اتصل عقلي بعقله وتوقعت كلماته. قال في هدوء وعيناه اللتان لا تريان تسبران كل الأغوار: عندما يقع المال في يدك يكون أول شيء تفكر فيه هو دنياك..

بلعت ريقي وقلت في تردد: يا سيدي زوجتي لم تحظَ بأي شيء؛ لا ببيت جديد ولا ملابس ولا ذهب..كنت..

قاطعني: ابنتي تعرف أنها تزوجت أبا العباس ولم تتزوج غيره. تكلمت معها ووضحت لها الأمور. استمتع بدنياك، نعم، ولكن والله نُصْبَ عينيك. هل فكرت فيمن يحتاج إلى هذا المال؟ في أم مسكينة أو سجين لا أمل له في

عمل؟ فيم فكرت يا أبا العباس؟

صمتُ في حيرة، فأكمل: خلق الله لنا الأنبياء ومحمد هو خاتم المرسلين، ثم خلق لنا الأولياء؛ رجالًا لا تلهيهم تجارة ولا دنيا عن ذكر الله. والذكر ليس باللسان بل بالقلب، والنفس بالبذل يا أحمد. الولي غريب في الدنيا وغريب في الآخرة لأنه مع الله.

قلت: يا سيدي كنت سأرتدي الصوف وأزهد ونصحتني ألا أفعل.

- كأنك لم تفهم بعد.

كلماته أصابت الفؤاد صعقًا.

أكمل: نفسك تروضها كما الحيوان المفترس في كل نبسة وكل خاطر تعرف ربك بعد أن تصدق مع نفسك، ليس لمثلك أن يقوده الوهم.

لم أفهم ما يقصد. فأكمل: تحب زوجتك وهذا رزق من الله إليك، ولكن لا تجعلها في خاطرك ليل نهار لأنها من فناء الدنيا.

- تطلب مني ما لا أستطيع، أنا بشر يا سيدي..

- ها أنت تنطق أخيرًا. ظننتك ستكذب علي وتطيع أوامري بلسانك وقلبك ثائر.

أعرف أنك بشر ولكنك لست ككل البشر هي مجاهدة لا تنتهي. في اللحظات التي تتحرر من بشريتك تنطلق روحك محلقة إليه. ليس كل الناس قادرين على هذا. أنت اخترت طريق المعرفة وهو محير وصعب، ولكنه الطريق الوحيد بالنسبة إليك لا خيار لك. زوجتك لا حاجة لها بالذهب ولكن غيرها يحتاج. فكر فيمن وكلك الله لمساعدته أولًا، واكف بيتك وأولادك أيضًا. هذا صعب، وحُكْم هذا الجسد صعب أيضًا، فيه عقل ونفس

وقلب وجوارح، لكل جزء منه عليك حق. يا أحمد أوصيك.. تحكّم في غضبك، ولا تأمن لنفسك، واعشق الواحد الحي حتى لا تشقى.من يتسع قلبه لحب الموجود لا يجد لغيره وجودًا.

***

بعد عدة أشهر طلب مني الشيخ أن أرحل إلى القاهرة مرة أخرى، كنت مترددًا لا أدري هل أرحل وحدي أو آخذها معي، ولكنها رجتني أن آخذها معي. كانت حاملًا في شهرها الخامس، ولأصدقك القول لم أكن أطيق فراقها أعطيت الدروس ثلاثة أشهر في القاهرة ثم عدت إلى الإسكندرية، ووضعت زوجتي ابننا الأول عليًا، ولو كان حبي لها ساعدني على أن أنتمي إلى البشر فحبي لعلي ساعدني على أن أجد وطنًا مؤقتًا في هذه الدنيا ذكرني بأمي وأبي ومُرسية، ذكرني بالأعناب والنخيل وأشجار السفرجل البهيجة. جمع كل الماضي في يديه الصغيرتين ونثره على رأسي وعيني، ولكنني أبقيت كلمات الشيخ بذاكرتي. فكان هدفي أن أعلّمه ما تعلمت، وأفرغ عليه الحب والمعرفة في نفس النفحة والضمة. قسمت وقتي بين التجارة والبيت والدراسة وإعطاء الدروس. كل فيضان للنيل أرحل إلى القاهرة ونبقى معًا في حجرتين أنا ولطيفة وعلي الصغير ثم أعطاني الله من رزقه جمال الدين محمدًا، وأحمد، وبعد ست سنوات رزقت بقُرة عيني بهجة فاض الحب كما الفيضان، وخشيت أن أستقر في الدنيا أو أتغير مع الأحوال كنت أخلو بنفسي كل يوم؛ تارة تتجاذبني الدنيا وتتنازعني، وتارة أغيب عنها وأصبح بكلّيتي معه وتارة أطلب منه الخير في الدنيا وفي الآخرة، ولكنني دومًا أطلب منه ألا يُقيّدني بالأشياء ولا العلائق، وأن يعفو عني ويجذبني إليه، فلا إرادة لي ولا قدرة.

***

في البدء ظننت أنني حاربت نفسي وانتصرت، ثم تذكرت أن جهاد النفس يستمر باستمرار الأنفاس هبت رياح الغيرة على قلبي لأول مرة، كانت بطيئة تكاد تختفي وسط الشتاء كنت جالسًا أدرس في القاهرة ثم طلب مني أحد الشيوخ أن يتكلم، فبدأ في الكلام والتف الناس حوله ونسوا أمري تمامًا. مكثت في مكاني وأنفاس غريبة تتخلل القلب، همت وجرت، ثم قمت وذهبت إلى البيت. لمت نفسي وعاتبتها، كنت أغبطه، نعم لحظة ربما، أو هاتف مَر ولم يستقر. تعال يا شيخ لترى مريدك يغار كالذين لا يعلمون. يومها استغفرته وصليت، وفي الصباح عدت إلى المسجد وكان حاضرًا، جلس أمامي يستمع فقلت له في حسم: يا سيدي تعال وتكلم.

نظر إلي في ذهول فقلت: كلامك أمس مس القلوب. تعال اجلس مكاني وأنا أستمع لك.

سمعت الهمسات في المكان ثم قال الرجل: هل غضبت مني يا أحمد أمس؟

قلت وأنا أمسك بيده: بل تعلمت منك هيا، اليوم أنت تتكلم وأنا أستمع لك. وغدًا أتكلم أنا. ما زلت أتعلم.

قام في تردد ثم جلس أمامي وبدأ يتكلم والناس تستمع في حماس، أطرقت رأسي واستغفرت ربي.

عندما عدت إلى الإسكندرية ناداني شيخي وقال: أن تغار من أحد أو تغضب ممكن، لا تعتقد أن الولي ليس ببشر ولكن أن تسيطر على غيرتك وتلوم النفس، وتغفر عند الغضب وتُحكّم العقل وترحم من لا يرحم، فهذه الصفات من كرامات الله عليك يا أحمد.

لم أسأله كيف عرف ولكنني قلت: أتعلم يا سيدي.

- ستتعلم طوال عمرك. كل نفَس تأخذه تتعلم فيه. الفرق بيننا وبين غيرنا

أننا لا نتوقف عن التعليم ولا عن الجهاد لا مواسم لنا ولا أيام مخصصة في كل ساعة ويوم حتى لقاء الله نتعلم اخترتك أنت ولم أختر غيرك؛ لأنك ترى نفسك كما يرى السبع وجهه في مياه النهر الصافية تجليها وتصفيها باستمرار الغفلة مرض يستعصي على كل الأطباء.

***

بعد مولد بهجة طلبت من لطيفة أن تبقى في الإسكندرية، وأن أرحل هذا العام وحدي ولكنها أبت، ولعلي كنت أفضل مجيئها مكثنا في الحجرتين أسبوعًا ثم قررت أن أستأجر لهم مكانًا أكبر فوجدت بناية من ثلاثة طوابق في الفسطاط، فاستأجرت الطابق الثاني. سكن فوقي شيخ من مُدرسي مدرسة الملك الصالح. كان غليظ الطباع، يكره صوت الأطفال وجريهم. اصطحبت معي عليًا وهو في السادسة إلى المسجد ليستمع إلى شرحي ويحفظ القرآن. بعد أسبوع قررت أن أترك البيت مخافة إغضاب الشيخ عدوي جارنا. طلبت من لطيفة أن تجهز أشياءنا ونعود إلى الحجرتين. ذهبت صباحًا أتفقد الحجرتين وأنقل بعض الأغراض، وعندما عدت تغيرت حياتي أو انتهت، لا أدري.

***

علي ومحمد وأحمد يهرولون صعودًا ونزولًا على سلم البناية، والشيخ عدوي يصرخ فيهم، ولطيفة تُرضع بهجة. خرج الشيخ من بيته والأولاد الثلاثة أمامه يهمون بنزول السلم، وصيحاته تزيدهم تأهبًا للعبة مختلفة وخطيرة، فأمسك بهم ودفع بهم على السلم وهو يسب ويلعن. تقلب الأولاد الثلاثة الواحد تلو الآخر وهم يصرخون أو يضحكون أو يخافون.. لا أحد يعرف. نهض محمد، ونهض أحمد، وجريا إلى والدتهما، ولكن لم ينهض علي. بقي ساكنًا أمام بيتنا.

حينها رأيت كسوف الشمس والقمر معًا، عمّ الظلام حتى قبل أن أعود إلى بيتي. سمعت صرخته في خيالي مع أنه لم يصرخ، كأنني شاهدته يستغيث بي وكأنني خذلته. عدنا إلى الإسكندرية ونحن خمسة لا ستة. مرت الأسابيع كأنها الدهر كاملًا. ندم الشيخ عدوي وشرح للقاضي أنه لم يكن يقصد قتل الولد، لقد دفعهم فقط، وقال إنه مستعد لدفع الدية. لم أدرك حجم حزني ولا شعوري بالعجز حتى وأنا ساجد بين يدي الله.

تكلمت معه بلا تحفظ ولا رسمية. قلت الكثير.. ها أنا مثل السيدة اليهودية، كل ما أحبه يتلاشى أو بعضه. كان أغلى مَن اقترب مني، كان وطني ودنياي. عليّ بالذات أعاد لي الانتماء إلى بيت وسكن.

إليك أنت...

إليك أنت.. ها أنا تائه بين شبر ونصف، أدور حول نفسي يا الله. أصارحك وأصدقك القول لو استطعت. الألم يحرق الأحشاء والشوق يمزق الأطمار. لا أقول إلا ما يرضي الله، ولكنه العجز الذي توغل واستقر والتيه الذي وجد المسكن بين الطلل وعلى أعطاف الغربان. يا إلهي لم كل هذا الألم؟ ليس سؤالي غضبًا، كيف أغضب منك وأنت أعطيتني إياه؟ لكنك أخذته مني أيضًا. لم أتمتع به سوى ست سنوات، لو أعطيتني سنتين زيادة أو ثلاثًا.. لو تركته بين أضلعي بعض الوقت..

عند السجود انهمرت دموعي وتفشى البؤس. قلت له: أغثني، فقد غرقت في اليأس. ها أنا عدت وحيدًا، لمَ تحرمني منه؟ ولو حرمتني فلمَ لا تأخذني معه؟ ماذا يتبقى لي هنا؟ لا شيء يذكر ولا شيء يبقى. كل حالي ومنيتي لقاؤك ولقاؤه. نعم أصابني العجز وضلل عقلي الحزن. أنت تعرف. لم لا ترفع الحجاب عني لأرى؟ كل هذه الأعوام أحاول ولا أستطيع. أتلهف للقائك وقربك وأعود متلفتًا حولي باحثًا عن اليقين.

إلهي، إن القضاء والقدر غلبني. إلهي.. اقطع حجابي حتى أصل إليك، واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لغيرك. لا تتركني في التيه أكثر من هذا. قل صبري وانهزم أمام هذا الفقد. إلهي.. حجابي عنك آيسني من غيرك، فاقطع حجابي حتى أصل إليك، واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لغيرك.

تارة ألجأ إليه لجوء الطفل الغاضب من أمه المشتاق إلى طمأنينة حضنها، وتارة ألجأ إليه لجوء المذنب قليل الصبر الذي ادعى الحكمة ثم عثرت قدمه عند الابتلاء.

بكائي كان سرًّا بيني وبينه، أما أمام الناس فكنت ثابتًا. وضلال الشوق كان وسط الظلام بين طيات النفس وحول جلاله.

عدت إلى بيتي لأواجه غضب محاربة فقدت للتو قلبها؛ زوجتي. كنت أعرف. ولكنني في هذه الأثناء ناديته باسمه المُحيي أن يحييني بعد أن مت، وأن يكون فنائي به وفيه وليس في دنيا متنقلة كالسحاب. لن أكمل الكلام فلم يعد في نفسي رمق.

* * * * *

السفر السادس

قالت لي كريستينا في الطائرة: سأحكي لكما لم يحكه أبو العباس.. لأني أعرف.. أو أكاد..

صاحت لطيفة بأعلى صوتها والخنجر لا يبرح الصدر: انتقم لابنك.. هو قطعة منك، خذ حقك من القاتل وإلا أخذته أنا.

بقيت ساكتًا. ارتعدت وهي تبحث عن سكين، أمسكت بها واتجهت إلى الباب ولكنني كنت أمامها، قلت في صرامة لم تعرفها من قبل: اتركي ما في

يدك وادخلي حجرتك.

لأول مرة تهابه. زوجها الذي طالما يتبسط معها ويتحمل دلالها. لأول مرة لا تفهم عينيه، قالت في تحدٍّ: سأخرج ولن يمنعني أحد. لو كنت لا تستطيع أن تأخذ حق ابني آخذه أنا. النار تحرقني، ألا تشعر؟! ألا...؟!

أشار لها بالتوقف عن الكلام وقال في حسم: عودي إلى حجرتك واتركي السكين هنا.

ربت على كتفها فأزاحت يده والجمر يتسلل إلى الصدر واليدين، أمسك بمعصمها في قوة وقال: لطيفة.. توقفي.

هوت إلى الأرض وهي تبكي. حاول الاقتراب منها فجزعت وقالت: إياك أن تقترب مني، لست زوجي من اليوم. لم أعد أريدك.

حملها وهي تقاوم وتزيح ساعديه، ولكنها لم تقو على الانفلات من قبضته. وضعها على مخدعها ثم أحاط كل جسدها بذراعيه وهو يقول: اهدئي.

رددت من جديد: لم أعد أريدك. أكرهك يا أحمد. هل تسمعني؟

- أسمعك.

- لا تلمسني ولا تضع يدك عليّ منذ هذه اللحظة.

امتزجت الأنفاس وقال وهو يضمر رأسها داخل صدره: نتكلم بعد أن تهدئي.

توقفت عن البكاء فجأة ومسحت عينيها وكأنها وجدت مفتاح الفرج، ثم قالت: هدأت، أتمنى فقط أن تبتعد عني.

التقت العينان. تركها وقال وهو يجلس على الأرض بجانب مخدعها:

سأكون بجانبك لو احتجت شيئا.

لم تُجب. عزمت أمرها.. في الصباح سترحل عنه.

عند الألم يخر العقل وينهزم، لو تركته تنسى ما كان. في هذه اللحظة لم تر سوى ابنها ساكنًا أسفل السلم. قتله العدوي وزوجها كأنه لا يبالي، كأنه ليس بابنه. لو رحلت عنه فريما تهدأ الجمرات أو لا.

عند الفجر خرج ليصلي فأيقظت أولادها ورحلت من البيت إلى بيت والدها.

***

استقبلتها أمها متسائلة ولكنها لم تجب. لم يسأل والدها، رحب بها كعادته ولاطف أحفاده. دخلت حجرتها واحتضنت أولادها دون عليّ، ولم تهدأ النفس بل تضاعف الخزي وامتزج بالحيرة. بعد مرور أسبوع جلست بين يدي والدها بعينيها المنطفئتين، تبدو للغريب أنها فقدت بصرها، بينما ارتد له بصره، اتجه بعينيه إليها ثم قال: الصبر والتسليم ثم الرضا.

قالت في تردد: أحمد.. هل جاء اليوم ليراني؟

صمت.

فقالت: أعني هل أراد أن يراني؟ مر أسبوع ولم يسأل عني أو عن أولاده.

مد يده وأمسك بيدها وقال: أنت بضعة مني في قلبي. الحزن دومًا يبدل النفس.. يطفئها ويخبتها والله يحب المخبتين.

قالت في إصرار: كنت أسأل عن أحمد.

- ولِمَ تسألين عنه؟ لقد قلت لي إنك لا تريدينه.

قالت في فزع: أبي.. هل أخبرته بهذا؟

لم يجب. فقالت في ترجٍ: أبي.. تختلط الأمور علي هذه الأيام. و..

قال في بطء: جاء أحمد. هو يسأل عنك كل يوم.

قالت وهي تمسك بقلبها كأنها لا تقوى على تحمل فراق جديد: هل جاء ليشكوني إليك؟ هل أخبرك بما قلت؟

- لا.. جاء ليعيدك إلى بيته.

فتحت فمها ثم عدلت عن الكلام، فأكمل الأب: ولكنني رفضت.

قالت في صوت مبحوح: لماذا رفضت يا أبي؟

- لأنك جئت بإرادتك ولو أردت العودة فستعودين بإرادتك.

- ولكن.. اسمح لي.. أبي..

- تكلمي..

- كنت سأعود معه، ربما. لم صرفته؟

- قلتِ لي إنكِ لا تريدينه.

- كنت أكذب.

- ابنة الشيخ لا تكذب.

- سأطلب المغفرة. الله رحيم يعلم ما في قلبي.

- ولو كنت تعرفين أنه رحيم فلمَ لا تتقبلين قضاءه؟

- أتقبل قضاءه ولكني أريد العقوبة لمن قتل ولدي.

- لو أنك وكلته في أمرك وتركت قاضي الحاجات يحكم بنفسه، ما تآكل قلبك ولا طمر الغضب روحك هو يعلم ما في نفس الشيخ العدوي، هل تعلمين ما في نفسه؟ ولو أخذتِ السكين وقطعتِ رأسه فماذا سيتبدى لك؟ دم وشحم وعروق أما نيته فيعلمها خالقه.

قالت بلا تردد: أقسم لو استطعت لقطعت رأسه مئات المرات. كل يوم عشرين مرة.

- لا حول ولا قوة إلا بالله! اللهم اعف واغفر.

أتوب إليك بك، ولولا ما شئت ما تبت إليك، فامح من قلبي محبة غيرك، واحفظ جوارحي من مخالفة أمرك. وتالله لئن لم ترعني بعينك، وتحفظني بقدرتك، لأهلكن نفسي، ولأهلكن أمة من خلقك، ثم لا يعود ضرر ذلك إلا على عبدك.

قالت في حزن: هل أنت غاضب عليّ؟

وضع يده على رأسها وقال:

يا من بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، انصرني بالخوف منك، والتوكل عليك، حتى لا أخاف غيرك، ولا أرجو غيرك، ولا أعبد شيئا سواك. أشهد أنك على كل شيء قدير وأنك قد أحطت بكل شيء علما.

تساقطت الدموع من عينيها وشهقت ثم تحول بكاؤها الصامت إلى نواح. ضمها إليه وردد: لا حول ولا قوة إلا بالله! الصبر منه هو، والتوبة منه هو. أنا لا أغضب يا زينب، أنتِ قرة عيني.

مسحت دموعها بكفيها ثم قالت من بين شهقاتها: ألن يأتي مرة أخرى؟

- نعم.

- لماذا؟

- لأنني قلت له ألا يأتي.

- ألن يرى أولاده؟

- بعد حين ربما آتي بهم إليه.

- ولن يراني؟

- إذا أردت أن تقابليه فعودي إلى بيتك.

- هل تريدني أن أعود يا أبي؟

- افعلي ما تريدين أنت.

احتضنت نفسها ثم قامت بعد أن قبلته.

***

حكى أبو العباس لماريو

ثبتُّ أمام لطيفة ولكن قلبي انفطر كما اللوح الزجاجي لما تمثل أمامي علي رأيت معه أمي فاطمة المالقية تتكلم بلسانها الأعجمي، كنت طفلًا سعيدًا حينها أو هكذا شبه لي أنا أمسك بيدها اللينة وهي تقطف العنب وتضحك، وكنت أقول: ما شكل الجنة يا أمي؟

فتقول في يقين: كما هذه الحديقة بأعناب تنتظر من يجففها ويعتني بها.

- ولكن لِمَ ننتظر الجنة لو كانت بين أيدينا؟

أطرقت برهة ثم قالت: لأن ما بين أيدينا يرحل والجنة لا ترحل، تبقى الأعناب هناك إلى الأبد، لا تذبل ولا تتغير مع تغير الفصول. هل ستساعدني

على تجفيفها؟

- متى ستصبح زبيبا لآكلها؟

- الصبر يا أحمد.

- حتى جنة الأرض تحتاج إلى الصبر؟

- هي جنة الأرض ما تحتاج إلى الصبر يا بني.

يتطابق وجه أمي ووجه علي ابني، وتتناثر حبات الزبيب من حولي. صفاء مياه الطفولة جبلت بحنظل التجربة والشباب. ناديته من جديد. اختليت به في البيت الذي هجرته زوجتي.

غيبني بحبك عن ألمي وعن حيرتي وعن الكره الذي ينخر فؤادي كل حين. مرارة النفوس أصبحت تطغى على طيب مخلوقاتك. لا تكلني لنفسي فهي عاجزة.

جلست أمام شيخي ثابتًا فاخترقت عيناه المظلمتان عيني كأنه يراني أو رآني.

قال الشيخ في ثبات: لا حجاب إلا الوقت. تنتظر منه الإشارة كل يوم، أليس كذلك؟ تريده أن يخبرك أنك على صواب وتمشي في الطريق الصحيح. تريده أن يطمئنك كما الطفل المنتظر كلمات الثناء من والده. تنتظر الفتح تخلو معه في الجبال وبين حنايا الظلام وأنت تريد شيئًا منه. المحب لا يريد ولا ينتظر. ها أنت تدعي محبته ثم تسخط منه عند أول قضاء يؤلمك. من يدّع المحبة يثبت مع الحبيب في كل حال. قالها الشيخ ابن مشيش: وحب الله قُطب تدور عليه جميع الخيرات. ادعيت أنك تحبه فاثبت معه حتى لو خطر الغضب والخوف واليأس على قلبك. تتمنى الموت أليس

كذلك؟

نظرت إليه في ذهول لأنه قرأ أفكاري، فقال: يا أحمد، تريد الموت لأنه يخلصك من الألم مع أن الأنس بالله يزيل كل هم الولي يا بني لا يحيا في دنيانا لأنه مع الله يريد لقاءه نعم، ولكنه يصبر على الدنيا لأنها طريق إليه يومًا ما يا أبا العباس ستستقبل الموت لا لترى الأحباب الذين اشتقت إليهم، ولكن لتلقاه هو، فكل الأحبة من صنعه، وكل الجمال اجتمع بين يديه وحوله، هل تفهم كلماتي يا أحمد؟ اخرج من حولك وقوتك ومن نفسك وتذكر تكليفه لك.

ربما لم أفهم ما يقصد حينها، فقلت كما الطفل البائس: لو أعطاني هذا الحب لعليّ فلم يأخذه مني؟

- لا تسأل عن سر الغيب بعقلك المحدود. اليقين لا يحتاج إلى السؤال.

- لن أصل إليه إذن..

- جاهد نفسك وعلمها الصبر.. أتدري ما سر الكلمة؟ هي كلمة واحدة.. اليقين. عندما يفتح عليك الله بها ستعرف بلا كرامات ولا معجزات. هي عين الرحمة والعفو، هي الغاية من الوجود. ولكن لا يقين بلا حب.

- كان الوطن الذي محا الفرنج أثره.

- لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي.. قالها سلطان العاشقين، ولكن ليس على ولد من دمك بل عليه هو.. انتسب إليه ولا تنتسب لغيره. أنت أعظم من أن تنتسب لغيره وأكرم. المحبة هي الرضا بما قضى لك. أبت المحبة أن تستعمل محبًا إلا فيما يوافق محبوبه.

قلت في يأس: لعلني لا أصل أبدًا. وربما لا أريد أن أكون مختلفًا عن غيري.

ساد الصمت.. ندمت على كلماتي ولكنه قال في رفق: أحمد اطلب منه أن يغنيك بحبه عن كل شيء. هو القادر وليس أنت. يريد أن يمكنك في الدنيا والآخرة ولكنك مقيد بحالك. بحثت عن لطيفة وهي حولك لأنك لا تعرف الغيب، تعلم واصبر. من قال لك إنه طريق سهل؟! هو طريق واضح ومستقيم ولكنه لا يستوي إلا لمن ترك حموله عليه. بعد المحنة يأتي التمكين لمن هم مثلك.

- لست نبيًا يا سيدي.

- ولكنك ولي من أولياء الله.

- بل عبد عاجز.

- لذا فأنت ولي لأنك تدرك عجزك، ولكنك تحتاج إلى تهذيبها والسيطرة عليها، والمجاهدة مستمرة إلى يوم لقائه، وما أجمل يوم لقائه! لو رزقك بكل هذا الحب فهو رحيم. تذكر هذا. أحمد.. أمسك بيدي واقترب مني. ثم قال: ليس لك خيار فيما كُلفت به، كلفك به العليم الخبير.

- أعرف.

- خلق الله بداخل كل إنسان نورًا مضموزًا وسط ميادين النفوس. بعضنا يفنى موتًا فلا يجد النور، وبعضنا يفنى حبًا فيتدفق النور من ثناياه. أنت مُعلّم مهمتك أن تُخرج النور من مطايا النفوس، وكلما أضأت نفسًا سينعكس ضوءها على نفسك أنت، كلنا في رباط واحد منذ الأزل ولكن النفس تأبى إلا أن تصرم ما ربطه الله. من هو الشيخ يا أحمد؟

قلت مسرعًا: هو من دلك على راحتك لا من دلك على تعبك.

- هو أنت يا مُرسي.

قلت في تردد: سيدي..

- إياك أن تنسى أن الله يجتبي من عباده من يشاء، لا حول لك ولا قوة في هذا، فلا تقف بعد اليقظة، ولا تستسلم والقتال لم يبدأ بعد.

- أي قتال؟

- كل يوم وكل حال فيه مجاهدة بداخلك وخارجك، لم تحجب عن ربك قط، لذا اخترتك أنت.

عدت إلى بيتي المظلم وحيدًا أو هكذا شُبّه لي. لم أوقد أي شمعة، بحثت عن أي ضوء حولي أو بداخلي، ولا أدري هل وجدت أي شيء حينها.

* * * * *

الوصول الأول

عدت إلى الإسكندرية بدون الشيخ أبي الحسن الشاذلي. لأول مرة أواجه هذه الغربة وحيدًا. ولكن نفحات رضا الله كانت تقوي عزيمتي، فكنت أحمد غير الذي أعرفه. تجتاحني الأيام وتعربد بي ولا تخترق قلبي ولا تؤثر فيّ كأن ضربة الخنجر وخز إبرة، وصرخة الألم همس أنين. كنت مسيرًا في مسلك مكتوب عليّ، وكنت أهرول إليه بعزيمة وحماس. ربما بدا للبعض أنني لا أعرف ولا أتوقع العواقب. وربما لامني الصديق قبل البعيد على أنني لم أتريث ولم أحترس. ولكن كنت أندفع كما الأمواج، مأمورًا مُكلفًا بخطوات محددة.

عندما تدفقت الكلمات من فمي ذهلت، وعندما طلب مني الشيخ أن أتكلم وألا أصمت أبدًا لم أفهم معنى كلماته. وعندما كنت أنتظر الفتح قل صبري وتكاثرت حيرتي كما الغيوم قبل المطر ولكن القطرات بدأت تتساقط

فتوقظ النفس النائمة وتزعج الوهم المستقر. أدركت أن فتح الله عليّ كان في كلماتي التي أقولها؛ في المعاني التي تصل إلى القلب، في شعور خفي يأتي بلا موعد، فتصطحبه لذة مختلفة كطعم العسل وهو يسري في العقل المفزوع، أو كنبع من الماء يخرج من الآكام. راحة مختلفة تمر عليّ ثم تختفي، يقين ما يأتي إلا ليرحل ولا يكاد يستقر، ولكنه كلما مر غربل الكون من حوله كأن العالم كله أصبح ملك يدي والزمان في قبضتي. من الصعب أن أشرح لك، ولكن الكلمة فتح، والصدق فتح، واليقين فتح، هل تسأل عن كراماتي يا أخي؟ لا كرامة لي سوى أنني حاولت الصدق مع نفسي قبل غيري، أحيانًا أخفق، وفي بعض الأحيان أنجح.

عدت إلى الإسكندرية غير التي تركتها. ذاع خبر وفاة الشيخ وبكى الناس. ثم بدأ بعض الفقهاء الهجوم على أفكار الشيخ وتلاميذه. خرج الشيخ تقي الدين يدعو إلى نبش قبر العارف بالله ابن الفارض ويكفره، خرج يدعو أهل مصر إلى طرد كل أهل التصوف. كل من صمت وقت شيخي وجد صوتًا عند وفاته.

نشر الشيخ تقي الدين رجاله على بيوتنا حتى قبل أن أعود. ترك تلاميذه أشغالهم وتفرغوا لسب الصوفيين وضربهم. هاجت الإسكندرية وماجت. وعبد الباريّ صديقي - لسبب لا أعرفه - لم يتعرض لنفس السب ولا الاضطهاد. بل خرج الشيخ تقي الدين وبرأ عبد الباريّ، قال إنه غيرهم، هو شيخ بحق وله كرامات، هو فقير ويشفي المرضى ويفك كرب المظلوم. عدت إلى الإسكندرية لأجد نفسي غريبًا مرة أخرى، بل مضطهدًا هذه المرة.

عانقتني زوجتي في وجوم ولكنها قابلتني بثبات لم أتوقعه، كانت محاربة ولم تزل. وعند العودة جاءني هاتف بكلمات كنت أرددها بقية عمري: أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية. وكانت

أحوالي الأربعة مجتمعة، وأنا مقيد بحالي ووقتي.

قالت لطيفة ليلًا: أحمد. لم يعد لنا مكان هنا.

نظرت إليها بلا كلمة. فأكملت: ستعرف ما أقصد. غدًا تفهم قصدي.

وفي اليوم التالي فهمت ما تقصد. عندما ألقى الرجال على الحجارة وسبوني أنا وأولادي في الطريق إلى مسجد العطارين فهمت ما تقصد.

وقف رجال الشيخ تقي الدين يهددون بقتلي، وانبجست الشتائم من أفواههم بلا توقف.

عدت إلى بيتي فقالت لطيفة: ألم أقل لك؟ تغيرت الإسكندرية علينا كنت تعطي دروسك في قوص، يمكننا الذهاب إلى هناك أو القاهرة أو دمياط أو أشمونين أو بهنسا، اختر أنت المكان، أو ربما من الأفضل أن تتوقف بعض الوقت عن إعطاء الدروس ونهتم بالتجارة وتربية أولادنا يكفي من رحلوا يا أحمد. أقسم إني أخاف رحيل أحد ممن أحب بعد هذا.

نظرت إلى عينيها ثم قلت: أنا لن أترك الإسكندرية؛ لا الآن ولا بعد أعوام.

فتحت فمها فقلت وأنا أربت على يدها: تعالي نجلس مع الأولاد.

استسلمت لقراري ولكنها لم تتقبله.

***

في ليلة عودتي نفسها جاءتني رسالة من الشيخ العدوي أنه يريد أن يراني. انقبض القلب وضاق الصدر. ولو كان هناك إنسان في هذا العالم لا أريد رؤيته بقية عمري فهو الشيخ العدوي. كنت أتوقع أنه يريد أن يعتذر ولم أتأكد أنني أستطيع أن أسامحه. وعدته بلقاء في الصباح ولم أخبر لطيفة.

لم تلتق أعيننا ولم أقوَ على هذا. قبضت على شفتي وأطرقت وهو يتكلم بلا توقف ثم قمت قائلًا: لنسر معًا يا شيخ على شاطئ البحر.

سار بجانبي وأنا أحاول أن ألهي نفسي عن غضب هائل يجتاحها، تمنيت أن أرهق من السير حتى يخمد الكره ولكنه قال فجأة: أريد أن أصارحك يا أحمد..

توقفت ونظرت إليه، فقال في خجل: لحظة دفعت بهم، لاح على بالي موتهم جميعًا وتمنيتها، ولكني لم أكن أريد موت علي. هل تفهمني؟

تجمدت مكاني كأن الصاعقة تمكنت من كل الجسد وفتتته.. لم أنطق. فقال هو: أفهم لو كنت غاضبًا مني، لم أقصد موته ولكنني تمنيته في لحظة الغضب. صوته كان يستفزني، ضحكاته تشعل نيران الحقد. أريد أن أصدق معك حتى يعفو عني ربي. أكره الأطفال وأكره عليًا بالذات أو هكذا شعرت.

لم أنطق ولم أستطع أن أرفع عيني إلى عينه. تمثل أمامي عدوي وسيفي ينغرز في رقبته في مخيلتي، ففزعني خيالي غير المنسجم مع عقيدتي وقناعتي.

قلت بعد برهة: وماذا تروم؟

- أريدك أن تعفو عني.

- يعفو عنك الله.

- وأنت يا أحمد؟

قبضت يدي وخرجت رجفة من كبدي ثم قلت: سأحاول.

- هل تسمح لي بحضور دروسك؟

قلت مسرعًا: أخاف أن يلهيني الغضب عن ربي. اعذرني هناك الكثير من الشيوخ تستطيع أن تحضر دروسهم.

- تمنعني من درسك يا أحمد؟ أي شيخ صوفي أنت؟!

لم أستطع الإجابة ولم أجد الشيخ لأحكي له. كنت في الأربعين بكبد لا يبرحه الألم بعد، ولنفس يستعصي علي ترويضها.

***

قالت وهي تخلع عني عباءتي: ماذا بك يا أحمد؟

لم أجب.

وضعت الطعام أمامي فلم آكل.

اقتربت مني فأبعدتها في رفق ثم ذهبت إلى خلوتي. سبحت باسمه في ظلام الليل، تلاشت النجوم من حولي ولم أر سواه هو، كان قريبًا، لأول مرة أقترب منه هذا الاقتراب. همست: تركت نفسي إليك فلا قدرة لي. سجدت ساعة ثم سمعت طرقها على الباب، قالت في قلق: أحمد..

فتحت الباب وقلت: اتركيني اليوم يا لطيفة. سأقضي الليلة هنا.

نظرت إلي في ذعر ثم قالت: حسنًا كما تريد.

أدارت ظهرها لي فناديتها: هل تخافين؟ مم تخافين؟

أحاطت جسدها بذراعيها كما تفعل وهي حائرة ثم قالت: لا أعرف، ينقبض قلبي هذه الليلة.

أمسكت بيدها ثم قلت: اتركيني بعض الوقت وسألحق بك.

قالت لأول مرة: لا تتركني أنام وحدي اليوم.

فقلت في حسم: لن يحدث.

لكنني كنت منزعجًا من كل البشر وأردت أن أختلي به هو ليدرك حجم عجزي وتفتت هشاشة القلب. كلما لجمت النفس وروضتها تصارعني كأشرس الوحوش. كنت أفضل البقاء أيامًا في خلوتي، ولكن الدنيا تجذبني لمسئوليات واحتياجات من أهلي فلا مفر اليوم عدت إلى حجرتي وأنا أجر رأسي جرًا.

استلقيت بجانبها، وجدتها تزعم النوم، وما إن تمددت حتى وضعت رأسها على صدري وأحاطت بطني ونامت.

ترقرقت كفي على القلب المذبوح فلم تبرحه، فأبقيت كفي على قلبي حتى لا أصرخ. أصبح النوم أقسى عقاب يبعث بالهواء الوخم، ويصيب الجسد بسقم لا علاج له. حلمت بالشيخ العدوي، في حلمي كنت أضربه بالسيف مرة واثنتين وثلاثًا، أفزعني العنف بداخلي حينها. أسمع في حلمي نداء ولدي، ثم أضرب رأس العدوي فأسمع صيحاته من الألم. انبجست الدماء وتفتق الرأس واحتضنت عليًا ولدي، والرجل يستغيث: قتلتني يا أحمد. في أحلامك تقتل يا شيخ. تحب الدماء وتريحك. دماؤه كأنها حقيقية تنتشر على جسدي، ثم تصل إلى القلب، فيفزع قلبي والدماء تغمره ولكنه يطلب المزيد لا فطام من طعم الدماء في فمي، كدت أموت ألمًا. لم يكن فقط حلمًا، كان شرًا بداخلي لم أدرك حجمه ولا أين اختبأ، وكان حسرة على ولدي ورغبة خفية في الانتقام.

سمعت لطيفة أنيني فأيقظتني، لم أجب ولم أفتح عيني، ولكنني استيقظت من حلمي وغفلتي.

كنت أحمد.. وحيدًا وسط البشر تطمرني ظلمة بديعة وسجن متقن. كنت أحمد.. طفلًا ضعيفًا، لا عذاب يودي بقلبي بعد، ولا ماضي ينكأ جروحي. كنت تائهًا بين خبايا نفسي لا أتوقعها ولا أعرفها. انتصف الليل.. وضعت يدها على كتفي وهي تقول في تردد: أحمد..

أمسكت بيدها وقبلتها قائلًا: نامي حبيبتي.

- ما بك؟

- شيطان ينغز الصدر بين الحين والحين لا تشغلي بالك.

أغمضت عينيها ولم تحاول أن تفهم أكثر. تعرفني وتعرف ما تتوقع.

صرخت نفسي بينما صمت اللسان، سمعت تأوهات الصدر. علت حتى صُمّت أذناي، استغثت به هو: كنت أظنني وصلت إليك.. اجتبني فلا حيلة لي. أو لا تجتبني فلا حيلة لي أيضًا. افعل بنفسي ما تشاء. أسلم لك اليوم بلا انتظار وبلا ترقب.

خرجت دمعة من مقلتي إلى كفي، وتسلل بعض رياها إلى أغوار قلبي، نمت أو سهوت.. لا أتذكر. شعرت بثقل على كفي كأن يدًا تمسك بيدي، تحيط كفي. تسربت مياه رطبة صافية إلى شراييني، كأن الجسد ينهض، بل يرتعد بصحوة مختلفة ونشوى من نوع لا يمكن شرحه ارتعد الفؤاد مما رأى ولكنني لم أتحرك فتحت كفي لأقبض على اللحظة ولم أستطع بقيت مكاني أحاول استعادة ما حدث ولم أتمكن راحة واطمئنان، يقين وسرور صوت في حنايا الأضلع يضيء ساعدي بنور ليس كمثله نور. انطلق النور مهرولًا فازًا بين جوارحي وكأنني مت للتو أو ولدت من جديد.

لم أجرؤ على التحرك ولا استعادة ما حدث. هل هذا إنسي أم ملاك، أم نفحة من رضاه؟ من أمسك بكفي؟ ومن وضع الضوء داخل الصدر؟ من أين

هذا الأمان وسط كل اليأس؟

اعلم أيها السالك الغريب أنه جذبني إليه باسمه القهار فقهر النفس واختطفها ثم أفناها بين يديه، ثم جذبني باسمه الحي حتى مات كل مفقود وبقي الواحد الموجود، وجذبني باسمه الله حتى أقيم في حضرته غير مكترث بجنة ونار.. والشرح معدوم، والفهم محذوف، والكلمات نغمات تخرج من الأحشاء.

نمت في اطمئنان يحاكي ألوان الجنة ونفحات قربه.

***

إليك أنت.. يا عالم الأسرار هناك سر بيني وبينك. كنت أبحث عنك بلهفة التائه ويأس الخائف، ثم بحثت عنك بشوق المحب ومعرفة المطمئن. سلكت مسالك الوجد والأسى، ثم سلكت مسالك الحيرة والضياع، ثم سلكت مسالك القرب والسكن. يقولون: كيف تحب ربًا لا تراه؟ ولكنهم لا يعرفون رؤيتك ولا حولك. كنت أرى السعادة في الأشياء من حولي؛ أناس أنتمي إليهم، وطن يتسرب من بين يدي ويتلاشى، حرب وخير وشر وفساد ورحمة. ولكنني بحثت هنا، داخل الفؤاد، ما كذب الفؤاد ما رأى. كيف أصف لك يا ماريو؟ هل ستعرف لو لم تتذوق؟ قالها الشيخ العارف ابن مشيش لشيخي في الماضي، اليوم فقط أدركت معناها: وحب الله قطب تدور عليه جميع الخيرات، وأصل جامع للأنوار والكرامات. ثم حدث ما كنت أنتظره عندما توقفت عن الانتظار، سمعني عندما توقفت عن النداء، ولجأت إليه لجوء المضطر لا لجوء الفزع والرعب. اقتربت بعجزي فأدركني بقوته.

يومًا كنت أحارب اللجج بباعي القصير ثم تمنيت الموت حينها رغبة في توقف العذاب. واليوم تركت الأمواج تحملني، فترفقت ورفقت بي، فتمنيت

لقاءه شوقًا لا خوفًا، سكونًا لا رغبة في توقف الألم.

سمعت كلماتهم جميعًا، رأيتهم أمامي يحدثونني أنا، كأنهم جاءوا من أجلي أنا.. كل من سلك الطريق قبلي ومن بعدي.. كنت مكلفًا لا أعرف بالضبط بماذا. وكنت أسير في مسلكي إلى الغاية كما شجرة الزيتون لا شرقية ولا غربية.. رأيت نوره طبقات طبقات بلا نهاية. أيقنت وشاهدت وكفى. لا تسأل يا أخي عمّا لا يمكن وصفه.

***

تغير حال الإسكندرية وحال مصر سقطت دولة وكادت تبدأ أخرى ولم تستقر بعد. جاء مُتولي جديد للإسكندرية، يقولون إنه جاهد في المنصورة وأتى بالبطولات والتضحيات. ذاع صيته وذاعت أخبار تقربه للفقهاء والقضاة. أما أنا فعاداني صديق وعاداني عدو. بعض الفقهاء والقضاة أصبح همهم هو أحمد أبا العباس المرسي وخروجه من مصر وصديقي عبد البارئ كان عداؤه أخطر وأشد قسوة على نفسي. ذهبت لزيارة عبد البارئ. زيارة الصديق كانت واجبة عليّ ليس فقط لأنني أكره العداوة، ولكن لأنني كنت أحبه. في الماضي ضحكنا معًا في زمن قلت الضحكات، وقفنا مذهولين معًا لا نفهم أحيانًا كلمات الشيخ، فنغوص في الحيرة ليلة أو اثنتين نقرأ ونتناقش، سافرنا معًا وتبادلنا الرحال مرة ومرتين. تعلمنا معًا أن نربي أنفسنا، فكيف لنا أن نختزن الحقد؟ استغفرت ربي وذهبت إلى عبد البارئ في بيته البسيط، استقبلني بهدوء وجلس أمامي، قلت له إن وقت الحزن تختلط علينا الكثير من الأشياء، وإنني أريد لنا ألا نضل الطريق، فطريقنا طريق تخلٍّ وليس طريقًا للكسب أو الرياسة. نظر إليّ مليًا ثم قال: تخلّ إذن يا أحمد.

أطرقت وابتسمت ثم قلت: أحاول يا أخي.

- جئت إلى الطريق قبلك.

- أعرف.

- أنا أحق بخلافة الشيخ.

- يفعل الله ما يريد. نحن تعلمنا أن علينا تكليفًا في هذه الدنيا، وهذا التكليف هو أن نُعلّم ونَدُل على السبيل إلى الله لا أكثر. لا نبغي فيه حب الناس ولا نسعى إليه.

- توقف عن دروسك وعن التفاف مريدي الشيخ حولك.

- أكون قد خالفت وصيته وأنا لا أستطيع.

- بل تجد هوى في نفسك للخلافة، تريد أن تكون قطب الزمان والولي والحكيم. لا استطعت أن تحارب نفسك ولا أن تسمو بها.

قلت في صدق: أحاول ولا أدري لو استطعت.

- تتوقف عن التدريس ثم تخبر المريدين أني أحق بخلافة الشيخ، أو تنسى أننا كنا أصدقاء.

- لا أستطيع أن أكون خليفة له ولا أجرؤ. أعطي الدروس ولا أريد سوى أن أحمل المعرفة من يد ليد. أدرس وتدرس، بل ندرس معًا في نفس المسجد نفيد الناس، ولا نبغي شهرة ولا حبًا من الخلق.

- الإسكندرية لا تسع عبد الباري وأحمد. ضاقت علينا معًا.

- أرض البدن هي التي تضيق على الروح، أما أرض الله فدومًا واسعة.

- ارحل من هنا.

- كلفني بها شيخي.

- ارحل من مصر كلها تسلم

- لو كنت تتكلم عن سلامة البدن فلا شأن لي به، أما سلامة القلب فهي كل ما أبغي أمد يدي إليك يا أخي.

نظر عبد البارئ ليدي الممدودة ثم قال في جئت تريد الحرب لا السلام.

قلت في إصرار: جئت أبغي الصداقة والسلام. أريدك معي .. ولا تطلب مني أن أتخلى عن وصية أبي وشيخي، فلا أستطيع.

فتح باب البيت ثم قال: لم يعد لك مكان هنا يا أحمد. لا في بيتي ولا في الإسكندرية.

***

أصاب الحزن قلبي وكدت أرتع فيه وأسكن، بل جاءني هاجس وطنين في أذني ساعة أو أكثر هناك قبح داخل البشر يحزنني ولا فكاك منه. كيف لي أن أصفح وأتغاضى عن هذا؟ وهل أستطيع؟ رددت كلمات سمعتها مرارًا من شيخي وسمعها هو من شيخه: اهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فشرهم يصيبك في بدنك، وخيرهم يصيبك في قلبك.

ولكنني هفوت أو كدت. ترددت في إعطاء دروسي، وبقيت الكلمة في حلقي مخنوقة تكاد تحتضر. وجدت في نفسي بعض الغضب فخجلت أن أعظ الناس بما لا أملك. استغفرته وسلمت إليه ثم جاءت البلية أو أوشكت.

كنت شاردًا، تارة أفكر في قلبي الذي لا يغفر للعدوي.. وتارة أفكر في فؤادي الذي لا يصدق نهاية الصداقة، وتارة تؤلمني أضلعي وأنا أفتقد الشيخ والأب الذي حملني من البحر إلى البر في ساعة أو كاد. كنت في الخان مع أخي والشرود يكاد يسكن الخاطر. قال لي بصوت عال: هذا القمح يريد شراءه تاجر من قوص.

قلت بلا تفكير: نعم.

- هل نبيعه كله له؟

- لا بأس.

- جاء القمح أمس من بلبيس.

فقال محمد أخي: هل عاينته يا أحمد؟

قلت وأنا أقوم لأحمل معه القمح: لا بأس نبيعه للتاجر.

بعنا القمح لتاجر قوص ورحل. لا أتذكر لو كنت عاينت القمح قبلها بيوم أم لا. شردت وجنبتني الدنيا. غفلت فتعثرت. كان ممتلئًا بالسوس. كيف استقر السوس في القمح في ليلة واحدة؟ وهل غير أحدهم قمحنا.. لم يكن هذا هو شاغلي. شاغلي كان أن التاجر اشترى منا قمحًا تالفًا ودفع فيه الكثير ورحل عنا.

لم أدرك كل هذا إلا عندما أمسك أخي ببعض الحبات ثم قال لي في فزع: انتهينا يا أحمد.. سيقولون: أبو العباس وأخوه يبيعان القمح التالف ويخدعان التجار.

هرولت أبحث عن التاجر لأعطيه المال فلم أجده. شددت الرحال إلى قوص والمال في جيوبي، واليأس يقترب ولا يخترق قلبي.. ولأول مرة

اسهو في طريقي أو أنام فأصحو لأجد الأموال قد سرقت. رأيت السارق يجري فجريت بأقصى سرعة لألحق به، ولكنه تلاشى من أمامي. كأن البلية استحكمت وسيطرت، وكأن فضيحة أبي العباس لا بد أن تنتشر.

جلست في الصحراء أناجيه. إلهي استرني ولا تفضح عبدك الغافل. إلهي، قد أحاطت بي خطيئاتي فاغفر لي، وهب لي علمًا يوافق علمك، وحكمًا يصادق حكمك، واجعل لي لسان صدق بين عبادك، واجعلني من ورثة جنتك... وارفع الحجاب فيما بيني وبينك، واجعل مقامي عندك دائمًا بين يديك وناظرًا منك إليك، وأسقط البين عني حتى لا يكون شيء بيني وبينك....

تمثل أمام عيني ما هو قادم أن يتهموني في صدقي كان بالنسبة لي أقسى من تقطيع جسدي من خلاف وهل هذا يا ترى لأن الأنا لم تزل تعطو بين جوارحي لِمَ أهتم بأحكام البشر ولِمَ أهتم بالفضيحة لو أنه هو يعلم. ولكنني أخطأت وغفلت، كنت أعرف ذلك.

رددت وأنا أكلمه: اللهم لا تعذبنا بإرادتنا وحب شهواتنا، فنشغل أو نحجب أو نفرح بوجود مرادنا، أو نحزن أو نسخط أو نسلم تسليم النفاق عند الفقد وأنت أعلم بقلوبنا، فارحمنا بالنعيم الأكبر والمزيد الأفضل، والفوز الأكمل، وغيبنا وغيب عنا كل شيء، وأشهدنا وإياك بالإشهاد، وانصرنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

***

عند الفنار كنت أشرح درسي في كتاب إحياء علوم الدين، ولا يستمع لي سوى ابني الشيخ محمد وأحمد وسيدة عجوز لا تخاف من تهديد الفتولي. التف المريدون حول عبد الباري، أو بقي بعضهم يتعبد في بيته، ومن يعرفني حاول المساعدة ربما، ولكن يد الفتولي تبطش بلا تمييز والفقيه

يُكفِّر كل يوم أهل التصوف أجمعين، أما عبد الباري فاستمر في درسه في الإسكندرية. كنت أسمع الكلمات تتناثر من حولي عنه، البعض يقول: عبد الباري شيخ يبطل السحر ويعرف الكلمات التي تبعث على السعادة، لا يقبل المال ولكنه يتقبل الهدايا. هو قريب من الله أنا متأكد. له كرامات ومعجزات.

أغمضت عيني وعبس وجهي، ما آلمني لم يكن كون عبد الباري يخطب في الناس بقدر ما آلمني ما يفعله بالكلمات والعقول آلمني ما سيظنه الناس خطأ عن أهل التصوف كنت أقول عند سماعي: كل شيء بيد الله ليس لأحد وساطة بينك وبينه. شيخك من يوصلك إلى الطريق ويفتح الباب، أنت من يدخل، لا حجاب بينك وبينه سوى نفسك.

كنت أتكلم عن الكرامات فأقول: بل أكبر الكرامات أن تكون في الظاهر ممتثلًا لأمره، وفي الباطن مستسلمًا لقهره، وإن شئت قلت: الصدق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية. الكرامة هي أن تطوي عن نفسك أوصافها، أن تبدل خُلقًا ذميمًا بخُلق حميد. كنت أقول في حسم: ليس الشأن من تُطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تُطوى عنه أوصاف نفسه فإذا هو عند ربه هل جاهدت نفسك؟ ما أسهل ادعاء المعجزات وكثرة الصلوات! وما أصعب هوى النفس وتمكن الكبر والحقد!

ينظر إليّ الناس في دهشة من جرأتي على الكلمات وأنا منبوذ من أصحاب الحُكم في البلاد ومن الوالي نفسه، أجلس داخل الفنار أدعوه. طوال عمر الماضي، أربعين عامًا ظننت فيها أنني قادر ربما حتى تمكن العجز واستقر ولكن صاحبه يقين من نوع مختلف بأنه يعرف كل شيء. تمتمت: لو أردتني أن أتكلم تُحل عقدة من لساني، ولو أغلقت كل الأبواب بيدك تفتحها. يا

رب، افعل بي ما لا يغضبك.. أنا طوع يديك.

وجد عبد البارئ في مُتولي الإسكندرية الحاتم بن قيزم صديقًا يحمل الكره نفسه والحقد على أحمد. فلا أحمد يدق بابه ولا يطلب رضاه. يستفزه اعتزاز الصوفيين بأنفسهم، ويستفزه أكثر المُرسي الغريب الذي يسير بين أنحاء الإسكندرية دون أن ينحني احترامًا للمُتولي. حتى من اتبع أبا العباس في البداية خاف من حضور مجلسه. بطش المُتولي عظيم، والبلاد تمر بحروب جديدة، والتتار أقسى من الصليبيين.

عرف المُتولي أنني لم أزل أختلي في الفنار، أخرج صباحًا وأتكلم مع من يريد أن يسمع، تشوش كلماتي كلمات عبد البارئ وتُغضب الفقيه تقي الدين.

خرج الرجال بالعصيان الغليظة، والأطفال بالأحجار ورائي. قال الرجال بأعلى صوت: من يتبع أبا العباس فهو هالك، يدعو إلى الكفر والبدع.

أما الأطفال فمكثوا ورائي يلقون عليّ الحجارة، وهم ينعتونني بالشتائم ويحثونني على ترك الإسكندرية. والكلمات تحتبس في أحشائي مُنتظرة الخروج، تزداد كل يوم كأمطار الإسكندرية، تتجمع كالبحيرات المرة والحلوة. أنا أحمد الذي لم يكن يومًا يحب الكلام أصبح يتوق إليه. أريد أن أشرح الطريق والتجربة والجهاد الأكبر. أريد أن أحكي عن النفس والعجز والسر والحب. أتمنى أن أتكلم عن القلوب والنوايا والحفاظ على العهد.. ضاقت الإسكندرية حتى كادت تخنق صدري. توقف التجار عن التعامل معي. ذاع صيت الشيخ عبد البارئ بعد أن صادق مُتولي الإسكندرية. ثم أصبح يده اليمنى في الإسكندرية. فهو مهيب من كل العامة والفقهاء. ابتعد الناس عن أبي العباس خوفًا وحيرة.

جاءني أخي يشكو حال التجارة التي كسدت، ويحثني على ترك مصر كلها.

ولكني كنت مكلفًا بالبقاء هنا، مأمورًا بإتيان هذا الثغر وهذا البحر.

ربما في غيبتي لم أدرك حجم المكائد ولا عددها. الفقيه تقي الدين وعبد الباري ومتولي الإسكندرية. عصبة عليّ أنا، نظموا الخطط كما ينظم الشاعر كلماته وينسقها.

اليوم أمسك غلام بحجر كبير وألقى به بكل قوته ليصيب رأسي، عرفت بعد ذلك أن عبد الباري وعده أنه لو قتل أحمد فسوف يعتني به هو وأهله طوال عمرهم، وسوف يحصل على ثواب الله. فوز عظيم في دنيا بخيلة لم تُعط الغلام سوى البؤس والقسوة. اجتمعت كل الدنيا في قبضة الطفل، وألقى حجره كأنه يلقيه على الشر الذي يحاصره. فشق جبهتي حتى سمعت دوي الضربة ترج جسدي رجًا. تحملت من قبل ضربات الحجر ولكن هذا الحجر كان أقوى من احتمالي. دارت الدنيا حولي، أمسكت بعيني كأنني أحاول أن أحفظ ضوءها. ثم سقطت على الأرض والدماء تتحرر من جسدي. لا أدري كم مر عليّ، فيبدو أنني غبت أو كدت.

ثم التفت إلى جده قائلًا: هل سيساعده أحد يا جدي؟

- لا، ألا يدعي الكرامات؟ فلتساعده الكرامات إذن. لا تلتفت لهؤلاء، حاربهم طوال عمرك.

هز الطفل رأسه بحماس وسار مع جده.

***

حملني أخي إلى بيتي، فما إن رأتني لطيفة حتى بدأت تضمد جراحي بلا كلمة. فقال أخي محمد: يا أختاه، أقنعيه أن يترك الإسكندرية، ضاقت الدنيا هنا.

فرددت: حاولت ولكنك تعرفه لا يستمع لأحد. حاول أنت.

فقال محمد وهو يتكلم مع لطيفة: سيموت عما قليل.

فتحت إحدى عيني ثم نظرت إلى زوجتي وأخي، حاولت القيام فلم أستطع، الألم يضطرم في رأسي.

قالت وهي تضع الوسادة وراء ظهري: ستكون بخير.

ابتسمت لأنها حاولت أن تبدو ثابتة أمامي، بينما أصابعها ترتعش كالسمك الرعاد.

مر كفها بتلقائية على خدي كأنها تتأكد من أنني لم أزل أنبض بالحياة ثم قالت: أحمد أبو العباس لديه أمانة سيقويه الله حتى يؤدي أمانته. نور وجمال يستكشفه داخل البشر تتذكر.

قالت جملتها الأخيرة بهمس. فابتسمت من جديد وسط الألم..

ثم قامت في نشاط مفاجئ وقالت لأخي: أجهز لك الغداء يا أخي. لا تبتئس من الفقر الإسكندرية كلها خيرات ولكننا ننتظر ونصبر. فمن يبحث يجد كما يبحث أبو العباس داخل القلوب عن المرض ويعالجه فيصبح البصر حديدًا.

ولكنها خافت، بل جوف الخوف نفسها كالحروف الفارغة ع ثم ط.. لم تنم. لو أظهرت الشجاعة فقد أعياها الضنى والأرق. بعض الأطباء تقول إن ضربة الرأس تُميت بعد يوم أو اثنين. يفرغ الدم من الجسد الهزيل في صمت وتأنٍ. كل حين تنتفض من مكانها بجانبي ثم تحيل كل جسدها إلى وجهي وتنظر إليّ في انتباه لعلني تركتها كما فعل الأب والابن من قبل. تتساءل: هل يستغرق في نومه أم يناجي الملائكة؟

الوصول الثاني

أكملت كريستينا بعض أجزاء الحكاية، قالت لي:

عند الفنار قال له أحد الحضور: يا شيخ شتاء الإسكندرية كله مطر وريح وعواصف، لا بد أن تعطي درسك في مسجد العطارين كما كنت تفعل من قبل.

لم يُجب. حزنت بعض نفسه على مؤامرات الصديق قبل العدو، وعلى اجتماع الخلق على الأذى قبل المنفعة. ولكنه ردد: وكان أمر الله قدرًا مقدورًا.

ليلًا وهو يُسبح بعد الصلاة دخل عليه بعض طلابه وقد عزموا أمرهم، يعود الشيخ أبو العباس لدروسه في العطارين يدرس في وقت مختلف عن عبد الباري، لا يمكن منع الشيخ من دخول المسجد وللناس الحرية في حضور هذا الدرس أو ذاك. فتح مسجد العطارين أبوابه لأبي العباس من جديد. لم يستطع عبد الباري أن يمنع الناس من الاستماع. الصدق يتخلل كل الصخور على ما يبدو. من ينجذب لعبد الباري غير من ينجذب لأبي العباس، ومن يتفكر في كرامات الشيوخ يجد أن أبا العباس يدعو إلى معرفة النفس والله، ويرى في اليقين أكبر الكرامات. البعض تخيفه الكلمات وتزعج اعتقاده الراسخ وطريقه السهل، والبعض يجد فيها ما يبحث عنه. ومن يحضر درس أبي العباس ولو مرة تلوح الطمأنينة حوله ولو ساعة. واستمر أبو العباس يدرس ويعلم المريدين ويتاجر في القمح مع أخيه. اختفى مُتولي الإسكندرية وجاء غيره، وكلما جاء مُتولٍ وطلب لقاء الشيخ كان يعتذر قائلًا: لا طاقة لي بالرياسة ولا أصحابها. لست ممن يُلعب به، والله إني ألقى الله، ولا يراني المتولي ولا أراه. كلماته لا تترك الأذن، يخطب في الناس: أوقات العبد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية، والطاعة والمعصية.

ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية، يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية. فمن كان وقته الطاعة، فسبيله شهود المنة من الله عليه، إذ هداه لها ووفقه للقيام بها. ومن كان وقته المعصية، فسبيله الاستغفار والتوبة. ومن كان وقته النعمة، فسبيله الشكر وهو فرح القلب بالله. ومن كان وقته البلية، فسبيله الرضا بالقضاء والصبر والرضا رد النفس عن الشهوات؛ والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهام، وكذلك الصابر ينصّب نفسه غرضًا لسهام القضاء، فإن ثبت لها فهو صابر وكان يعرف أن أوقاته لم تزل بين نعمة وبلية وطاعة ومعصية. هو جهاد مستمر وأي غبار يحجب الرؤية ويقطع الموصول. يبتعد عن الغبار قدر استطاعته ولو مر خاطر طرده. أيام الإسكندرية انتعشت بعد أن قرر السلطان بيبرس البندقداري أن يعزز الحصون، ويبني أسوارًا جديدة للمدينة، سوف يقلل الضرائب ويهتم بأهل الإسكندرية. ولكن شيخ السلطان، الشيخ الخضر كان هو الرجل المهيمن على السلطة في الديار المصرية، السلطان يطيعه بلا نقاش. والشيخ الخضر بن أبي بكر بن موسى المهراني لا يريد رجلًا في كل البلاد تبلغ محبته قلوب الناس. وللشيخ الخضر بعض الضعف أو الكثير منه. ترددت الكلمات بين الطلاب يحكون عن شيخ السلطان، وعن شغفه بحب نجمة خاتون، يقولون: جمالها يذهب العقول ويسلب الرجل علمه. انزعج أبو العباس، بدا الغضب عليه وتحكم فيه. لم يعجبه شرود الرجال وتفكيرهم في نجمة خاتون حتى قبل أن يروها، ولم يعجبه الغيبة والنميمة. نهاهم فلم ينتهوا. استغفر ربه وبدا الهم عليه، حتى قال ياقوت: سيدي هو زمن يُسلب الرجل فيه فطنته لا تغضب منهم.

- لا أغضب منهم يا بني، بل يصيبني الحزن على من يشارك فؤاده صورة ورسم، بينما هو بين يد الرحمن فقال ياقوت: ليس خطأهم هم بقدر ما هو خطأ الشيخ الخضر يا سيدي. فقيه مثله وشيخ لا بد أن يكون مثلا يُحتذى

به. عندما تزل قدم الكبير ماذا نتوقع. هي الشابة الجميلة التي تسلب الرجال علمهم، تسرق الأذهان فيتركون الصلاة والصيام بحثًا عنها. نجمة خاتون كما الساحرة تُضل الرجل وتسلبه ذاكرته.

نظر له في عتاب ثم قال: لا أحب أن تحكم على الناس، فنحن لا نعرف خاتمتهم. لا تسئ الظن بأحد قط.

قال ياقوت: معك حق يا سيدي.

جاءت الرسالة إلى الشيخ الخضر من القاهرة، نجمة خاتون تريده في قصرها. استنشق عطر الرسالة وابتسم ثم قال لحاملها: إن الشيخ الخضر لا يأتي لأحد. من أراد منه شيئا يأتي إليه بنفسه.

مر يومان وبدأ القلق يساوره. هذه ليست فقط أميرة من البيت الأيوبي، هي نجمة خاتون.. مَنْ تجذب الرجل فينسى زوجته وجاريته، ثم ينسى حربه وذاته، ثم ينسى أطرافه وجوارحه، ثم تصيبه بعينيها فيمرض حتى الموت. غاب الرسول ولم يأت الرد. بعث هو رسولًا من عنده يهدد، قال الرسول: من يُغضب الشيخ الخضر ينتهي به الأمر محطمًا كما الأصنام.

تجلت له نجمة خاتون بعد سبعة أيام، طرقت الباب ودخلت وحدها، وقفت أمامه برهة ثم خلعت خمارها، فكاد يسجد أمامها من فرط الانبهار. اجتمعت كل الأزهار على وجنتيها وكل السيوف في جفنها الناعس ورموشها الطويلة، كاد شعرها يمتد ليحيط كل قصره. حتى الشيخ الخضر لم يقو على النطق. ولكنه احتفظ بما تبقى من رمق وحياها وطلب منها الجلوس.

جلست بين يديه ثم اقتربت لتقبل يده، مسحت بيدها الناعمة على كفه الخشن فارتجف، وقال في رقة: أمرك سيدتي..

- جئتك أبغي السكينة والأمان. حُرمت منهما دهرًا.

لامس ثغرها كفه ثم نفخت في ضعف شعرة ثارت من إصبعه وتركت يده.

لا تدري كم مر قبل أن يسجد الشيخ بين يديها، وهو يكاد ينصهر بين أضلعها. غاص داخل صدرها طالبًا النجاة وتمتم: لك كل ما تريدين.. كل السكينة وكل الراحة. تستحقين وأكثر.

توغلت بأصابعها داخل شعره الأبيض ثم قالت: يقولون دوائي عندك. وها أنت تخدعني بكلماتك المعسولة.

- أعطيك حجابًا لا مثيل له. يحميك من كل شر.

- الشر بداخلي يا شيخ.

- لا أشعر سوى بالجنة بين أضلعك يا سيدتي.

- تريد أن تأخذ ما ليس لك.

ابتعدت في رفق فدفع بها إلى أحضانه مرة أخرى يبحث عن جسدها داخل ثيابها، فيمتزج ملمس الحرير ما بين جلدها وثوبها فيختلط عليه الأمر. يعتصر ذراعها فتتأوه ولكنه لا يبالي. ترفع يدها وتومئ للغلام أن يدخل، فيدخل غلام قوي يدفع بالشيخ بعيدًا عنها في حسم. قال الشيخ ونار الشهوة تدفع به فيحارب كما الفرسان: إياك أن تعبثي مع الشيخ الخضر أفقدك عقلك لو تدرين.

- أعطني ما أريد أعطيك ما تريد. جئتك أبغي السكينة.

بلع ريقه وصمت ينتظر أن تهدأ ضربات قلبه ثم قال: اطلبي من غلامك الرحيل. ليس لك سواي هنا. لو أردت النجاة ليس لك سواي.

ابتسمت ثم قالت: يقولون إن السلطان يقف أمامك كالابن الشقي أمام أبيه، يستمع وينفذ.. جئتك بطلب..

- ماذا تبغين؟

- السلطان قبض على زوجي ظلمًا. عبد الملك زوجي، طوال عمره في خدمته ولكن الواشين كثر.

قال وكأنه وجد مفتاح السعادة: أعرف وبيبرس ينوي الإفراج عنه...

قاطعته: بيبرس! كأنه أحد أصدقائك يا شيخ.. حسنًا.. سمعت أنه يريد أن يُبرئه من تهمة الخيانة.

- نعم.. تريدين عودة زوجك، هل هذا ما تريدين؟ اصرفي العبد..

اقتربت منه، ألصقت جسدها بجسده ثم قربت فاها فكاد يلتهمها بفمه. قبلة غير كل القبل، لم يذق طعم الوجد بعد. حتى هو.. لم يدرك حجم الإغواء إلا بين ثناياها.همست في أذنه وهي تقبل رقبته: عبد الملك لا بد أن يموت. لا يمكن أن يبرئه السلطان يا شيخ.

فتح فاه وتوقف عن تقبيلها فأكملت: فرج من الله وجاء لنا. تُحرض السلطان على قتله وأتزوجك، وأنت تعرف كم رجلًا في الديار المصرية يتمنى نجمة خاتون.

بقي صامتًا، فرفعت ثيابها ورأى أمامه ساقيها كالسماء في صفائها، ولكن علامات السوط لا يمكن تجاهلها، قالت في أسى: عذبني ويعذبني منذ سبع سنوات لأنني أتمنع عنه. تنقذني أكن لك زوجة.

- ولكنه..

- هو فعل هذا وأكثر. عبد الملك يستحق الموت. وأنا أستحق الخضر زوجًا.

قبل أن يمد يده ليمتلكها، تلاشت من أمامه في لحظات كما الغيمة والمطر في أرض قفر.

***

كانت نجمة خاتون فتاة صغيرة عندما قررت أمها أن تزوجها من الأمير يوسف العدوي، أحد الأمراء الأيوبيين. ضمنت الأم مقعدًا في حضرة السلاطين والأمراء، وتخلصت من طفلة لا تبعث إلا على الكُره، لا تنفذ أوامر ولا تتعلم من الكبار. وفي هذه السن أدركت حسنها وقدرها، ولكن الزوج العجوز مات في المنصورة شهيدًا، ولم تنجب له نجمة خاتون. لم ترحمها والدتها ولا تركتها تنعم بالإرث، استولت على الأموال ثم زوجتها من رجل ثانٍ، أول ما رآها خر راكعًا أمام حيلها وجمالها وبهائها، ولكنها كرهته كما لم تكره أحدًا من قبل، بصقت في وجهه عندما حاول أن يعاشرها عنوة، فضربها حتى رقدت على مخدعها شهورًا بلا حركة. لم ينل منها شيئًا حتى طلقها، وبقيت حرة لأول مرة. اتخذت الشراب صديقًا يعطيها الراحة والنشوى بلا مقابل، لا يسأل ولا يحكم. ثم كان تعرفها على الحشيش ولكنها فضلت عليه النبيذ الأندلسي. ولم تستطع التخلص من سطوة أمها حتى أعطت نفسها لأحد الأمراء طواعية، وطلبت منه أن ينفي أمها خارج البلاد، ثم تزوجته وحملت منه ولم يكتمل حملها ولم تنجب، من جديد بعد برهة كرهته، وملت عشرته هو الآخر فضربها، وأهانته وقررت التخلص منه. أملها القادم هو الملك الظاهر ركن الدين بيبرس نفسه. فلا يوجد في مصر من يستحق أن يجلس على عرش السلطنة سوى نجمة، هي نجمة في السماء، صارعها الحظ كثيرًا ولكنها تصنع القدر وتطوعه. ستصل إلى بيبرس هذا أكيد. يقولون نجمة عقيمة، يشتمون ويغلون ولا تبالي. فكم من زوجة

أنجبت العشرات ثم كان مصيرها الإهمال والخسوف. أما نجمة فجمالها من الجنة ويداها تدفئان وتعالجان كما شيوخ الطريق. ولكن زوجها يقف عائقًا للوصول إلى الملك نفسه. كان أكثرهم قسوة ودهاء. ولم تستطع التخلص منه. لا يموت ولا يفنى ولا يسافر يخنقها كما أمراض الصدر. يضربها إن خرجت ويحبسها إن تمنعت. ما دام هو موجودًا فلا طريقة للوصول إلى بيبرس. ولكنها لا تعيا الحيل. مفتاح الملك مع شيخه. وشيخه اليوم ذائب في رحيق صدرها.

***

حكى ياقوت العرش لماريو

تريد أن تعرف كيف واجه أبو العباس الشيخ الخضر؟

أقول لك يا ماريو، أخبرك عن نفسي وعن الصفعة التي لم تؤثر فيّ لأول مرة أشعر بهذا الزهو وهذه الطمأنينة لأول مرة أتمنى لو استطعت أن أنتشر حول أبي ومعلمي كالشبل حول الأسد انتفض صدري بالفخر بشهاب الدين أبي العباس أحمد المرسي، أنا الحبشي ابن المرسي. رأيت الشيخ الخضر يدخل بردائه الأبيض وعمامته الكبيرة الخضراء وحوله الحاشية بالسيوف والوالي يتراجع خطوات هيبة منه. وقف أمام أحمد المرسي وضرب بعصاه على الأرض كأنه يهش بها كل الخير ثم رأيت أمام عيني جبلًا ثابتًا اسمه أبو العباس، وجبلًا آخر يتناثر كالغبار. الصمت له هيبة ورونق لم أعرفه إلا هذه الساعة. صاح الخضر بأعلى صوته، رفع العصا مهددًا ومكث أحمد بثبات العابدين. انبثقت النيران من جوارح الخضر وتسلل الضوء من قلب أحمد. لم أتابع الحديث، تابعت قلب والدي، تواصلت به في تلقائية واندماج لم أعرفهما من قبل. كانت قريتي مسيحية في الحبشة، عشت بينهم أعوامًا أعرفهم وأحبهم. أصبح أحمد يدافع عن جيراني وأهلي وعن ميادين

الأندلس وعن مساجد تهدمت باسم الرب وكنائس تهدمت باسم الرب.
أصبح أحمد أمي وأبي وقريتي وكل المدن وكل العالم. أبو العباس
المرسي.. كالمطر ينشر الخير على البشر أجمعين.

أصبحت كلمات القسيس تحمي كل الحضون كلماته موجهة لي أنا ياقوت
ولجمال الدين، ولأحمد.. تشدد وتشجع، لا ترهب ولا ترتعب لأن ربك إلهك
معك حيثما تذهب. معك حيثما تذهب يحفظك في الطريق.. أكاد أقسم
إنني لو قُتلت حينها وصُلبت وقطعوا أطرافي من خلاف لم أكن لأبالي.

***

هرولت بهجة ابنة الشيخ إلي وقالت في فزع: كيف تتركهم يأخذون أبي
إلى السجن؟

بقيت ساكتا خجلًا وألمًا فقال أخوها جمال الدين: وما ذنب ياقوت يا
بهجة؟

قالت: لأنه كان معه. خذني إليه.

قلت وأنا أتحاشى النظر إليها، كنت قد أتممت العشرين ربما، وكانت في
الخامسة عشرة: سيدتي.. أنا سأذهب إليه مع محمد جمال الدين وأحمد.. لا
أظن المكان يناسبك..

قالت في غضب: تريد أن تمنعني من رؤية أبي. أنت تخبرني لو...

قاطعتها أمها: تعالي هنا. اتركي ياقوت هو يعرف ما يفعل.

قالت في تذمر: هو دومًا يعرف ما يفعل.

ثم دخلت حجرتها وبدأت في البكاء.

خرجت بعد ساعة أو أكثر وكنت واقفًا أتكلم مع أخيها، التفت إليها ثم أبعدت عيني عن وجهها البهي وقلت: سيدتي هل تسمحين لي بالكلام معك؟

نظرت إلى وجهي لحظة ثم قالت: طمئني على أبي.

فقلت في حسم: أعدك أن روحي فداه وأنه سيكون بخير، هو بخير، رأيته وتكلمت معه.

رفعت رأسها ونظرت إلي ثم قالت: كأنني أصدقك.

فقلت في حماس وعيناي تلتقيان بعينيها لأول مرة دونما قصد ولا نية: أبي وشيخي صدقيني.

قالت وهي تمنع رجفة خرجت أيضًا على سهوة: أنت يا ياقوت..

ثبتّ عيني على الأرض ثم قلت: أنا ماذا؟

- أحيانًا تبدو أقوى منا جميعًا كأنك لا تقلق مثلنا، لا تحسد مثلنا، لا تذنب أبدًا.

- هذا مستحيل. ذنوبي أمامي طوال الوقت.

- هذا أيضًا لا يحدث لنا. فلا نرى الذنوب ولا ندركها. هل ستأخذني إلى أبي؟

صمتّ برهة ثم قلت: أعرف أنني لو فعلت سيغضب مني ولا أريد إغضابه، ولكنني سأذهب إليه وأعود إليك أحكي لك كل شيء لو سمحت لي.

قالت في تذمر وبعض الطمأنينة: أسمح لك.. ليس لي اختيار.

قلت بلا تفكير: لو وثقت بي يا سيدتي..

فقالت مسرعة بلا تردد: أثق بك دوما.

***

حكت لي كريستينا ونحن في الطائرة..

خبر إفراج السلطان نفسه عن الشيخ أبي العباس وصل لنجمة خاتون. وقبل أن ترى أبا العباس أمرها بشجاعته. نفذ لها الخضر ما أرادت، وبقي أن تعطيه ليلة من الحب كما خبر إفراج السلطان نفسه عن الشيخ أبي العباس وصل لنجمة خاتون. وقبل أن ترى أبا العباس أمرها بشجاعته. نفذ لها الخضر ما أرادت، وبقي أن تعطيه ليلة من الحب كما وعدت، ولكنها أرادت من ينتمي إليه الخضر أرادت بيبرس نفسه. وخطتها محكمة، ستلجأ إلى السلطان لأنها وحيدة، وما إن يرى جمالها حتى تأمره كغيره. هذا كان. ولكن جاء المرسي ليغير كل خططها، أصبح هذا الشيخ الزاهد نزيل الإسكندرية هو شغلها الشاغل، يقولون إنه يملك البهاء والجلال، لم يزل جميل الوجه شديد البنية كل من رآه قال إن النور يشع من روحه، فلا يوجد أجمل من المرسي في كل مصر رجل. وقد احتاجت كل حياتها إلى رجل ربما لا يروقها، من يدري؟ وكيف لها أن تعرف لو لم تجرب. هرولت إلى الإسكندرية بحاشيتها واخترقت مسجد العطارين بلا تردد، نظرت إليه من وراء ستار وتناثرت رقائق القلب حول عينيه الثاقبتين ونظرته الهادئة ووجهه الجميل.

راقبته بعينيها، خفق القلب من بهائه وجماله. لم يتعد الخمسين، عيناه تضيئان بصفاء القناديل المجلوة بعناية. كيف تصل إليه؟ هذا ليس الشيخ الخضر أدركت هذا بفطنتها، لن يسجد أمام صدرها. لا بد من خطة محكمة. ولا بد أن يأتي إليها أبو العباس بنفسه. ولم تذهب هي إليه، لو كان هناك طريقة ليأتي هو إليها؟ بدأت في الاقتراب من تلاميذه، تسلب من الواحد

بعد الآخر علمه. تضل بعينيها وجسدها فيلهث الرجل وراءها طالبًا اللذة والجاه، فهي تملك الاثنين. يتوقف عن حضور دروس الشيخ، وإذا حضر يحضر وخاطره معها هي فيُسلب العلم والمعرفة.

همس ياقوت في أذن أبي العباس بعد حين وقد أدرك ما يحدث: سيدي..

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

كان يعرف ماذا سيقول. قال ياقوت: تسلب الرجل عقله كما الساحرة. كأنهم لا ساروا في الطريق ولا تكلموا بالحقائق.

يصيب الرمد أعينهم فلا ضوء يخترقها، ويصيب السقم أجسادهم فينكرون طعم الماء.

أطرق برهة ثم قال: هي نجمة خاتون.

قال ياقوت: لو تكلمت معها. ربما تهديها إلى الطريق المستقيم.

لم ينطق..

فقال ياقوت في حماس: أبي هذا ابتلاء غير كل ابتلاء.

ردد: لا إله إلا الله.

فقال ياقوت في رفق: هل ستقابلها يا شيخ؟

- هي ستسعى إلى مقابلتي. هذا ما تبغي.. يفعل الله ما يريد

***

لم يأت إليها أبو العباس راجيًا. ولم يتبق لها إلا الذهاب إليه بنفسها..

اخترقت مجلسه في مسجد العطارين.

قالت في صوت قوي والشيخ أبو العباس يلقي درسه والطلاب حوله: أنا لا أحبه ولم أر منه سوى القسوة والظلم. كل أيامي عسعسة ليل لا ينقضي.

نظرت إليه وخفق القلب، تجلى جماله أكثر عندما اقتربت، عمامته البيضاء تنسجم مع لحيته الطويلة وكأنه جاء من الجنة. أغمضت عينيها لحظة ثم فتحتهما.

قال في هدوء وهو لا ينظر إليها: هل تكلمت معه في هذا الشأن؟

جفلت قائلة : معذرة!

- أسألك لو تكلمت معه. كيف تكرهين دون فهم واستفسار؟

- قلت له ما بداخلي: نعم.

- وماذا كان رده؟

- هو لا يجيب، هو غائب لا وجود له. لو كان موجودًا لما ترك الدنيا بكل هؤلاء الوحوش.

- ولو لم يكن له وجود فلِمَ تلومينه كما يلوم الولد أمه على تأخر إطعامه، وكأنه يتوقع عنايتها ويألف رعايتها. كأنك تتوقعين منه شيئًا يا ابنتي.

- أين كراماتك يا شيخ؟ هيا أخبره بمشاعري واطلب منه أن يجيبني.

- أنا عبد فقير غريب مثلك. هو يستمع إليك دون وسيط، رحمته أوسع من رحمتي. لا أنا أعرف سر القدر ولا عقلي يصل إلى الغيب.

جلست وعيناها لا تفارقان عينيه ولكنه أدار عينيه، فقالت ساخرة: ماذا تريد في المقابل؟ هل تريد أن تعرف ما أعطيته للشيخ الخضر؟ كلكم

سواء. بيدكم السحر لا أكثر تعشقون الجسد وتدعون أن أرواحكم طاهرة. هو لا وجود له.

بقي صامتًا، فقالت في فزع: تكلم.. أخبرني ماذا تعرف عن الشيخ الخضر؟ هل أخبرك بنظراته أم لمساته؟ هل تريد أن...

مكث صامتًا يستغفر هاج المجلس وماج وهو لا ينطق. قالت في صوت مخضب بالدماء: أكرهه. ربك الذي يعطي سره لشيخ مثل الخضر قاس يا قرمي!

انتفض المجلس وهم الرجال بطردها ولكنه أشار إليهم بالرجوع، ثم قال: غضبك يدل على عشمك به. هو صبور على العباد، حليم يا ابنتي. افتحي أذنيك متسمعين.

- كل إرادته ألم وخراب.

- لو رأيت إرادته خيرًا يزول الألم.

- أتريد أن تعرف من أكون؟ أميرة وجميلة وكل من حولي اخترق قلبي فحطمه، وانتهك جسدي ففتحه. أنا لست أنا، لا حب بداخلي. لا أعرفه.

- ولم تتركين مفتاح القفل في يد غيره؟ أغلقي قلبك وجسدك عمن سواه تسلمي.

قامت وصاحت وهي تتوق إلى ضربات الرجال في المسجد، تتمنى من يثبت كلماتها: أبو العباس يقول إني لو تكلمت معه يزول الألم.. ولو جعلت الشيخ الخضر يتكلم معه نيابة عني .. يغوص داخل صدري كما البرغوث!

ضحكت بعصبية كأنها فقدت عقلها فقام أحد الرجال ليطردها، فقال أبو العباس في رفق: الألم مصاحب للقيد، والقيد جزء من الدنيا، حاولي التحرر

بالتسليم، ثم القيام معه بعد ذلك.

- أنت لا تغضب أبدًا؟

قال: ولكم غضبت وطلبت مغفرته، لا حدود لعطائه، ولا خيال لنا يدرك قدر حلمه وصبره. الحرص والشح من صفات النفس.

- لا أعرف الرحمة لأطلبها.

- تطلبينها من ميت عاجز. اطلبيها ممن يملكها كلها، ويفيض بها على الجموع كما رياح الغور.

صمتت ثم تراجعت إلى الوراء وخرجت. ولكنها أتت إلى مجلسه مرة أخرى بعد يومين. قالت في تحدٍّ: تكلمت معه ولم يجب. ليس له وجود.

صمت برهة ثم قال: لِمَ تكلمت معه إذن؟

- لأنك طلبت مني هذا.

- ولِمَ تطيعين رجلًا لا تعرفينه؟

- ماذا تقول؟ من أنت؟

- عبد عاجز فقير أتيت أنت إليه. تسألين ما لا يعلم.

- دلني على الطريق ولك ما تريد.

- من يدلك على الطريق ويطلب الدنيا فهو يقودك إلى الوهم.

- ماذا تطلب؟

- ليس لنا حول ولا قوة وليس للنفس الناقصة أن تحكم على من ليس كمثله شيء.

- ما زلت أكرهه.

- ما دمت تشعرين به فهذا أول الطريق.

- وبخني أو ضمني إليك.. افعل شيئا أعرفه.

- ما تعرفينه ليس له وجود، كلماتي للفناء وكل الأشياء خيال وصور تحجب الموجود عنك. الصبر على الألم يمكن النفس ويقويها. ثم يأتي اليقين ومع اليقين لا حزن أبدًا.

- لا أفهمك ولكني أتشبث بك كالغريق.

- تشبثي بمن ينقذ الغريق بلا طلب. افتحي أذنيك لتسمعي صوته.

- وهل تسمعه أنت وتراه؟

- قالتها السيدة العارفة بالله: لو لم أكن أراه لما عبدته. أراه بيقين.

- أحسدك يا شيخ.

- خلقك من أجله فلا تتشبثي بغيره.

حملقت فيه وقلبها ينتفض بين أضلعها. أغمضت عينيها وهي تراه بين ذارعيها هي فقط. أبو الصامت لها شاء أم أبى.

بقدر نفورها من الرجال بقدر شهوتها إليه، وبقدر راحتها عندما يسجدون بين كفيها بقدر رغبتها في المكوث بين يديه ساعات.

سارت وراءه بخفة حتى لا يشعر بها، تأملته وكأنها تتمنى نفحة من كنز روحه النقية. جلس على الشاطئ وأغمض عينيه وكأن رموشه تدغدغ الأطراف، ولحيته الطويلة تمحو كل جراحها. شعرت بارتجافة رموشه وهو يستغفر ويسبح.. طوال عمرها لم يسيطر عليها رجل. حتى جاء أحمد..

الشيخ الزاهد.

فليذهب كل المال إلى الجحيم والرياسة وحتى السلطان. فنيت في عشقه وتاهت. يقولون العشق ضلال حتى عشق يعقوب ليوسف رآه أبناؤه ضلالًا لأنه يرمي بكل الجوارح للتيه، ولا يبقى سوى فؤاد مغرم متسعر.

قالت في رجاء: لقد توسلت إليك ألا تتخلى عني.

التفت إليها فجأة فتسمرت مكانها ثم قال في صوته الهادئ: أسفي على من يتمسك بالصور ولا يشاهد رب الصور. وأسفي كل الأسف لمن لا يترك الزمام لنفسه لتتذوق الحنان من الحق فيفرغ كل همها. لو فتحت عينيك إليه تدركين. الرضا من داخل ميادين النفس، والاكتفاء ليس بالعلائق ولن يكون. كل ما تبحثين عنه بداخلك، الراحة هناك ولكنك تتوهين في شبر ونصف هو البطن أو النفس أو الجسد قالت بلا مقدمات: أحبك. بل أعشقك. اجعلني جارية تحت قدميك. لو أنقذتني من مصير مظلم، من شك وكفن تكون قد أخذت في ثوانٍ لا أطلب منك إلا ما حلله الله.

توقعت أن يثور أو يتركها، ربما يفكر في الأمر؟ لا تدري، ولكنه صمت برهة ثم قال: ما الذي ترومين إليه؟

- السكينة. الأمان.. خلوة مع رجل أريده، لا رجل يعاملني كالخرقة الباهتة. لا تعرف كيف قاسيت طوال عمري.. يا أحمد.. حتى اسمك بين شفتي يشعرني بالراحة.

- هل جربت الخلوة معه هو؟ جربي ثم تعالي واحكي لي. لا جود يأتي من فقير ولا راحة إلا بمشاهدته. يظن البشر ويتوهمون أن السعادة والطمأنينة تأتي من أشياء حولنا وهي نفحة من قوته لا أكثر لو سلبك كل شيء عالق في الدنيا واستقر هو في قلبك فقد اجتباك.

- لا أشعر به. أشعر بك أنت فقط.

- لأنك تحصرين كل خيالك في الحروف ولا تدركين من يكتبها. أحبي الأصل لا الفرع..

- ظننتك ستتركني أو توبخني. ظننت.. ربما بداخلك تريدني كما أريدك.. هذا شرع الله. تزوجني. أعرف أنك تريد إنقاذي وتستطيع. ثم تعلمني بعد زواجنا كل شيء. لو قالوا لك نجمة ستكون جارية تحت قدميك.. لو قلت لك إنك لو رفضتني فسأعود لمجوني وشرودي وحيرتي. أنت الأمل لي..

- أقول لك افتحي صدرك لتستقبلي حُبّه فتقولين لي أنت وتستطيع. ثم تعلمني بعد زواجنا كل شيء. لو قالوا لك نجمة ستكون جارية تحت قدميك.. لو قلت لك إنك لو رفضتني فسأعود لمجوني وشرودي وحيرتي. أنت الأمل لي..

- أقول لك افتحي صدرك لتستقبلي حُبّه فتقولين لي أنت الأمل! لا حول ولا قوة إلا بالله.

رددها مرات ثم قام وسار في بطء بعيدًا فصاحت ودموعها تنهمر: وأنا أقول إني أحبك يا زاهد يا وليّ. في دينك للحب قُدسية، هكذا تقول...

تمتم: وما الكون إلا محب ومحبوب، هو محبوب واحد لا غيره. سأدعو لك بالهداية يا ابنتي في كل صلاة.

نظر إلى الرمال فحدقت إلى لحيته الطويلة التي اختلط بها الأبيض والأسود ومدت يدها تتمنى أن تلمسها ولم تفعل، فقال: لا تدرك الأبصار الهواء لكونها سابحة فيه، فمن كان في قبضته شيء فإنه لا يدرك ذلك الشيء عقلنا محدود وهو بلا حدود.

- ألن تتهمني بالكفر؟

- لا أجرؤ، ربما تكون نهايتك أفضل من نهايتي. من يدرك حدوده يفز بالرضا.

أغمضت عينيها لحظة تتصوره بين ذراعيها ثم نظرت حولها فلم تره.

***

ذهب الشيخ الخضر إلى قصر نجمة خاتون في القاهرة فلم يجدها، قالوا: سافرت إلى الإسكندرية تحضر مجلس الشيوخ. عبس وجهه وتوجه إلى حيث استأجرت بناية في غرب الإسكندرية، حاول مقابلتها فرفضت، فبعث من يهددها. قال إنه بر بقسمه وهي لم تبر بقسمها فبعثت تقول له إنها لا تخافه ولا تعرفه ثم هرولت إلى لطيفة زوجة الشيخ أبي العباس تبكي وترتجف وتطلب منها أن تبقيها في البرج في الدور السفلي مع كل المساكين الذين تعطف عليهم لطيفة من النساء وتحميها من سخط الخضر. استأجر أبو العباس منذ زمن بيتًا داخل قلعة قديمة، الإسكندرية ممتلئة بقصور القدماء وقلاعهم، يُبعث التاريخ ويحضر واقفًا مع كل حجر لم يزل يحمي ويتخذه البعض بيتًا. في البرج بيوت متعددة. استأجر هو أحدها، ثم استأجر آخر أسفل البرج لكل من يأتي ليزوره أو يحتاج إلى حماية أو ملاذ. الطعام دومًا موفور والبيت مفتوح حتى أوقات الضيق والفقر. كيف ستستغني نجمة خاتون عن قصرها لتعيش مع المساكين في أسفل البرج؟! لا أحد يفهم. تدعي أنها تخاف القتل على يد الخضر. وسط ذهول لطيفة وافقت، بل ذهبت بنفسها لتنظف لها حجرتها، منذ وقعت عيناها عليها وهي تشفق على حيرتها ويأسها. فدخلت نجمة خاتون البرج حيث القرب من أبي العباس، دخلت مع جاريتها وتقربت من لطيفة حتى تسللت للبيت العلوي، كل يوم تساعد لطيفة أو تحكي لها والدموع تتساقط من عينيها ولطيفة

تصبر وتسمع وتشفق. وطلبت مساعدتها وشرحت لها ما كان في الماضي وأنها تابت، اليوم تصلي معها وتمتنع عن الخمر والحشيش وكل ما يغضب الله. اليوم تتخفى لا حاولت رؤية أبي العباس ولا سألت عنه، ولكنها تقلد لطيفة وتتعلم منها. تحضر مجالس العلم وتستمع إلى القرآن.

لكل رجل مفتاح ولو كان مفتاحه زوجته فلا بأس، تصادقها وتتحبب إليها. تبدو صادقة ونقية تساعدها بإخلاص وتستمع إليها في إذعان ولا ترتاب ولا تتساءل.

***

أصبحت تستطيع أن تتسلل إلى البيت العلوي، تنظر من خلف باب أو من زاوية نافذة، تراه مع أولاده وزوجته لم تعد تطيق مرور يوم دون النظر إليه كل هذا الحنو على زوجته وأولاده، لكم تحسدهم! فليعطها نبسة أو نفحة، أي شيء لتشارك زوجته ألطاف روحه الطاهرة.

ترى نجمة خاتون ما لا تلتفت إليه من خلف حجاب، وتحدق إلى يده التي تحيط بكتف زوجته وهو يحييها وعيناها تلمعان كأنهما غُسلتا بماء معين عندما تلتقي بعينيه. تذكرت زوجها هي وهو يدفع بها إلى البئر يمزق الجسد والروح. لِمَ يعطي الله كل هذا الحب للطيفة ويحرمها هي؟ وكيف للطيفة ألا تريد أن تشارك غيرها في هذا العطاء؟ لِمَ تبخل به؟

تلاحظ أدق التفاصيل، يده وهي تزيح الغبار عن خد زوجته، عينيه وهما تتساءلان عن صحتها، ابتسامته وهي تمسك بيده كأنها تصل ما كان موصولًا منذ زمن بعيد.

أغمضت عينيها ألمًا ثم تقهقرت داخل حجرتها. للغم رائحة تصل إلى حدود الغرب. بعد برهة دقت لطيفة باب حجرتها فارتدت خمارها كأنها قامت من

الصلاة للتو، ثم وضعت بعض المياه على عينيها وفتحت الباب وقالت: سيدتي..

- جئت أطمئن عليك. كأنني شعرت بك في بيتنا. هل تحتاجين إلى أي شيء؟ أي مساعدة في القراءة؟ هل كنت تبكين؟

قالت في صوت وهن: كنت أصلي وأشكو له. باعتني أمي كما البغال وليتها اعتنت بي كما يعتني ابنك ياقوت بالحيوانات.. هو ليس ابنك أليس كذلك؟ ولكنك ترعينه.. هل يمكن أن تشملني رعايتك؟ لم أذق طعم الحنان إلا على يديك.

ربتت على كتفها ثم قالت: اصبري يا ابنتي. سيعوضك الله بخير من زوجك إن شاء الله.

قالت نجمة وهي تنظر إليها: فلتدعي لي أن أتزوج زوجًا مثل زوجك.

بلعت لطيفة ريقها في تردد ثم قالت: أدعو الله أن يرزقك الخير.

تمتمت نجمة خاتون لنفسها: تقولين هذا لأن زوجك يفيض بالعطاء. كاذبة! تقولين هذا وأنت مكتفية موصولة.

- بم تفكرين؟

- يا سيدتي.. بل سأقول: يا أمي.. مع أنني أكبر من بهجة. يا أمي أحتاج إلى حنانك.

مدت ذراعيها فعانقتها لطيفة في شفقة ثم قالت: أنت هنا في أمان.

قالت فجأة: تُرى هل حدث بينك وبين الشيخ أي خلاف طوال عمركما؟

قالت متجاهلة الكلام عن زوجها: أخبريني كيف أساعدك في التعلم؟

- أعني.. هو دائمًا يحنو عليك؟ لِمَ يحرمني الله من الولد والزوج؟

- حرمانه عطاء خفي.

- ولكنه أعطاك أنت الاثنين.

تجهم وجهها وابتعدت قليلًا والصدر يظلم كأن غمامة ترابية ترمو عليه ثم قالت في صبن: أحيانًا عزة النفس والكبر يجعلاننا نظن أننا نستحق هذا وذاك ولكننا كلنا نحتاج إلى رحمته وكفى. خفوت النفس يؤدي إلى فتح الأبواب.

- معذرة يا أمي.. أحبك يا سيدتي، أقسم لك ولا أحسدك ولكنني أصدق معك.

قالت وهي تبتسم: لا تشغلي بالك بما أعطى غيرك ولكن بما أعطاك أنت.

- لا شيء.

- ولكنني أرى الكثير.

- تشفقين علي لا أكثر.

- لم يزل قلبك يحتاج إلى مفتاح وحب.

- يحتاج إلى حب.

حينها قامت لطيفة من عندها وقلبها مقبوض. استغفرت ربها وعادت إلى حجرتها. لأول مرة تدخل القلب ريبة.

***

أصبحت نجمة خاتون تنتظم في حضور دروس الشيخ أبي العباس، وتنتظم في الصلاة وقراءة القرآن مع زوجته. ولكنها كانت تنظر إليه من

وراء الستار وقد أمسك بشغاف القلب كأنها لعنة حلت بها، فأصبحت أميرة بين عينيه، لا تريد سواه في هذا العالم لو أراد المال فلديها الكثير ولو أراد الجمال فقد أوتيت منه أحمالًا، ولو أراد العشق فهي تعشقه عشقًا يستعصي على الشعراء، ولكنها تدرك أنه لا يريد من هذا قوته وجلاله هما ما يقفان حائلًا دون وصولها إليه الوصول إليه عن طريق الله، فلتدع الله حتى ولو كانت غاضبة منه، أو فلتشترط على الشيخ أن يتزوجها لتهتدي ألا ينقذ البشر من الشرور؟ فلينقذها من شر نفسها فلم تعد تستطيع أن تنقذ نفسها.

هاج الشيخ الخضر وماج، دخل عليها في البرج وهددها فوقف له أبناء الشيخ في عدم حضوره. لم يستطع أن يعتدي عليهم هذه المرة. ولكنه أنذرهم بالبؤس القادم فنجمة خاتون له.

غاصت في حضن لطيفة وهي تبكي وترتعد قائلة: سيقتلني ويعذبني لو أخذني أتوسل إليك أن تحميني.

فقالت لطيفة في قوة: سأفعل. لا تخافي.

***

جلست القرفصاء على الأرض أمام لطيفة ثم قالت: سيدتي اسمحي لي أن أحكي لك عن نفسي.

ابتسمت لطيفة في عدم ارتياح وقلبها منقبض والسهم نافذ، ثم قالت: احكي لي وأنت هنا بجانبي لا تجلسي على الأرض أمامي يا أميرة.

قالت: مقامك عالٍ يا بنة العارف بالله سيدي الشاذلي، وأنا من أكون؟ ضالة في دنيا كلها فجور. هل تسمحين لي أن أقبل يدك لأتبرك بك؟

أمسكت بيدها فنزعتها لطيفة مسرعة ثم تركت مقعدها وجلست على

الأرض بجانب نجمة خاتون وقالت: احكي لي.

ترقرقت الدموع في عين نجمة خاتون، حكت منذ البداية، كيف حرمتها الأيام من الحنان والحب وكيف قست الأم ثم استباحها الزوج وكيف غدر بها القدر. حكت وحكت ثم توقفت وقالت في خجل وهي تحني رأسها لتقبل يد لطيفة: أخطأت، أذنبت كثيرًا ولكنني أريدك أن تساعديني على التوبة، أنت الوحيدة القادرة على هذا. سأتوقف عن شرب الخمر وسأصلي كما علمتني، وسأتبع كل أوامرك. أنت سيدتي مقامك عندي عالٍ. اعتبريني خادمتك هنا... ولكن أبقيني بجانبك.

لم تجب لطيفة وقبضة الصدر تتوغل.

- أنا نجمة خاتون أريد البوح لك أنني أعشق وليس للعشق دواء يا سيدتي. أنت تعرفين. يقذفه الله في القلب بلا إنذار. أعشق أبا العباس أحمد القرمي زوجك.

تحول الانقباض إلى ماء بارد يجمد العروق، ولم تنطق. التقت أعينهما، دارت بعينيها على وجه نجمة الساطع وجسدها المتناسق وجمالها الخارق، رأت فتاة تصغرها بخمسة عشرعامًا تتأجج بالحياة.

أمسكت نجمة خاتون بيدها ثم قالت: لو تركتني في بيتك جارية لك لا أكثر. لو تركتني في بيتك أتعلم منك وأقضي معه يومًا كل عام، يومًا واحدًا كزوجة له.. تكونين قد أنقذت نفسًا من الفناء.

- تريدين الزواج من زوجي؟

- أتمزق شوقًا إليه كأن الدنيا ليس بها إلا أحمد.

- أحمد؟

- أقصد أبا العباس الشيخ العالم. ما أريد أن أطلبه منك هو أن تعطيني صدقة لأنك كريمة، ليلة كل عام معه كزوجة لا أكثر وأخدمك طوال العام وتعلميني وتربيني. لو لم أتزوجه كيف أحمي نفسي من الشيخ الخضر؟ سيأخذني هذا أكيد، وحينها سيقضي علي. أنت تنقذين روحا يا سيدتي.

لم تُجب.

فقالت نجمة: أتكلم معك كامرأة تحب وأعرف أنك تفهمين.

قالت في بطء: أفهم.. نعم لأني أحبه وعشت معه خمسة وعشرين عامًا أو يزيد. ومن تحب يا أميرة الأميرات لا تشارك امرأة رجلها. لا تستطيع.

قالت نجمة خاتون ودموعها تنهال على خدها: ستتركينني للدمار. لن تتصدقي.

- الصدقة ليست بالروح.

- تعرفين أن لا حيلة لي في حبه. لا أطلب منك سوى يوم كل حين أقضيه معه، أريد أن أراه حولي حتى دون أن ألمسه.

لو كان للغضب والنيران أن تندلع لصفعت نجمة خاتون من أجل وقاحتها، ولكنه ابتلاء وعليها الصبر والحلم، رددت الاستغفار ثم قالت في هدوء: وجودك هنا يا ابنتي لا يجوز. اذهبي إلى بيتك، لو كنت تخافين من الخضر فلا بد أن هناك مخرجًا آخر.

قامت ثم قالت: تطردينني يا بنة الشيخ؟ يقولون عنك: إنك ورثت رحمة

والدك. لو خرجت من بيتك يقتلني الخضر.

قالت لطيفة مسرعة: من أنا لأطردك. ابقي يا ابنتي كما تشائين.. ولكن الشيطان دخل نفسك وسوف يؤذيك أنت.

قالت وهي ترفع يديها: أنت تنتصرين، بالطبع تنتصرين هل يستطيع تركك لو خيرته؟ لا لن يفعل أنت ابنة شيخه وأم أولاده ولكن هل فكرت يا سيدتي في قلبه؟ هل ساورك شك أنه يريدني كما أريده لأنه رجل وليس ملاكًا؟ هل فكرت في أن قلبه ربما مال إلي كما ملت إليه؟ ربما لم تشكِّي، ولكنني أريد منك بل أرجوك أن تفكري فيه هو.. تلاحظيه. لو شعرت أنه يريدني، يحبني كما أحبه ماذا ستفعلين؟

قالت وخداها يشتعلان: الشيخ أبو العباس ليس مجالًا لهذا الحديث.

- أقسم لك يا سيدتي أنه يحبني.

- كفاك ذنوبًا أشفق عليك من إثم هذا القسم.

فقالت نجمة وهي تضغط على شفتيها وتقوم لترك الحجرة: أنت القوية وأنا الضعيفة. أنت المنتصرة وأنا المهزومة. أنت لديك كل شيء كل شيء.. وأنا أمامك لا أملك أي شيء.

ثم تركت الحجرة، ولم تترك البيت.

***

قامت لطيفة من مكانها في بطء، تسلل الوسواس أو كاد. كان خوفًا من نفسها أكثر من أي شيء. نظرت إلى نفسها لأول مرة منذ أعوام. لم تكن تهتم بجمالها على قدر اهتمامها بالتعلم والخيل والرمح. أمسكت بخصلات شعرها البيضاء بين أصابعها، انقبض القلب مثل قطرة ماء واحدة. تسرب

حزن مختلف ينبع منها هي وليس من أي شيء حولها. تارة تجد في نجمة خاتون شيطانًا يريد الدمار وتارة تشفق على حيرتها ووهمها، ولكن بعض الكلمات كنار الغضا تبقى حتى ولو غرقت كل النفس في طوفان نوح ذكرت نفسها أن الخوف نابع منها وليس لشيء حدث، وأن الارتباك من مرور الزمن وخصلات الشعر البيضاء إحساس يأتي لمن لم يدرك أنها بضعة أيام تقل كل ساعة ولا تزيد أحمد لم يزل بجمال الماضي. مستقيم الظهر شديد البنية، عزيز الروح كان لا بد أن تضع الحناء على شعرها ولكنها لم تهتم كان لا بد أن تتزين أكثر وتلبس أفضل ولكنها لم تهتم هل أخطأت؟ لم يطلب منها أي شيء ولم تكترث بالمظهر بعمر الجبال ويبدو هو بقوة الفرس الحر. نفضت يديها كأنها تطرد الوسواس وذهبت تصلي وخاطر الحزن كما أوجاع الكلى، يهدأ ثم لا يلبث أن يضرب بكل قوته. ينبض في بطء فيصيب الأحشاء ثم يشق الحشا في غلظة.

ليلًا شعر بها قال: لطيفة لم لا تصلين معي؟

مسحت دمعة خرجت من القلب ثم قالت: كنت سأقوم ولكن الجسد متعب.

- روحك دومًا أقوى من كل الأرواح.

أمسك بيدها، احتضنت يده برهة ثم تمتمت: يفعل الله ما يشاء. أنت أحمد حبيب العمر والشباب، هذا لن يتغير مهما حدث. القلب سيصفح ويفتح أبوابه لك..

صمت برهة ثم قال ووجهه عابس: أراك تتعذبين، ليس مع الله من يخاف يا بنة شيخي.

- تذكرني أم تذكر نفسك؟

- أنا لا أنسى يا زينب ويا لطيفة.

أطرق ثم سَبح ولم ينطق.

لامت اللسان على الكلمات وخشيت أن يكون قد غضب منها أو أساء فهمها لم تقو على إغضابه طوال تلك السنوات، فقد كاد الندى يتيمم بين راحتيه، وكلما مر العمر أدركت حجم البركة التي تحل بها وهي معه ولكن الكُره تغلغل وكاد يستقر. هالتها الكلمات كأن البنت تدق الباب وتقول: هل يمكن أن أسرق قلبك بضع يوم؟ أو أنفاسك ساعة ثم أعيدها إليك؟

لا تدري لو كان لا بد أن تتكلم معها أكثر توضح لها جرم الكلمات أم لا. انعقد لسانها من المفاجأة، ولم تعد تعرف ما الواجب عليها، هل تصر على طردها من البناية؟ أم تحاول جهاد النفس والشفقة أمام بنت لم تصل ولم تهدأ.

قالت: لم أر في جمالها ولا شغفها ولا يأسها وحزنها.

لم يُجب. استمر في التسبيح.

بلعت ريقها وقالت وهي تخاف من الإجابة: أكرمتني طوال عمرك.

- بل أكرمك الله على يد عبده. نصلي الفجر ثم نتكلم.

- أخاف أن أواجه الله وقد شغلني شاغل عنه. كل نساء الإسكندرية من كل طائفة ومذهب تتمنى زوجًا مثل أحمد.

- واجهيه في كل أحوالك. هو يعرف.

صلت وراءه ودموعها تخنق الحلق، بعد الانتهاء من الصلاة طوق كتفيها بذراعيه فسكن رأسها على صدره. مر بيده على شعرها برهة ثم قال: هل

تعلمت من والدك قراءة القلوب؟

- أنا لست والدي. يخطر الخوف على بالي وتدخل الوساوس نفسي وتخترقها اختراقًا.

- يقول الشيخ: ما دام خطر الخوف ولم يسكن فلا بأس.

لثمت صدره في بطء.. فقال: أحبك.. منذ وقعت عيناي عليك.

- دوام الحال من المحال.

همس كأنه يقرأ قلبها: لا شيء يدعو للخوف.

قالت بلا تفكير: مر العمر يا أحمد.. هل تفضل أن أخضب شعري بالحناء؟

خجلت من سؤالها التافه ولكنه ابتسم ثم قال: أفضّل أن تبقي بين ذراعي.

قالت وكأنها لا تفهم: سأتزين أكثر وأخضب شعري بالحناء و..

قاطعها: لا تفعلي.. اهدئي.. الفزع لا داعي له. أنت جميلة اليوم وأمس وطوال الدهر.

ضغط بذراعيه على رأسها لتغوص داخل صدره. مكثت حتى استقرت بين يديه وسكنت ثم غفت فلم يتحرك حتى استغرقت في نومها، حملها إلى مخدعهما ووضعها في حرص وقبل جبينها. سمع آهات، أضغاث أحلام، ضمها بشدة حتى تأوهت، ثم قبل زاوية شفتيها فنطقت اسمه، انصهر جسدها داخل جسده. تلألأت نشوتها الممتزجة بخوف لا يخمد. ضمته إلى صدرها برهة. ثم قبل خدها وقام ليغتسل وخرج لخلوته.

***

أضرمت النيران في أحشائها، نجمة خاتون، كانت تعرف أنه مع زوجته

يضمها كما كانت تتمنى هي. يطمئنها بينما هي تشتاق وتحتار. يا أحمد..
عضت على شفتيها وتسللت إلى البيت لئلا تستنشق نفحاته ربما، ثم
تمتمت: يا رب اجعله لي. سأنتظم في الصلاة، وسأمتنع عن كل ما يغضبك.
أدعوك لأول مرة.

غطت وجهها ولم تنم. قالت جاريتها: سيدتي، لم أرك بهذا العذاب طوال
عمرك.

- كأن عذابي بدأ ولن ينتهي.

***

ارتدت نجمة خاتون رداءها الأحمر الحرير تركت شعرها يتدلى على كتفها،
وضعت الخنجر في سروالها. فليعرف أحمد، فليفهم أنه هو النجاة. أليس
من أحيا نفسًا فكأنما أحيا الناس جميعًا؟ فليُحي نفسها. فليساعدها على
معرفة من تكون. لكم سجد الرجال أمامها، ولكم أغرقوا جسدها بالقبلات
ولم تشعر بهم كلهم. ثم جاء رجلٌ أعلم بأحوال السماء عن أحوال الأرض،
فغمرها كما مياه زمزم المباركة. فكادت تجن به، بل فقدت عقلها حتمًا.
بدون أحمد لن تصل إلى السعادة، ولا إلى الله، ولا إلى نفسها ولكن ما
يؤرقها هو هذه الرغبة المتأججة فيه هو فقط، في أن تصبح له تطيع كل
أوامره، تخدمه بقية عمرها فليتركها تُبجّل جَسده فربما يُطهر روحها من
يدري يستحقها هي، يستحق أجمل نساء الكون. وسوف تغني ستصلي
وتصوم، ستقوم بالفرض والنوافل، ستعطي ما تبقى من أموالها للفقراء،
ستفعل كل ما يطلبه. أليس من واجبه أن ينقذ حياة إنسان؟ في يده أن
ينقذها أو يتركها تموت سُدى. فقد أقسمت أن تقتل نفسها أمامه اليوم.
وضعت الخنجر على طرف معصمها وضغطت فانبجقت الدماء مسرعة. هي
لا تمزح، ستذبح نفسها أمامه كالقربان حتى يعرف أنه تسبب في الإلقاء بها

إلى الجحيم. يا أحمد.. ألا تعرف ما هو العشق؟ ألم تشتق حتى تمزقت أحشاؤك! كيف تكون قريبًا مني ولا أستطيع حتى أن أضمك إلي؟! سأركع بين يديك وأطلب المغفرة.. يا أحمد.. لكم تصورتك في خيالي تستقبل قبلاتي المتلهفة. لا زوجتك تحبك كما أحبك ولا أولادك ولا مريدوك. لا أحد يملك هذا الشغف ولا هذا التوق.

اقتربت من الباب. تنفست نفسًا طويلًا ثم وضعت يدها عليه لتدفع به. فتحته في بطء وشفتاها ترتعشان وعيناها مسبلتان.

أغمضت عينيها ثم فتحتهما، فقد هالها ظلام الغرفة، بحثت عنه بمقلتيها، كان جالسًا في أحد الأركان وخلفه شمعة واحدة، يجلس على ركبتيه كأنه وسط صلاة. لم تتأكد إذا كان يصلي أم لا.. ولكنها سمعت صوته مع أنه كان يهمس.. في الظلام يسطع كل صوت وابتهال.

كان يقول:

يا رحمن يا رحيم، يا من هو هو هو يا هو، أسألك بعظمتك التي ملأت أركان عرشك، وبقدرتك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، وبعلمك المحيط بكل شيء، وبإرادتك التي لا ينازعها شيء، وبسمعك وبصرك القريبين من كل شيء، يا من هو أقرب إلي من كل شيء، قد قل حيائي وعظم افترائي، وبعد منائي، واقترب شقائي، وأنت البصير بمحنتي وحيرتي، وشهوتي وسوءتي، تعلم ضلالتي وعمايتي وفاقتي، وما قبح من صفاتي، آمنت بك وبأسمائك وصفاتك وبمحمد رسولك. فمن ذا الذي يرحمني غيرك! ومن ذا الذي يسعدني سواك! فارحمني، وأرني سبيل الرشد، واهدني إليه سبيلًا، وأرني سبيل الغي، وجنبني إياه سبيلًا، واصحبني منك بالحق والنور، والحكم والفصل والبيان، واحرسني بنورك.

وضعت الخنجر على معصمها وضغطت على يدها وصاحت: يا أحمد... لا

تتركني أموت ضحية لك..

لا تدري بالضبط لو وصل صوتها إليه أم لا. ولكنه أكمل.. وهو ينظر إلى الأفق:

يا الله يا نور يا حق يا مبين، افتح قلبي بنورك، وعلمني من علمك، وفهمني عنك، وأسمعني منك، وبصّرني بك، إنك على كل شيء قدير.

أغمضت عينيها ثم فتحتهما لا تدري هل تتخيل هذا النور الذي يحيط به، وكيف يصبح للنور حيزٌ ومكان، وكيف يكون النور ملموسًا كالزجاج الرقيق الذي يحجب الرؤية والحركة؟ لا بد أن الخيال يلعب بها أو ربما أصيبت بالجنون وانتهى الأمر. سرت القشعريرة في كل جسدها، مدت يدها فارتطمت بالزجاج.. أو هكذا توهمت. ضغطت على الزجاج لتكسره فلم تستطع، تمدد كأنه يبتلع الغرفة، نادت اسمه فلم يصل إليه كيف لم يسمعها؟ الحجرة صغيرة، هل استغرقه هواه بربه حتى غيبه عن كل ما حوله؟ ربه؟ أليس هو ربها أيضًا؟ نظرت إلى الجرح في معصمها ثم صاحت بأعلى صوت: ستقتلني يا أبا العباس .. انت تقتلني

ردد:

كم من قلوب قد أميتت بالهوى

أحيا بها من بعد ما أحياها

تمتمت نجمة في عذاب: أمتني يا رجل مرة ومرات، استمع إليّ!

هوت إلى الأرض ودفنت رأسها بين يديها. نزعت أطراف ردائها الأحمر من على كتفها، تريد أن تتحرر من كل شيء ولا تستطيع. صاحت مرة أخرى: أحمد..

هل يجوز أن يكون لا يراها.. لا يسمعها؟ مع من يغيب؟ كأنه ليس في هذه الدنيا استغرقه الحب، يقولون الحب يسكر ويغيب صاحبه لو تحكم واستحكم. ولم لا يغيبها حبها هي؟ لم لا يترك بداخلها سوى الهم والإحباط؟ يا أحمد! يا أبا العباس! يا مُرسي! كيف لا تسمع؟ هل تسمع؟

مدت يدها من جديد حاولت أن تحرك قدمها لتتحرك ناحيته فلم تستطع. سقط الخنجر من يدها، حملقت في نقاط الدم على معصمها، تقهقرت إلى الخارج في بطء، لم تعد ترى أمامها. في المدخل المنكسر أصبحت كل الشموع المضيئة داكنة سوداء بلا بريق.

***

في الصباح جمعت نجمة خاتون أشياءها وخرجت من بيت الشيخ بلا كلمة، ولا سلام على أهل البيت. كتمت جوى وتسعرًا وإخفاقًا وحزنًا وعزمت أمرها على أن تلجأ إلى من هو أقوى من الشيخ وأعظم، لن ترضى بأقل من السلطان. ولكن القلب لم يزل مُعلقًا برجل واحد دون كل البشر. ومنذ متى يتحكم قلب نجمة أو ينطق؟ السلطان بيبرس هو الغاية.

***

حكى ابن عطاء الله السكندري لماريو..

هل دخل قلبي الرضا؟ لا تسأل أسئلة أصعب من نفسي الضيقة. كنت أخاف، والخوف يتغلغل بخفة المطر وبسرعة الأشهب، هو خير رفيق للوسواس وعندما يتغلغل يقبض على النفس. أخاف أن أغضبه فأعيد وضوئي مرة بعد مرة. اليوم لن يتقبل صلاتي، كيف يتقبلها وأنا لست واثقًا من وضوئي؟ عرفت الله على قدر مقامي، ولكنه بالنسبة إلي حينها كان يغضب سريعًا ولا يغفر الزلات. ربي الذي عبدته كنت أعرف رحمته، ولكنني

أيضا كنت أخافه، أرتعب من ذلة عظمت أو صغرت. تتنهد زوجتي وتقول في ارتباك وهي تخاف إغضابي: يا أحمد، يا بن عطاء الله لقد توضأت للتو فلِمَ تتوضأ من جديد؟

كنت أقول وأنا أغرق رأسي في الماء: لم أركز في وضوئي أول مرة.

فتقول في صوت خافت: رأيتك وأنت تتوضأ غسلت رأسك.

- ربما لم أغسل ذراعي في هذه الحال.

أصبح الذهاب الى المسجد عبئا وإعياء. إعطاء الدروس مكان جدي اختبار وابتلاء. ترى يا جدي هل أصابك وسواس مثلي؟ صاحب الوسواس صداع لا قبل لأحد به، يمسك بالجانب الأيمن دوما وينبض كما مطرقة إبليس. هل كنت راضيا؟ للحق لم أكن متأكدا أنه هو يرضى عني، ولذا انتشر السخط بين أوثاقي وجوانحي، سخطت على الشيطان، كرهته كرها يملأ السماء حتى إنني قررت الحج، لأرجم الشيطان فقط. ترددت كلمات جدي على مسمعي: أحمد بن عطاء الله فقيه وقاض في الثغر، هو فخر الإسكندرية كلها.

كنت أريد إرضاء الله نعم. لا أكذب ولا أفتري على أحد، أقسط في الميزان وأتجنب الظلم..الظلم.

انتفضت من نومي فقالت زوجتي في قلق: ماذا بك؟

لم أجب. ارتديت ملابسي وخرجت من بيتي إلى مسجد العطارين. فلأستمع إلى أبي العباس المرسي. فهم يقولون إن العارفين لهم علامات وأحوال! أي أحوال وأي علامات؟

مكث الرجال يستمعون إليه في حماس، يجلس أبو العباس بينهم في

تواضع لم أر مثله حتى إنه لا يجلس القرفصاء، ولا يجلس على حَشيّة، بل على الأرض مباشرة وهم حوله.

اختبأت خلف العامود، لا كنت أريده أن يعرفني ولا تأكدت أنه يتذكر طفلًا مر أمامه وهو مطروح على الأرض منذ زمن. استمعت. الصدق يصيب القلب لا محالة.. فوجدت أبا العباس يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها، يقول: الأول إسلام، والثاني إيمان، والثالث إحسان. وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة. وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق. أن تتحقق بالله هو أن تشاهده شهود عيان، والمشاهدة بالبصيرة في الحياة الدنيا والبصر في الآخرة.

استمعت في وجل وإعجاب ملتبس بالتحامل، ولكنني لم أستطع أن أنكر لنفسي حينها أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني. تلاشى كل حنق على أبي العباس في لحظات. ذهب كما الغبار ولكن الحيرة لم تتلاش.

عدت إلى منزلي وقد انهزم الكره أمام الحب، ولكن كِبر النفس أكبر عدو. كيف ينتقل القلب من الرفض للإعجاب في اليوم نفسه؟ فلم أجد فيّ شيئًا يقبل الاجتماع بالأهل كعادتي، حاولت زوجتي أن تدخل حجرتي مع ابني فطلبت منها أن تتركني وحدي. ووجدت معنى غريبًا لا أدري ما هو، فخرجت من البيت إلى مكان خلاء، وانفردت في ذلك المكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته. سهوت برهة عن الوسواس وعن وجع رأسي. وعزمت أمري على لقاء أبي العباس.

استأذنت في الدخول عليه في مسجد العطارين فأذن لي. فلما دخلت عليه هبّ أبو العباس قائمًا وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى ذهشت خجلًا، واستصغرت نفسي أن أكون أهلًا لذلك. كنت في العشرين وهو في

الخمسين، ولم أر هذا التواضع طوال عمري. فكان أول ما قلت له بلا تفكير بتلقائية وصدق: يا سيدي أنا والله أحبك.

فقال أبو العباس: أحبك الله كما أحببتني.

جلست بين يديه ثم قلت: حدث في الماضي ما حدث. من جدي ومني..

ابتسم لي أبو العباس ثم قال: جدك فقيه الإسكندرية. وأنت ستكون مثله.. ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية..

- كأنك كنت تعلم ما نقول عنك..

- أتمنى أن تحضر مجلسي، تستمع إليه ولو لم يعجبك لا بأس. على طالب العلم أن يختار أيضًا ولا يطيع أمر عبد من العباد بل الله الواحد القهار.

كيف تحيطه الهيبة وهو يخبت النفس هكذا؟ وكيف تبدى لي كأنه بجلال الملائكة وهو يجلس بين البشر بلا حُكم عليهم ولا مسافة بينه وبينهم؟

أصبحت أحضر مجلسه ولا أبرحه. حتى قال له ابنه جمال الدين محمد: هذا فقيه الإسكندرية يا أبي يحضر مجلسك بانتظام. يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه.

- والله لا أرضى له إلا أن يُفتي في المذهبين.. التصوف والشريعة والفقه. ابن عطاء الله كاللؤلؤ المكنون. لا يدري ما بداخله من كنوز..

ربما يا ماريو لا تفهم ما حدث لي، ولكنني سأخبرك. يقول أبو العباس: للحكمة بذر ونبات، ووقت البذر غير وقت النبات، وقد يبذر فيك بذر الحكمة ويبقى النبات موقوفًا على مجيء سحابة ماطرة، فإذا جاءت أظهرت من الأرض ما كان فيها كامنًا، فتبقى الودائع مطوية في العباد حتى تجيء أوقاتها. هل تفهمني يا أخي؟ ولكن ليس للوسواس أن يترك النفس

بهذه السهولة فقد سكن واستقر أخبرته عن الوسواس وعن الصداع الذي لا يتركني فقال في حسم: نحن قوم نلعب بالشيطان ولا يلعب بنا.

حاولت وجاهدت ولكن الوسواس لم يتركني مع أن وجع الرأس تحسن تدريجيًا. بعد بضعة أشهر سألني عن الوسواس فقلت: على حاله يا سيدي.

فقال: لو استمر خوفك من غضبه ولم تدرك حبه ورحمته فلا تأت إلى هنا.

وكانت أقسى كلمة سمعتها من أبي العباس، ولا أظنه قد طرد أحدًا من مجلسه من قبل. صفعتني كلماته وأفاقتني.

خفت من أن يحرمني الله من صاحبته، وجدت في كلماته الطمأنينة وأنشدت بين يديه قصيدة له هو قلت بها:

وكم من قلوب قد أميتت بالهوى..

أحيا بها من بعد ما حياها.

ردد البيت مرة ومرات ثم قال: شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك إلى المولى، الزم يا ابن عطاء الله فسوف تُخرج النور من حولك..

أتريد أن تعرف كيف تركني الوسواس؟ لقد نسيت الشيطان وتذكرت حبه هو الكريم، طغى عليّ الحب فهزم كل الحقد، أدركت حينها كيف جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرة تنطوي عليـك أصـداف مكوناته. أحببت حب الله لي وأتلفت كِبر النفس وغرورها. وثقت في عبادتي واستمعت للكلمات حتى إنني رأيت الدين سلسًا سهلًا جميلًا، لا خوف فيه إلا من الظلم والتعدي، ولا عذاب سوى لمن تحكمت فيه أهواؤه. كنت أردد: يا بن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجلي فلا تشتغل بما هو لك عمن أنت له. وكلما تملكتني

اللهفة للوصول مريقا، كنت أسمع شيخي يقول: لن يصل الوليُّ إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وجدت نفسي وعرفتها فتجلى لي ربٌ رحيم كريم جبار عظيم ودود جميل.

نظر إليّ أبو العباس كما تنظر السلحفاة لأبنائها وتُربيهم بالنظرة والإيماءة وقال: كيف حالك؟

فقلت وكنت أعني كل كلمة: أفتش عن الهمّ ولا أجده.

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

***

أكملت لي كريستينا الحكاية ...

مرت ثلاثة أشهر لم تتغير طقوس الدنيا ولا شغفه ولا شوقه لزوجته، ولكن الحاجز الدقيق كان مستقرًا، تراه شيخًا وليس أحمد، لا تعرف كيف نبع الشعور ولا كيف استقر ربما ما تدركه هو عين الحقيقة، من يدري، ربما أصبح مقام أحمد يبعد عن مقامها، ربما توارى داخل زهده ومعرفته فلم الوصول إليه بهذه السهولة. ولكنها اندهشت عندما طلبها إلى مجلسه في المسجد ولم ينتظر حتى يعود إلى البيت.

ذهبت إليه وقلبها يخفق رهبة، جلست بين يديه وحدها، صرف كل الحضور ثم قال: لا يدخل عليّ أحد وابنة شيخي عندي.

حتى ابن عطاء الله اضطر أن ينتظر خارج الحجرة.

انحنت تقبل يده فنزع يده مسرعًا ثم قال: لا تعالي هنا بجانبي.

همست وهي تمسك بيده وتقبلها رغمًا عنه: لا أقبلها ذلًا يا أحمد. بل لأنك أقرب إليّ مني.

رفعت عينيها إليه ثم قالت: والدي يقول دومًا أحمد أعلم بأحوال السماء عن أحوال الأرض.

قال في هدوء: وكان يقول أيضًا: إن البصيرة كالبصر أقل شيء يؤثر فيها. كنت أحارب كل يوم..

نظرت إليه لا تفهم ما يعني ثم قالت: أحمد.. يشبه الملائكة أعرف.

فقال: ظننت أنني قضيت على نفسي ثم تملكني غضب الزهو فهفوت.

- أحمد لا يخطئ.

- كل البشر يخطئون، لا بد من الكلام حتى لو كانت الأحرف ثقيلة على اللسان.

بقيت ساكنة متحيرة فأكمل: الغيرة حجاب، والحسد حجاب، والكِبر حجاب.

قالت بلا تفكير: هل تعرف كم أحبك؟

- لم تنطقيها كثيرًا لأنك قلت من أكثر من عشرين عامًا إن الكلمات جوفاء أمام تدفق الفؤاد وصدقتك.

- لم أحتج إلى نُطقها كنت داخل خلجات النفس.

ابتسم ثم قال: واليوم أطلب صفحك.. وصفح الله.

خفق الصدر وقالت: لماذا؟

- حجبتني الأنا عن ربي وتسلل الغضب مقترنًا بالكِبر فقلت لنفسي كيف تشكين فيّ؟ كيف يخطر ببالها أي غدر؟ كيف ظنت أن مُريد والدها ينقض العهود؟ كيف تراني أهلًا للخيانة؟ اعتقدت في نفسي وسموها فغضبت منك.. قرأت نفسك وعرفت خاطرك فأصابني الغم. قالت لي نفسي: بعد هذا العمر تتوقع مني هذا! هكذا قلت وهكذا وسوست لي نفسي فحُجبت أو كِدت، فهرولت إليه نادمًا. كأنني كنت أقول كيف تتوقع هذا من أحمد؟ إذا كان الرجل العادي ربما لا يخون ولا يغدر، فكيف يخطر ببالها أن أفعل أنا. كأنني أعطيت نفسي منزلة غير كل البشر وكأنني لم أقتل النفس بل أبقيتها نائمة فاستيقظت أكثر شراسة من قبل. كدت أحجَب حينها لو تُدركين. وندمت واستغفرت.

همست: كنت تقول إن خاطر الخوف غير استقراره يا أحمد. يا صديق الروح قد فاض قلبي بغزارة عطائك حتى إنني لفت العين التي تسهر غيرة عليك، والقلب الذي ينتظر همساتك ولمساتك. كان وسواس نفسي وليس وسواسك حتى ولو قرأت ما في نفسي فلا تلمني على فراستك. لم أنطق بشيء لك.

ابتسم: أعرف ولذا أطلب الصفح منك.

أسبلت جفنيها وجلست بين يديه .مرّ وقت ثم قالت: غضبت مني لأن يقيني في حبك قد تزحزح وأني احتجت إلى الكلمات لأفهم وأثق، انتظرت كلمة أو كلمتين، أن تقول أنا لا أحبها ولا أريدها زوجة.. ما أتفه الإنسان يتشبث بالعلائق بينما اليقين يأتي من الأعماق. ربما أنا من أطلب صفحك يا سيدي..

- ظننت أنني قتلت النفس ثم لاحت لي كرياح الغور تثير الغضب

والإعجاب لحظات، ربما.. فطلبت منه المغفرة.

قالت: سيدي.. أعماني الطمع فأردت أن تكون لي وحدي، ثم غضبت لمجرد هاتف أصاب النفس بلا حقيقة ولا وجود.

- كلنا له هو ولكنه خلقني لك وخلقك لي هدية وهبة منه إلى حين. كيف لي ألا أقبل هدايا الكريم. وأين البركة فيما أقتنصه من دون إذنه؟

أمسكت بيده ثم قالت: أصبحت أشعر أنك لست معنا، تهيم في الله وليس في دنيا أو آخرة. ابتعدت عن الدنيا ودنوت منه كأن الدنو مشروط بالبعد..

قبض على يدها وقال وهو يقبل كفها: هذا ليس بيدي.

قالت في يقين: أعرف هو تكليف منه هو.

تناثر الحاجز وهدأ الغضب النابع من الأنا ولكنه كان قد ابتعد عن الدنيا أكثر مما توقعت. يخلو بنفسه أكثر يقرأ ويعلم، يسبر الأغوار ويُرشد التائه على قدر قوته. يجلس معها نعم، يبادلها الحب بشوق ويحتضنها، ولكنه رحل عن العالمين، كل ما حوله سواء. رهبت الاختلاف ثم اعتادته فقد رأته من قبل في والدها.

اعتذر لابن عطاء الله على التأخر قائلًا: إنها ابنة شيخي لا أستطيع أن أقطع كلامها.

قال ابن عطاء الله: خفت أن تتغير عليّ يا سيدي..

فقال أحمد: أنت منبع نور وجمال تذكر هذا. بعض الناس خلقهم ليضيئوا كما المشكاة، زيتونة لا غربية ولا شرقية. والله ليكونن لك شأن عظيم.

***

لم يزل عبد البارئ يؤذي الشيخ، ولم يزل تقي الدين فقيه الإسكندرية والشيخ الخضر يتربصان به، لم تزل الشتائم تنهال عليه، ولكن أهل الإسكندرية تحتمي به كما تحتمي بالأسوار الحجرية، يستمعون، يتنهدون، يفهمون، ويتفكرون، أصبح يرحل من بلد إلى بلد، من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب حتى سمعه كل أهل الديار المصرية، ولكنه دومًا يعود إليها.. الإسكندرية. ذاع صيته خارج حدود الديار المصرية، فتمنى لقاءه كل زاهد وجاءه الناس من كل البلاد يستمعون إلى كلماته يقولون قابلنا المُرسي ورحب بنا وليّ الله العارف بالله ومن الله، الواصل له والموصل به يعبر رجل البحر فقط ليصافحه، وآخر ليعانقه ويلقي بهمومه على صدره ويشكو له دومًا يستمع ويصبر ويرحم ويطمئن

* * * * *

سفر ماريو الأول

ماريوروما 1933 -1903 حكى ماريو لكريستينا

كنت مهووسًا بالمياه، صوتها يفتق الوجدان فتنبعث أنفاس غير الأنفاس، ونشوة كما البرق والرعد، تربك وتبجل، وتدفع بصيحات الطفولة الجريئة. لمعت عيني وأنا أنظر إلى النافورة العملاقة وتركت يد أمي وجريت ناحيتها، فصاحت مؤنبة تطلب مني أن أعود. لو وقعت في النافورة أغرق ولا تتحقق أي من أمنياتي، كنت في الخامسة، حينها تجمدت نظرتي على تمثال عند النافورة، الإله نبتون، إله البحر بجسد فارع قوي مثالي، أشفقت عليه حينها، ما الذي قيده داخل هذا الحجر؟ ما الذي ربط رجليه ويديه حتى يبقى دهرًا ينظر إلى المياه ولا يغوص بها؟ قالت أمي في إعجاب: هو إله البحر.

حينها تمثل أمامي نبتون حزينًا مع قوته. ينظر إلى النافورة ويعجز عن أن يقول أمنيته.

كأنها قرأت أفكاري، قالت: لأنه ليس حقيقيًا يا ماريو. تمثال صنعه فنان مثلك، يرسم مثلك. ماريو سيكون أعظم من نيكولا سالفي الذي نحت تمثال نبتون لأنه ابني.

كلمات أمي دون أن تدري كانت كحمل ينوء به الجبل. زادت من ربكتي وحيرتي، فقلت في حسم وقد تذكرت حكايتها عن القديس كريستوفر: سأركب البحر عندما أكبر وأعبر إلى بلاد سانت كريستوفر وسيحميني، أليس كذلك؟ هل يعرف سانت كريستوفر نبتون؟

أطرقت أمي ثم قالت: سانت كريستوفر يحمي كل المسافرين حكيت لك عنه. هو قوي قوة لا مثيل لها، مات شهيدًا من أجل دينه، ولكنه سيحميك وأنت تعبر البحر.

قوة نبتون ثم سانت كريستوفر كانت كل ما أفكر فيه. كنت أريد هذه القدرة. للقوة بهاء وطمأنينة لم أملكها حتى وأنا طفل.

قالت أمي في حماس: هيا أعطِ ظهرك للنافورة وتمنَّ أمنية.

قبضت على العملة بين يدي ثم ألقيت بها وقلت بصوت مسموع: أتمنى أن أقابل قديسًا وأن يحميني في رحلتي، وأن أعبر البحر وأن تكون قوتي بقوة نبتون.

- لك أمنية واحدة يا ماريو.

- لو قابلت القديس يعطيني القوة، ولأقابله لا بد أن أعبر البحر أليس كذلك؟ فهو يأتي ليحمي المسافر.

ابتسمت ثم قالت: أذكى ابن هو ابني.

أتذكر يدها وهي تقبض على يدي الصغيرة، لاحظت أن باعي قصير وأن العملة لم تصل إلى النافورة، فبكيت طوال اليوم، ولكنها أمسكت بي ووضعتني أمامها ثم قالت وعيناها تخترقان عيني: يومًا ستتحقق كل أمانيك أعدك بهذا. ستقابل القديس.

وقد حدث.. أو كاد.

***

عبرت البحر إلى مصر يقولون من يرد الرخاء والغنى يعمل في مصر تجود على المسافر دومًا، ولكن ملكها أيضًا يحب العمارة. رحلت بعد أن أتممت العشرين بقليل، وأصبحت من مساعدي مهندس قصر الملك في مصر كنت أعمل بلا سؤال أو تذمر فيلوتشي بيك مهندس القصر الإيطالي وأستاذي، كان يرفع كفه فأفهم ما يريد أن يقول، دومًا يردد بين الحين والآخر: أهم ما أحتاج إليه في مساعدي الطاعة، لو أردت أفتح لك أبواب مصر كلها، فباب الملك بيدي أنا مهندس القصر.

كنت أهز رأسي وأطيعه.

يصف لي أحلامه والقلم في يدي فأرسم، رسمت ورسمت كل إشارة وكل حركة أنظر إلى عينيه، ويجمح قلمي بلا رفيق ولا رادع. يعدو كما الخيل الحرة داخل صحراء لا نهاية لها.

أحيانًا عندما تتملكني الحرية وتنفتح أبواب لم يفتحها لي كان يزجرني ويؤنبني ثم يقول: من أتى بك إلى هنا؟ كم راتبك؟ هل كنت تحلم بالعمل معي؟

فأطرق خجلًا ثم أنفذ ما يريد وألجم لساني وأزيل حبر القلم.

حتى غامرت بكل شيء..

وقفت أمامه وقلت في خجل: أستاذي لا تغضب مني.

فقال مؤنبًا: وماذا فعلت؟

- لم أفعل شيئًا بعد، ولكنني أنوي أن أقدم على منصب كبير مهندسي وزارة الأشغال (الأوقاف) في مصر.

فتح عينيه ولم ينبس كأنني قمت وصفعته على وجهه. قال بعد برهة: قلت لك من قبل إن مصيرك بين يدي وإن الطاعة هي السبيل إلى الوصول إلى أي شيء في مصر. طاعتي أنا مُعلمك، وها أنت تخون المُعلم والعلم.

قلت بلا تردد: أعتذر لك.

- بل تحور علي.

فرددت في ثبات: أعتذر لك يا سيدي.

- لو أردت أن تقدم لهذه المسابقة أحطم كل مستقبلك هنا. تستقيل من منصبك معي وتعود إلى بلادك من حيث أتيت. تغامر.. ولن تفلح.

رددت كأنني لا أسمعه: أعتذر لك يا سيدي.

***

كنت أحكي لك عن مغامرتي عندما اندمجت في زخارف المماليك وحياتهم، وتعلمت العربية وقرأت بلا توقف. أعلنت وزارة الأشغال عن منصب هو حلم عمري كله، منصب كبير مهندسي وزارة الأشغال المصرية. لا تسخري مني، كنت كاثوليكيًا تدرب في روما وقضى في مصر بعض

الوقت يرسم قصورًا ويزخرف للملوك. ولكن الحلم لا يبرح الوجدان لو تعلمين. غامرت بكل شيء حتى بعملي. رأيت نظرات الاستهزاء في عين الإيطاليين قبل المصريين، ماريو يريد أن يصبح أهم معماري في مصر كيف له أن يفعل هذا؟ هو في الثلاثين أو أقل. هو مسيحي كاثوليكي، أصلًا هو إيطالي، ألا يوجد في مصر مَنْ يستطيع أن يقوم بهذا العمل؟ حتى أساتذتي وجدوا في الحلم وقاحة تستحق العقاب. فلو بقيت طوال عمري أعمل مساعدًا، هذا جائز وسأكون تلميذًا نجيبًا، أما لو أردت أن أسلك مسلكًا مغايرًا، فالدنيا لا تستقيم. ولكنني كنت مدفوعًا دفعًا بلا إرادة من ناحيتي ولا قدرة على المكوث مكاني. استقلت من منصبي وجلست ثلاثين ساعة أرسم بابًا لوزارة الأوقاف كما تتطلب المسابقة.

الباب.. لا بد أن تعرفي يا كريستينا أن شغفي بالعمارة المملوكية أصبح أكبر من شغفي بعمارة النهضة في إيطاليا. وعندما صممت بابًا لوزارة الأوقاف تركت قلمي وأغمضت عيني وأنا أرسم، ثم فتحتهما بعد أن أخرجت من قلبي صورة فيلوتشي. كنت حرًا حتى ولو فقدت كل شيء. ثلاثون ساعة متواصلة لا أتحرك، أغفو بين طيات الأوراق وخيالي لا يمل ولا يرنو. امتثل أمامي مسجد السلطان حسن، ثم مسجد قايتباي، ثم كنائس في بلدي، امتثل أمامي طفلٌ يريد الحرية ولا يجدها، عبر البحر بحثًا عنها فازداد قيده، وها هو اليوم أمام الباب السحري. يقولون نفتح لك الباب لتكون كبير مهندسي وزارة الأوقاف، افعل ما شئت.. وعش كما تشاء.. لو أجبت عن السؤال الإجابة الصحيحة.. لكن ما هي الإجابة الصحيحة؟

تقدم إلى المسابقة أهم المعماريين وكنت شابًا أجنبيًا بالكاد يغوص في بحر العمارة الإسلامية حينها. رسمت الباب وأنا أنوي أن أستلهمه من عمارة المماليك، ولكنني بعد برهة وجدت نفسي أدور بقلمي على الأوراق تارة في خط مستقيم وتارة في دائرة ومرة في مدخل أتمنى العبور منه. سهوت أو

كدت فلم أسيطر على نفسي كعادتي ولم أتذكر كلمات فيلوتشي ولا نصائحه. كنت شابًا يلهو بشغف مع من يحب بلا قيود وبلا وخم، أرتع بين انحناءات الأمواج والرمال الصافية. أنا والقلم كنا واحدًا نفعل ما نشاء كيفما نشاء. عرفت نفسي أو كدت.

كل حين تأتي روزا زوجتي وتردد في شفقة: أرهقت نفسك يا ماريو.. خذ بعض الراحة ثم عُد إلى رسم الباب.

للحق لم توقظني ولم أكن أريد سماع أي صوت. كنت في غيبة كما الصوفيين بين طيات الوجد. كنت حرًا.

سمعت الصوت من الأعماق يأتي: فإذا ما نلت منه وصولًا، فاقرع الباب قليلًا قليلًا.

زخرفة الأبواب هي البدء، هي أول طريق للدخول، تفتح بابًا لتدخل على حبيبتك وبابًا آخر لتبتعد، هذا باب تمر به عبر الأوطان، وهذا تعبر به إلى عالم مختلف، وذاك باب يصل ما انقطع، وهذا باب إلى نار مضرمة، وآخر إلى شوق لا يخمد إلا بوصل لا ينقطع، هذه مياه تلج في الأحشاء، وهذه أزهار لا يعرف أحد متى تنبت وأين. هالني ولع الرسام بأفرع الشجر والأزهار، ودمجه بينها وبين الأشكال والدوائر. ما الذي يجذبه إلى الأشجار سوى أنها لا تخلف الميعاد، ولكنها أيضًا لا تخضع لترتيب البشر. مرة تصاب بمرض فلا تنبت، ومرة تذبل ولا تموت. تحتاج إلى اهتمام دائم كما النفس. هؤلاء يتخذون الرسم بابًا إلى عالم الأرواح. وليتني أفهم عالمهم.

ولكنني سمعت الصوت لي وحدي.. مرة بلغتي ومرة بلغة لا أتقنها بعد.. أقرع الباب قليلًا قليلًا..

هو باب إلى بداية الرحلة وآخر إلى بداية الوصول. في الرحلة لا نهاية ولا

بداية ولا ضيق ولا اتساع كلما أبدع الفنان تحرر من القيد وكلما عبر أبوابًا مألوفة اتسعت رؤيته كنت أبحث عن الحرية. وأردت دخول هذا الباب ولكن عليّ صناعته أولًا..

ثلاثون ساعة بلا انقطاع أرسم في باب وزارة الأوقاف. ولكن الصوت انساب من بين الدوائر بعد حين.. اقرع الباب قليلًا قليلًا.. إذا ما نلت منه وصولًا..

صوت كنغمة أغنية لا تترك أذني غنتها أمي وأنا طفل، فلتسامحني أمي على أنني رحلت بلا وعد بالرجوع. ولتسامحني أكثر أنني دخلت السجن بعد ذلك في مصر فلم أستطع أن أودعها.. نغمة الأغنية لم تتركني، كنا نسمعها صغارًا: كأنك يا حبيبة قلبي بركان ثائر تعالي نسير معًا.. تعالي معي نتسلق إلى أعلى، فتشهدين على العالم وأنا أراك أنت فقط.. قلبي يغني لك، ويريدك إلى الأبد.

ضغطت على جفني المسهد والكلمات تتشابك أمام عيني.. وأنا أراك أنت فقط.. أنت تشهدين على العالم.. وأنا أراك أنت فقط.. فونيكولي.. فونيكولا.. إلى أعلى، إلى أعلى لنصل إلى أعلى، إلى القمة هيا...

اطرق الباب قليلًا قليلًا..

بعد عام سألت مدرس اللغة العربية لو سمع هذا البيت من قبل، فكر قليلًا وردده ثم قال إنه لا يعرفه.

الغريب أنني بحثت عن قائل هذه الكلمات كما بحثت عن طفولتي، فلم أعرفه إلا بعد أعوام. أما طفولتي فلا أتذكر منها سوى يد أمي التي تمسك بيدي، وتدور حول آثار روما قائلة: ماريو سيكون أعظم معماري في العالم. ابني أنا.. لا تجعل أحلامك بطول هذه البناية، اجعلها تصل إلى السماء.

فلم لمتني يا أمي عندما رحلت؟ خضت بحرًا لأصل ولا أدري لو وصلت

عند الانتهاء من رسم الباب لمسابقة وزارة الأوقاف، لم أشعر بيدي حتى ظننت أنني فقدتها، وتشوش البصر حتى أمسكت بي زوجتي تطلب مني أن أبقى جالسًا وأغمض عينيّ برهة قبل القيام. كانت حياتي تتوقف على هذا المنصب. أصبحت الدنيا متمثلة في هذه المسابقة وهذه المغامرة وهذا الشعور اللذيذ بالحرية.

وفزت في مسابقة وزارة الأوقاف. أصبحت كبير المهندسين، وأخذته أنا. لم يأخذه تركي أو سوري أو مصري أو فرنسي. أنا الذي درست ما أحب واندمجت في العشق حتى الشكر فأصبحت الزخارف كأسًا من يد حبيبة، والمقرنصات ليالي كلها أسرار بين العالمين. شجعتني نجوم السماء، ورأيت القمر يهمس لي: أنت المقصود فلا تجزع.

***

أمي.. تبعث لي خطابين كل أسبوع تتبع خطاي كأنني ذهبت إلى المدرسة لأول مرة، كنت ابنها الوحيد وحلمها ودنياها، تعلمت أمي الرسم لتصحبني في الرحلة، وعندما قابلت روزا زوجتي في كنيسة سان جوزيف في القاهرة لأول مرة، قررت لحظتها أنها لي. كنت الفقير وكانت الغنية، كنت من عائلة مجهولة وكان والدها مستقرًا مزدهرًا في مصر منذ أعوام. كانت مصرية وكنت إيطاليًا، وربما كانت إيطالية وكنت مصريًا. ما أعنيه أننا اختلفنا حتى ونحن من البلد نفسه، ولكن الله رزقني يا كريستينا بامرأتين في حياتي تعطيان بلا مقابل، تحبان بجود وكرم. المشكلة أن وجود أكثر من محبوب مشكلة! منذ البدء استشعرت المنافسة. أصبحت خطابات أمي بعد زواجي كلها استغاثة وفزع، تقول: ماريو حبيبي ألن تعود إلى وطنك؟ سأبقى هنا وحدي بقية عمري .. مكانك بجانب أمك.

كنت أهدئها وأشعر ببعض الذنب، طلبت منها الحضور إلى مصر ولكنها رفضت. لكنها استمرت ترسم لي مستقبلي بإتقان وشغف. وكانت طريقتها في التعامل مع أزمة زواجي في مصر هي أن تتجاهل وجود روزا على قدر استطاعتها. فخلت الخطابات من السؤال عنها، كانت الخطابات كلها لهفة وبعض الخوف. في الماضي نصحتني أن أقنع فيلوتشي بيك أنني مدين له بكل شيء وأن أطيع كل أوامره. وفعلت بعض الوقت، وعندما تمردت صمتت، لم تلمني، بل بعثت تطلب صورة من تصميم الباب، بعثت إليها، فرحت وبعثت خطابًا تتنبأ لي بأن أصبح أهم مهندس عمارة في العالم. أمي كانت تحملني بين راحتيها ثم ترتفع بي إلى السماء.

تنظر إلي روزا في امتعاض بين الحين والحين، ثم تقول: أمك لا تحبني.

فأردد: بل تحبك جدًا جدًا.

هي آخر جدًا التي تؤدي دومًا إلى مشاجرة بيننا، تتهمني بالكذب ثم تتمتم ببعض الكلمات وتدخل حجرتها وتغلق الباب. يا أحمد.. طرق باب روزا صعب عندما تغضب.

*****

سفر ماريو الثاني

هناك لحظات في عمر الإنسان تغير مصيره. ما فعلته لا تسأليني عنه الآن فلن أستطيع أن أشرح لك. الوقت يريك أحيانًا، وأحوال الدنيا تدفع بنا دفعًا إلى المصير ولكن كان علي المخاطرة، لم يكن هناك بدٌ من الغوص في البحر. عشقت المماليك ثم الفاطميين، رأيت ما لم ير أهل البلد، رأيت الإتقان المصاحب للعبقرية، لدي حس للفن أو هكذا أدعي..

جازفت بكل شيء حتى بعملي ومستقبلي. في بعض الأحيان يتغير

صديقك عليك، وأحيانًا لا تعرف أين الصديق. وهل للصديق أن يكون موصولًا موجودًا كل الوقت؟ لطالما أقمت أفضل صداقات عمري بين أناس ليسوا معنا. لا تتهميني بالجنون.

كنت كبير مهندسي وزراة الأوقاف وأنا في الثلاثين، فزت أنا بالمسابقة كنت حينها أظن أنني فزت ولم أدرك أنه هو اختارني من بين البشر كنت أظن أنني أبحث عبر البحر ولم أدرك أنه كان يبحث عني عبر البحر هل تفهمينني؟ قالوا لي: يا ماريو الإسكندرية بلا مسجد يسع كل الناس. هي بلد الأولياء ولكنهم تحت الأرض وليس فوقها. من يستطيع أن يستحضرهم؟ أنت مُوكل ببناء أكبر مسجد في الإسكندرية لأهم ولي بها أبي العباس المُرسي. وكنت أرى الإسكندرية لؤلؤة تنتظر من يعيدها إلى الصدف حتى لا تهلك وسط طمع السامة وتغيرات الأزمنة أحببت المدينة لأنها كانت تحتاج إليّ، ولأنها بلد أبي العباس المُرسيّ أليست بلد المُرسيّ؟ أم كان غريبًا مثلي؟ لو كان كل من في هذه المدينة يقسم ويعرفه فلا بد أنها بلاده.

أبو العباس المُرسيّ.. ترى ماذا يريد القديس أن أبني له؟ هل يحب العمارة المملوكية أم الأندلسية؟ بحثت في لهفة وإحباط عنه فلم أجد من يدلني عليه. كلهم يحبونه ولا أحد يعرف من أين أتى ولا ماذا قال وفعل، وكنت أحتاج إلى الصدق لأبني مبنى يحيا بعدي كما مباني المماليك. أرهقني البحث حتى قال لي أحد مساعدي: يا سيدي ابن مبنى لولي وهذا يكفي.

ولكن الصدق دومًا باب الحرية. فتح لي الباب لأنه يريدني أنا. اختارني المُرسيّ لبناء مسجده. هذا ما اكتشفته بعد حين، لا توجد مصادفة. القدر يأتي به الله من خلال مخلوقاته.

سألت وبحثت بين الطلاب المصريين والمعماريين المخضرمين. لا أحد

يعرف شيئا عن المرسي غير أنه ولي، تنهال عليه الأماني من الأفواه كل يوم، وكلهم يتكلمون معه ويشكون إليه، ولا يحاول أحدهم أن يسمع صوته أو يسأله عن حاله.

كنت أبحث عن أبي العباس المرسي. أريد أن أعرفه حتى يتسنى لي بناء هيكله.

لو أردت أن تعرفه سيريد أن يعرفك هو أيضًا، ولو بحثت عنه فسوف يأتي إليك حين يحين الوقت. وقت البذر غير وقت النبات هكذا قال المرسي. بدأت في أول مشروع لي في الإسكندرية، ستة عشر عامًا وأنا أرافق أبي العباس.

ستة عشر عامًا وقت طويل لو قضيتها مع نفس الإنسان تحاولين معرفته وصداقته، وأحيانًا لا يجيب وأحيانًا يذهلك بجوده وحميميته. ولكنني رسمته منذ بدأت العمل في مسجده كان لا بد أن أراه وأن يتمثل أمام عيني كلما حدثني أحد عنه أضيف خطًا إلى لوحتي حتى اكتملت بعد ستة عشر عامًا ها هي بين يديك. صورة صغيرة بقلم رصاص ولكنها له لأحمد أبي العباس المرسي بلحيته البيضاء، ووجهه الهادئ وعينيه المضيئتين وعمامته البسيطة وابتسامته التي لا تفارقه.

عند البدء في بناء المسجد كنت أتعلم اللغة العربية. وجاءتني رسالته الأولى مع مدرس اللغة العربية. كان يرتدي طربوشًا مهندمًا ويعتني بشاربه المبروم أتم عناية، يجلس أمامي ثم يقرأ من الأشعار القديمة ولا أفهم شيئًا. قلت يومًا: هل تعرف أبا العباس؟

فنظر إلي في ذهول ثم قال: ولي الإسكندرية؟ بالطبع أعرفه.

- وهل يوجد أي كتاب عنه؟

صمت برهة ثم غاب أسبوعًا وعاد بكتاب لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري، فتح الكتاب وقرأ:

الحمد لله الذي فتح لأوليائه باب محبته، وأنشط نفوسهم من عقال القطيعة، فقاموا بوجوب خدمته، وأمد عقولهم بنوره، فعاينت عجائب قدرته، وحرس قلوبهم من الأغيار ومحا منها صور الآثار حتى ظفرت بمعرفته.

فإني قصدت في هذا الكتاب أن أذكر جملًا من فضائل سيدنا ومولانا الإمام، قطب العارفين، علم المهتدين، حجة الصوفية، مرشد السالكين، منقذ الهالكين، الجامع بين علم الأسماء والحروف والدوائر المتكلم بنور بصيرته الكاملة على السرائر كهف الموقنين ونخبة الواصلين، مظهر شموس المعارف بعد غروبها، ومبدي أسرار اللطائف بعد عزوبها، الواصل إلى الله والموصل إليه شهاب الدين أبي العباس بن عمر الأنصاري المرسي

فتحت فمي في فزع ثم قلت: لا أفهم كلمة واحدة.

فقال المدرس: طلبت مني سيرة المرسي. هل تريد أن نقرأ هذا الكتاب؟

- تشرح لي كلمة كلمة.

ما إن طلبت أبا العباس حتى لبى النداء، جاء وتواصل معي بطريقته الخاصة، وتواصل القلوب أعمق من تواصل العينين.

كنت أحكي لك عني أنا. نجحت واكتفيت وأصبحت أسقى بماء بارد من الوجد وسط الألوان والمشكاوات والأعمدة والمنابر. ادخرنا أنا وروزا زوجتي بعض الأموال، صممت فيلتي أمام أهرامات الجيزة، وكلي إعجاب بمعماري قديم بنى مبنى بروحه وليس بعقله ولا يديه فبقي. عم الرخاء، وأصبحت أستطيع أن أبعث لأمي بالأموال وأؤمن مستقبل ابني اليساندرو،

وصار العالم طوع إرادتي، فهرولت إلى الدنيا أناجيها كما يناجي الطفل الأزهار والطيور.

ثم جاءني خطاب أمي كله حزن، قالت: ماريو.. إياك إياك أن تتدخل في السياسة، ابق على الحياد في هذه الصراعات، الحرب على الأبواب مرة أخرى أريد أن أراك وأرى أليساندرو قبل اندلاع الحرب أنا عاصرت حربًا يا بني، يا ماريوني يا حبيبي، لكم أتمنى ألا تعاصر أي حرب يوم بدء الحرب سيتوقف الزمن والمكان، وسينتهي عالمنا ويبدأ من جديد دوننا. هي محو يا ماريوني، يا طفلي. ابعث لي أليساندرو، أريد أن أراه، من يدري متى أموت. حفيدي حبيبي، أم أن زوجتك لا تريده أن يأتي لزيارتي؟

قرأت الجواب لروزا وأليساندور وتركت الجملة الأخيرة، ولكن روزوا طبقت شفتيها ونظرت إليّ في تحد. ثم قال أليسندرو في حسم: أنا ذاهب إلى روما.

فقالت روزا وكانت حاملًا في شهرها السابع: ولو اندلعت الحرب؟

- سأعود. لا توجد مشكلة يا أمي.

رحل أليساندرو ولكنه لم يعد.

جاءت الحرب مصاحبة للغم والفقد. لا تسأليني عما حدث لي في هذا العام. ولكنك تعرفين، لم يكتمل حمل روزا كما كل مرة. أيقنت أن ابني أليساندرو سيكون وحيدًا بقية عمره، هذا لو عاد من روما. لن أحكي لك عن الفقد. ولكنني سأحكي لك عن محو الأحلام، وسرعة الريح وإتقانها في إزالة السحاب. جاءت الحرب ففقدت عملي، هكذا بكل سهولة. أصبحت عاطلًا بعد أن كنت كبير مهندسي الأوقاف. توقف العمل في مسجد المرسي. وكل ما ادخرت، كل أموالي، كلها وقعت في يد الإنجليز أو فلنقل

ضاعت كل أموالي ومدخراتي.

سرعة زوال كل ما رتبت لمستقبلي رجّت الكون من حولي، ولهفتي على ابني كادت تضل عقلي تمامًا. مكثت في شرفتي أحملق في الأهرامات، ولم أدرك حينها أن المصائب ما إن تبدأ حتى تستمر تباعًا. دق الضباط البريطانيون باب البيت، فتحت زوجتي فدخلوا دون تحية، فتشوا في كل مكان، ثم دخلوا الشرفة، وجدوا بجانبي راديو تحفظوا عليه كأنه أداة الجريمة، وكتبوا في محاضرهم وجدنا راديو ربما يكون جهاز اتصال لا ندري. تحفظوا على الراديو وعلي. وجدتني أستقل حافلة متجهة إلى فايد، إلى معسكر اعتقال.

اليوم ماريو رومي سجين في الأربعين من عمره هنا في معسكر فايد في مصر. جمع الإنجليز شباب الإيطاليين وحجزوهم في معسكرات خوفًا من ولائهم للدوتشي موسيليني. ماريو اليوم بلا عمل ولا أموال ولا مستقبل.

سمحوا لروزا بزيارتي بعد شهور. نظرت إليّ في عتاب وتفجر غضبها في وجهي بلا توقف: ابني..أنت السبب في ضياع أليساندرو. أنت.. شجعته على الرحيل والحرب على الأبواب.

صاحت بأعلى صوتها، فتجمع الحراس المصريون يشاهدون مشاجرة بلغة تعجبهم نغمتها ولا يفهمونها. صحت أنا الآخر: بعد شهور تأتين للومي! هل تفكرين فيّ؟ هو ابني أنا أيضًا.

أخذت تدور حول نفسها كأنها هي التي تم سجنها هنا. ثم نظرت إليّ وقالت: جئت لك بالبرتقال والمربى كما طلبت، سأرحل الآن.

أمسكت بمعصمها ثم قلت: ابقي بعض الوقت، لا أدري متى أراك مرة أخرى.

غطت وجهها بكفها ثم قالت في يأس: سأبعث بجواب للدوتشي

موميليني.

نظرت حولي في خوف، ثم أشرت لها لتخفض صوتها. فقالت هامسة: سأطلب منه أن يبحث عن ابني.

تعرفين يا كريستينا لليأس قواعده الخاصة، ولكن فكرة زوجتي فاقت كل إبداعي، قلت في مرارة: روزا نحن في حرب، الآلاف يختفون وقت الحرب.

صاحت! بل صرخت: إياك أن تقول هذا، إياك، ابني لم يختف، هو فقط لا يعرف كيف يبعث لنا خطابًا لأننا هنا في مصر والبريطانيون لن يسمحوا بهذا، إياك أن..

قلت مهدئًا: حسنًا لن أفعل.

ثم وضعت يدي على كتفها فأزاحتها، وقامت وكل جسدها ينبض بالفقد، وخرجت من عندي.

اقترب مني الحارس المصري مرمي، هكذا يطلق على نفسه مرمي. على اسم بلدك يا أحمد يا أبا العباس. يظن أن مرمي هو اسمك وليس البلد الذي أتيت منه، لا بأس. قال مرمي الحارس: زوجتك غاضبة.

قلت بالعربية: هذا واضح.

نظرت إليه، ثم قلت وأنا أخرج بعض المال من جيبي: أريد مساعدتك، ما علاقتي بالحرب وأنا هنا في مصر؟ سجني هنا ظلم، أنت تعرف، أنا مهندس فقدت كل شيء.

قال في ريبة: ماذا تريد؟

- أريد الهرب.

فتح فمه، فقلت مسرعًا: كل ما أملك أعطيه لك لو ساعدتني، لا مشكلة بينك وبيني. اقترب مني.

همست في أذنه: أنا أبني مسجدًا لشيخ كبير اسمه أبو العباس المرسي.

فتح فمه في وجل، ثم قال: المرسي أبو العباس!

- أبو العباس المرسي.

- لا اسمه مرسي مثل اسمي. شالله يا مرسي يا أبو العباس.

قلت في يأس: أنا إيطالي لا شأن لي بهذا الصراع، وأنت مصري لا شأن لك بهذا الصراع. لا عداء بيننا. ساعدني، لو فعلت سيرضى عنك الشيخ أبو العباس أكيد. أعرف أنك من الإسكندرية.

لم ينطق. أخرجت كل ما أملك من جيوبي ووضعته أمامه قائلًا: هذا كل ما استطعت أن أهرب به داخل المعسكر.

نظر حوله ثم أمسك بالجنيهات وخبأها، ثم قال: علشان المرسي بس حساعدك.

***

مشكلتي يا كريستينا أنني لا أمكث مكاني مستسلمًا. كانت أمي دومًا تستغيث بالأهل قائلة إنها لا تعرف ما الجن الذي يسيطر على هذا الطفل، فيدور حول نفسه بلا توقف ساعات. لم أستطع تحمل السجن فهربت.

لم أدرك أن الهرب سهل هكذا، خبأني مرسي داخل المخلفات، كتمت أنفاسي حتى الخروج من المعسكر.

خفق قلبي وأنا أتوق إلى هذه اللحظة. سأخرج من المعسكر ثم أعبر البحر

باحثًا عن ابني. سأتحرر يا أحمد يا أبا العباس، فالقيد يكاد يذيب ما تبقى من عقلي. عند الشاطئ التفت مرمي حول نفسه، ثم عندما تأكد من خلو الشاطئ دفع بالحمل فوقعت على الأرض وتنفست كأنه أول نفس يخرج مني.

ثم اقترب مني وهمس: لو مسكوك أنا لا أعرفك.

قالها وهو يبتعد عني بأقصى سرعة.

عاد مرمي الحارس إلى المعسكر وصاح: ماريو هرب. فاجتمع الجنود البريطانيون وخرجوا بالأسلحة بحثًا عني.

***

حدقت في البحر ترى كم من تائه لجأ إليه، وكم من حالم حار بين مياهه؟! اليوم البحر هو النجاة. خرجت أنفاسي متقطعة، جريت أميالًا بلا توقف حتى أصل إلى هنا، ابتعدت عن المعسكر وها قد وصلت، ماذا أفعل الآن؟

ضربت بكفي جبهتي كأنني أتأكد أنني لم أزل حيًا آه يا ماريو رومي. كل ما مضى من عمرك سفن وكل ما هو آت عذاب، تهرب من سجن إلى بحر وأنت تعلم أنك لا تستطيع خوضه ولا ركوبه كأنك تقفز من طائرة وأنت داخل قفص مقيد، أنت مقيد باليوم وبالغد، وبحرب لا قبل لك بها. آه يا ماريو.. كل ما حلمت به مُحِي كالكلمات الغارقة في الماء المالح!

رأيت حياتي قبل الحرب لهفة الحلم وشغف الإبداع. ركبت البحر يومًا منذ عشرين عامًا باحثًا عن بناية غير كل البنايات، باحثًا عن جمال في أعماق القبح، غصت وبلغت الغايات، حققت ما أريد، ثم هبت ريح فتناثرت الأماني والأيام كأنها لم تكن رحلت من روما أبحث أو ربما رحلت لأنني كان لا بد أن أرحل، دفعني الشوق إلى الأمواج أو ضوء الشهب، تنفست هواء التيه،

فوصلت أو هكذا شُبّه لي طلبت أمي مني البقاء، من يترك الفن في روما للبحث عنه في مكان آخر؟ اليوم أعرف أن سفري لم يكن للمغامرة بقدر ما كان للبحث.

على أية حال أنا اليوم هارب من معسكر فايد الذي يسجن فيه الإنجليز رجال إيطاليا وكل من يبدي تعاطفًا مع موسيليني، أو هكذا يدعون. سجنني الإنجليز دون ذنب لكوني من إيطاليا، ولكنهم ادعوا في أوراقهم أني أيضًا أملك جهاز راديو. لا تضحكي، سجن الإنجليز رحيم بالنسبة لسجون باقي الجنسيات البائسة التي تحارب مع المنهزم، لا تقفي أمام قُبح الحروب.. هكذا علمني أبو العباس. فلو تأملت الحرب هنيهة ستفقدين كل حبك للبشر. ولِمَ لا؟ هل يستحق البشر الحب على كل حال؟

سمعت صوت الجنود من ورائي، فلم أفكر يأمرونني بأن أبقى مكاني وأنا لا آخذ أوامري إلا من أعماق الفؤاد. صرخت بأعلى صوتي: لو اقتربتم سألقي بنفسي في البحر.

اقتربوا وألقيت بنفسي في البحر وسبحت في يأس إلى الأعماق.

ارتطم خدي بالموجة فنغزه زبد البحر كما رصاص الحرب، وتناثرت الكلمات من حولي، سمعتها لأول مرة.. مرحبًا بالموت القادم مع زبد البحر.. قلتها أقسم لك.. وقالها أبو العباس. التقينا ونحن نغرق أو نبحث بحرية عن الأصداف ولا ندرك المسلك إليها.. رددتها.. متمنيًا الحرية.

سمعت همسات الجنود بالإنجليزي ولم أكن أتقنها: هو حي.. هل أراد الانتحار أم الهرب؟

همست والسعال يخنق الكلمات: الهرب.

سحبوني إلى المستشفى كما الجرو المبتل، ثم ألقوا بي على سرير أبيض

من الحديد مبين الصنع، لا تسأليني لِم اشمأز الجسد؟ لا أحب القبح في البناء، صانع السرير لم يكن فنانًا على الإطلاق. أغمضت عيني وتذكرت كلمات قرأتها في الماضي وأنا أتعلم العربية، لم أفهمها حينها ولا أكاد أفهمها الآن.

جعلك في العالم المتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته، وأنك جوهرة تنطوي عليـك أصـداف مكوّناته.. أين يا ابن عطاء الله قدري اليوم؟ أخبرني يا صديق!

ثم لاح بخاطري عبارات بعينها:

أنت مسجون بمحيطاتك محصور في هيكل ذاتك. فتحرر.. وهل هناك تحرر أكبر من انفكاك الروح من الجسد؟

لم أعرف هل كنت حيًا أم ميتًا؟ في المستشفى انقطع عني كل اتصال ولم أطلب رؤية أحد. كنت أغمض عيني كأنني أعتصر ما تبقى من حياتي، أرى أمي وهي تمسك بيدي وأتخيل سانت كريستوفر وهو يحرس عابري البحور. ثم أرى الأماني تتناثر ثم تتلاشى كأنها لم تكن.

اقترب مني وهو يتلفت حوله كعادته ثم قال: عم تبحث يا خواجة؟

كنت أعرف صوته، إنه مرسي الحارس. أخرج ريالًا ووضعه أمام وجهي ثم قال: تحتاج إلى شراء سجائر ربما؟ أو إلى أي شيء آخر؟

ثم نظر إليّ وقال: أصابعك تتحرك كأنك تحتاج إلى شيء، لا تظنني ساعدتك من أجل المال.. ها أنا أعيد إليك المال أو بعضًا منه، أنت لا تنام قط. تتحرك وتمد أصابعك كأنك تبحث عن قلم. معي القلم..

انتفضت أو حاولت ثم قلت: أعطه لي.

فأخذ الريال ثم قال: وورق.

وضع الورقة أمامي والقلم وخبأ الريال في ملابسه ثم قال: هذا عدل ورحمة؛ أليس كذلك؟

قلت بلا تفكير: هو كذلك.

قال بعد حين: لو كنت تعرف أبا العباس المرسي فاطلب منه أن يساعدك أو يساعدني أنا..

قلت في صوت هادئ: اطلب من الله.

فقال: يا خواجة .. ماذا يفعل الشحاذ عندما يطلب منك شيئا؟ يقول بحبك لهذا الشخص، أعطني هذا وهذا. ونحن نعرف حب أبي العباس لربه وحب ربه له. هو العارف بالله فنقول بحبك يا رب لهذا العبد الصالح أعطنا كذا وكذا. ما المشكلة في هذا؟

قلت وأنا لا أتابع كلماته: حسنا.

- حسنا، ماذا؟

- حسنا، اتركني مع الورقة والقلم.

قال: هل ستطلب منه أن يساعدك؟

قلت في حسم: لا.

ولكن أبو العباس تكلم معي.. بعد حين.. عندما هدأ الغضب، هو من بدأ الكلام حينها. أصبحنا صحبة وعشرة لو تعرفين. على أية حال..كنت حبيسا وسجينا بلا ذنب وكان يمكنني التحمل لو عرفت أين ابني.. لو عرفت فقط أنه مات فقد أرتاح. ولم أكن أملك غيره.

بعد حين دخلت علي روزا، قبلتني وأخبرتني في حزن أن هناك خبرًا لا بد أن أعرفه، ولم أكن أريد أن أعرفه.

ولكنها قالت في بعض الشفقة: ماتت أمك. جاءني الخبر في رسالة سرية من صديق.

لم أكن أدري كيف أتعامل مع الحزن ولا الفقد. بقدر تعلقي بالأوراق والأقلام، وبقدر عشقي للخطوط، وبقدر انسكاب النجوم من بين أطرافي كنت أخاف الحزن وأجهله. لم أخبر أحدًا حينها أن أحشائي تتمزق، وأن الروح مجبولة على الشقاء. ولم أنطق. قالت: اعذرني لو كنت فقدت أعصابي من قبل. ولكنني أحبك تعرف هذا. هل أردت الهرب فقط يا ماريو؟

قلت وأنا أهرب حينها من كل عذابات النفس: في أسفل الحقيبة التي سأعطيها لك رسم وتصميم لفيلا شفيق بك كما أراد. اطلبي منه أن يتوسط لي في الخروج. لم أعد أطيق الحبس. خبأت التصميم داخل الحذاء أسفل الحقيبة، لا تنسي يحتاج تنفيذ الزخارف الخشبية التي يطلبها إلى حرفيين من عائلة الأسيوطي من المنيا، هم فقط مَنْ يتقنون هذا النوع من الزخرفة، ولن يصل إليهم إلا إذا أخرجني من هنا أنا أعرف كل حرفيي مصر وهو لا يعرف اطلبي منه أن أخرج. ولا تنسي مكان التصميم.

نظرت إلي كأنني فقدت عقلي ثم قالت: لن أنسى. هل أنت بخير؟

لم أجب.. تجمعت الدموع في حلقي ولم تجرؤ على الخروج. كانت مغلولة اليدين مثلي.. كلنا عاجزون على ما يبدو.

اقتربت ثم عانقتني وهي تبكي وهمست: أنا خائفة. كأنني في كابوس.

أحطت كتفها ثم قلت: مرحبًا بك في الدنيا!

ثم أخبرتها أنني أريد أن أعمل في الخفاء؛ نحتاج إلى المال. سأصمم قصورًا وفيلًا لأثرياء مصر كما كنت أفعل في بداية حياتي، وعليها أن تحمل الرسائل بالتصميمات معها داخل حقيبة الملابس القديمة، وتأخذ المال من الزبائن لتعيش به. أما أنا فجيش بريطانيا العظمى يتكفل بي.

تحسنت صحتي بعد أيام فجلست وطلبت من مرمي المجند الأوراق مقابل المال، وبدأت الرسم بلا توقف، انهمرت الأشكال المقترنة بالحيرة والأمل والإحباط كأن أيام الدنيا لا تعدل أبدًا. يوم بملالة عام، وآخر يمر في زفرة نفس، يوم يخرج القبح من انحناءات الجوارح، وآخر ينسحب في ابتسامة من ثغر عذب. تارة أحمد الله أنني لست شاهدًا على الحرب، وتارة أفقد الأمل في أن أرى ابني الوحيد.

أصمم فيلا لأحد أثرياء القاهرة تدور بي الدائرة، وأقرأ كلمات بحروف تبرق كما ومضة البرق من بلادي، ظننت أني فقدت عقلي أو تركته هناك. أمي ماتت ولم أودعها. طلبت مني ألا أرحل ولكنني رحلت مدفوعًا بحلم أو وهم أو عين الحقيقة، باحثًا عن مسكن أو نجاح أو مال أو ربما طمأنينة. ما الذي يلقي بمثلي إلى وسط البحر؟

اقرع الباب قليلًا قليلًا.

لم أكن أعرف من يبعث لي الرسائل حينها ولا من يناديني.

***

كل ليلة أتلهف إلى خبر عن ابني، بعثت روزا رسالة لموسيليني نفسه تطلب منه أن يترك ابني يعود إلى مصر لكن ربما لا يكون حبيسًا، وربما يكون قد مات أو قُتِل ليلًا أنتفض من نومي وأقوم أبحث عن القلم وأرسم. غصت في أوراقي مثلك يا أحمد، ولكنني لا أدري لو تحررت مثلك وسكن قلبي

الرضا مثلك. لو فقدته ماذا سيحدث؟ كم من شاب مات في هذه الحرب، وكم من أب فقد أولاده. فلِم أرى نفسي مصدر الكون وأهم من كل النفوس؟ ولكنني خفت وفزعت وتمنيت التحرر من الهم قبل القيد.

صباحًا رأيته يتنفس في مؤخرة عنقي فكدت أصفعه ولم أفعل، ولكنه كان يشاهدني كل يوم كأنني شاشة سينما، مرمى الحارس. قال لي فجأة: ترسم بسرعة جدًا.

لم أقوَ على إغضابه فهو مَن يأتي لي بالقلم والأوراق، وهو من يخبئ الرسائل لزوجتي.

ولكنه يتكلم دون توقف، أحيانًا أريد أن أعود إلى البحر وأغرق لأنتهي من الكلام. لن أنكر أنني اعتدته وبدأت أفتقده لو غاب. قال اليوم: هل تعرف ما حدث أمس في الإسكندرية؟

فقلت: ماذا حدث؟ لم يصل روميل بعد.

التفت حول نفسه كعادته ثم قال: أنت تساند موسيليني؛ أليس كذلك؟

فقلت في صدق: لا شأن لي بالحروب، أريد الاطمئنان على ابني وكفى.

فقال وهو يحدق في القمر: أمس ألقت طائرة قنبلة كبيرة على الإسكندرية كانت ستدمر كل المدينة، قنبلة كما التي نسمع عنها، القنابل التي تمحو المباني تمامًا ولا تبقي على إنسان أو حيوان، ولكنها لم تسقط. التقطها الشيخ القباري بيديه وأنقذ أهل الإسكندرية.. ربما لا تعرف سيدي القباري..

قلت: التقطها! كيف؟

- هؤلاء الأولياء يحرسون المدينة كما أسوار الماضي، ما تبقى في الإسكندرية هو أسوار قديمة وأولياء.

لم أجب. فأكمل: كل يوم أقرأ الفاتحة لأبي العباس، وسيدي ياقوت العرش، وسيدي البوصيري، ثم سيدي القباري.

رددت: هم يحمون البلد..

- هم البلد. أسوار ووتد يا خواجة.

- القباري سكندري، ولكن أبو العباس مرسي، وياقوت حبشي.

- مرسي مثل اسمي، ماذا في ذلك؟

- شرحت لك من قبل أن مرسي هو صفة للمكان الذي يأتي منه، مرسية في الأندلس.. في إسبانيا.

لم ينطق.

- أنت لا تصدقني.

- بصراحة لا أصدقك.. أبو العباس هو الإسكندرية.

- أتفق معك.

- عند أول إجازة أعود إلى الإسكندرية وأدعو لك هناك. أنت تعرف ما يحدث في المسجد الذي لم تنته منه؟

نظرت إليه في فزع. فأكمل: يتخذ أهل الإسكندرية المسجد ملاذًا في هذه الحرب الغريبة يختبئون فيه من القنابل.

ابتسمت. مرت أيامي حتى وإن كنت أبغي أن تنتهي، ثلاث سنوات أو أربع وأنا حبيس في معسكر فايد. لم تهدأ أصابعي عن الرسم يومًا، ثم صممت كنيسة صغيرة وطلبت من القائد البريطاني أن يسمح لنا ببنائها هنا، فالإيطاليون يحتاجون أيضًا إلى الكنيسة، وافق. فبنيتها بيدي مع باقي

المسجونين، ولم أهدأ، بدأت في إعداد مجلة برسوم كارتون لتسلي السجين وتضحكه أحيانًا، وأعذب لحظات السجن كانت عندما أترك الخيال يجمح وأتذكر البحر يتمثل أمامي، فأعبر في مخيلتي. لم تتوقف روزا عن مساعدتي ولم أتوقف عن تهريب الخطابات إليها والعمل على بناء قصور لأثرياء مصر. أجمع طاقتي لأكمل وأنا أتمنى توقف الزمن عند الماضي.

انتهت الحرب وتم الإفراج عني، خرجت كما جئت أول مرة.. بلا عمل ولا مال ولا ولد. احتضنتني روزا باكية وعدنا إلى بيتنا في القاهرة. لم أستطع دخول البيت، كنت كما الحيوان المفترس الذي تحرر للتو أحوم حول المدينة طوال الليل، ولا أنام ولا أدخل حجرة، أريد أن أشعر بالاتساع من حولي، ولا اتساع سوى اتساع البحر رحلت في الليلة نفسها إلى الإسكندرية، ولن أبالغ لو قلت إني مررت على شطآنها من الشرق إلى الغرب في يوم ربما نظرت من بعيد للمسجد الذي لم ينته بعد ونطقت اسمه: أحمد..

ثم عدت إلى فيلتي في القاهرة ونمت سبعة أيام! بعثت بخطاب إلى الملك فاروق إنني أتمنى أن أكمل بناء المسجد، وأتشرف لو افتتحه سمو الملك شخصيًا.

كنت أجلس في نافذة فيلتي المطلة على أهرامات الجيزة. كل ليلة أسامر مصمم الأهرامات وأتكلم معه. كنت أتقن الكلام مع الراحلين وأخاف الكلام مع من حولي وجدت في صداقة من وصل بعد عناء الرحلة الكثير من المعرفة والصفاء دارت عيني حول المكان أنظر إلى بناء لم يقو عليه الدهر ثم أنظر إلى الشارع منتظرًا خطابًا من ابني، أو من رجال الملك، أو من صديق قد رحل. ابتسمت وأنا أنظر إلى الأطفال يلعبون في الشارع كأنهم لا يدركون ثمن الحرب ولا قبح البشر. تلقائية الأطفال لا بد أنها تشبه صفاء

الملائكة والقديسين والأولياء.

ثم رأيته.

ليس الملك ولا البوسطجي، بل ابني عاد.

طرق الباب كأن العمر لم يمر والقلب لم ينفطر والنفس لم تخبت. سمعت صرخات أمه وبكاءها. وتسمرت مكاني أنظر إليه وأرى نفسي في عينيه. كنت قد يئست من عودته وجبلت الروح على الفقد. وعند العودة فزعت من فقد جديد. نطقت اسمه وأغمضت عيني، ولأول مرة أدرك أن الزمن والمكان مقيدان لنا يحاصراننا كما القضبان. تحررت أنت يا أحمد قبلنا جميعًا.

جاءتني رسالة مختومة من الملك، رسالة موافقة على تكملة بناء مسجد المرسي أبي العباس في الإسكندرية.

***

جلست القرفصاء أمام مسجد أبي العباس المرسي، لم أكن أتطلع إلى المسجد بقدر ما رأيت حياتي أمام عيني تمر في سلاسة وعنف معًا. أن ترسم فهذا إبداع ولكن أن تنفذ ما رسمته على الورقة فهذه حياة. تبدت حياتي بدوائر وخطوط وزينة وكلمات مقدسة. تبدت لي أحلامي على المحك، تكاد تصبح حقيقة ولكنها تتملص مني كل حين. يتغير الحلم بتغير الحال وتتباعد الأيام ولا تستوي، بعضها يمر كعام وبعضها يمر كالتفاتة الأحداق. من الصعب الحكم على حياتي وأنا لست أهلًا للأحكام، ميادين النفوس مسالك وعرة، واللهفة والولع لا يتركان القلوب في هذه الدنيا.

تكلمت معهم نعم، وتكلمت مثلهم أحيانًا.. كانوا صحبة وعشرة.

مسجد لم أنتهِ منه، وآخر بجانبه دُفن فيه البوصيري، ومسجد دُفن فيه ياقوت العرش. لم أظن ولو لمرة حتى وأنا شاب أن هؤلاء ماتوا وما تبقى منهم رفات؛ لأنهم كانوا دومًا بالنسبة لي رفقاء طريق، أصدقاء نتعاتب أحيانًا، يتدلل بعضنا على بعض، نضحك كثيرًا ونتناقش ونحكي. حكينا كثيرًا عن حيوات عشناها، وأخريات تمنيناها. حكينا عن الوهم والقرب، عن التعلق والصبر، عن الحروب والبشر، وعن الحب. في بلادنا يا كريستينا نبجل الحب بين الرجل والمرأة، ولكن الحب أعمق وأوسع. تعلمت أننا نعرف المشاعر فنحددها، بينما الحرية هي سر الوجود. لو غصنا في الأشياء وأدركنا عجز لغتنا عن التعبير ينفك القيد.

جلست في ولع أعد الساعات حتى افتتاح مسجد أبي العباس، ويومها واجهته. كان يتكلم معي منذ زمن ولكنني أبدًا لم أذهب إلى حيثما ينظر.

***

ابتسم لي الملك فاروق وكان ودودًا معي ثم حياني بالإيطالية فحييته بالعربية. نظر حوله ثم رفع رقبته إلى السقف فانتشر النور بين حنايا الألوان، وتشكلت الأشكال على صحن المسجد. كان زجاج السماء يفيض بين جوانبه، ومشكاوات الخير تنسكب من خلجاته.

قال الملك بالإيطالية: يعجبني النور المتسع في الساحة.

تمتمت بالعربية وسمعني: أتمنى أن يعجب أبا العباس المرسي أيضًا.

ابتسم في شيء من الدهشة، شيء من الإعجاب، ثم قال: تتقن العربية أفضل من إتقاني للإيطالية.

ربما ظن حينها أنني فقدت عقلي أو أنني استغرقت في عملي فنسيت من معنا ومن ابتعد فهو لم يعلق. كتبت الجرائد وتكلم الناس عن أكبر مسجد

في الإسكندرية، تكلف مائة وثمانية وثلاثين ألف جنيه. افتتحه الملك المعظم فاروق الأول. انتهت الزيارة وكلي فخر بصنعي. خرجت وراء الملك في احترام ثم عدت ليلًا إلى المكان نفسه أمسك بالأعمدة نفسها، في نفس الليلة نفسها ..

نظر إلي الحارس في ريبة فقلت في فخر: هذا مسجدي أنا صنعته. ألا تتذكر زيارة الملك اليوم؟ كنت معه.

رحب بي في شيء من التردد ثم تركني وخرج. هذا ما كنت أبغي، أن أبقى مع أبي العباس وحدي.

قلت لأبي العباس في تلقائية: يا أحمد.. ترى أين نلتقي في المرات القادمة؟ لا، لا تخبرني. كأنني أعرف. مرحبًا بالمُرسي بين أمواج البحر ورذاذ الإسكندرية وتشققات المباني القديمة. يتردد اسمك كل دقيقة حولي فأصمت. لو قلت أنت صديقي يظنون أني فقدت عقلي، ولو قلت إني أتكلم معك يظنون أني فقدت لساني. تعال لأصافحك وأربت على كتفك وأخبرك بما فعلت بي الأيام يا أخي.

نظرت عيني إلى الأعمدة، ستة عشر عامًا وأنا أتتبعها وأجليها كأنها نفسي، ستة عشر عمودًا كأنني اختصصت كل عام بعمود. جئت بهم من بلادي أنا ولو استطعت لجئت بهم من بلاد أحمد المُرسي، ولكنني أعرف إيطاليا أكثر من مورسيا هذه الأيام. صنعت الشكل المثمن لأحرر أطراف الأعمدة، لا أحب السجن. قالوا لي سجن الإنجليز أكثر رحمة، ألا تعرف ماذا حدث لليابانيين في أمريكا؟ بل الأسوأ ما حدث من الألمان لليهود. فلِمَ تتذمر من السجن ثلاثة أو أربعة أعوام في معسكر فايد؟ السجن بالنسبة لي هو الحدود الضيقة التي طالما حاولت التخلص منها. سافرت وغامرت، درست ورسمت بحثًا عن الحرية من هذا الهيكل الضيق، ثم عندما بلغت الأربعين

يلقون بي بين أربعة أضلع بلا فكاك ولا أمل في الخروج. وحدي وكنت أتحاشى وحدتي منذ الطفولة. أتعرف يا أحمد لا أحب الأضلاع الأربعة، تخيفني كما الدنيا. لا بأس.. كنت أحكي لك يا أحمد.. يا أبا العباس المرسي عن أعمدة مسجدك، هل أعجبتك؟

انظر هنا يا أبا العباس إلى حيث نظر الملك، ولكنك لا تأبه بالملوك، أعرف، أنا لست مثلك، أصاب الإطراء نفسي حتى وأنا أقرأ عنك وأعرفك.. انظر إلى السقف، هذا السقف صنعته وأنت في خاطري يا شيخ. سقف يتوسطه قبة مثمنة الأضلاع قائمة على ثمانية أعمدة من الجرانيت. هل تدري لماذا؟ لأنك تحب المباني المثمنة الأضلاع كما الفنار الذي كنت تقضي فيه أيامك. أعرف عنك كل شيء.

وفي كل جانب من جوانبها الثمانية ثلاث كوى، نوافذ محشوة بالزجاج الملون على رسوم وأشكال، فعند وقوع الشمس عليها ينتشر النور وينعكس على صحن الجامع. الأضلاع كثيرة والألوان مختلفة. أردت أن أعكس حريتك التي اكتسبتها وأن أروم إلى الخروج من سجني بالنور الطاغي. فلا شيء يحرر مثل النور، به تنعكس الدنيا على الآخرة والسماء على الأرض والراحل على الباقي، ولكن العين خائنة يا أبا العباس، ألم يعلمك شيخك هذا؟ يا أحمد.. ترى متى تتكلم معي؟ وصلتني رسائلك وأصحابك أعرفهم كما أعرف أمي وزوجتي وابني. عاد أليساندرو حيًا يا أحمد لا تقلق، ولكنك تعرف أكيد، وفتح الله عليّ بالعمل مستشارًا لوزارة الأوقاف.

انظر إلى قبة السقف يحيط بها أربع قباب، لكل قبة سقفان، أحدهما خارجي وآخر داخلي، وقُطر دائرته سبعة أمتار ونصف. هنا في الغرب القبة التي تمكث أنت تحتها، أنت ومحمد وأحمد ولداك. هنا همست لي أنك تحب النور والحرية قلتها لي أول مرة من أكثر من ستة عشر عامًا، ولكنني لم

ألاحظ حينها ولم أسمع، ماذا كنت تقول لأصحابك؟

نحن إذا أتانا مريد له شيء من الدنيا لا نقول له: اخرج عن دنياك وتعال، ولكن ندعه حتى تترسخ فيه أنوار المعرفة، فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه. مثل ذلك مثل قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: غدًا تهب ريح شديدة لا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم، فارموا بها الآن، فلا يسمع أحد قوله. فإذا هبت العواصف، كان الكَيِّس من يرمي متاعه بنفسه، كذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه.

ترى أي عواصف تقصد؟ سجني أم حيرتي أم فزعي على كل ما صنعت وجمعت؟ أم شكي في مصير ولدي؟ فقدت أنت الولد وصبرت، ملكت ميادين نفسك يا أحمد عمرًا أو دهرًا.

أما المحراب فأردت أن أصنعه من الجرانيت المصري، هنا في مصر أحببت عمارة المماليك، وهنا عرفت ما وراء الحجر والحائط، الروح القوية الصادقة دومًا تتسع مهما تحملت من نفاق ومحن وغُبن. للمحراب عمودان نحتا من الجرانيت المصري، وفوق رأس كل عمودين كتب الخطاط في مربع بالقلم الكوفي المتداخل اسم محمد أربع مرات. كما كتب الخطاط في الزاويتين العلويتين من المحراب في مربعين عن اليمين وعن اليسار لا إله إلا الله محمد رسول الله. هكذا هي مساجد المماليك من قبل، وهذا هو العصر الذي تعرفه، ولكن حكايتك لا عصر لها يا أبا العباس. كتب الخطاط بين هذين المربعين في رأس المحراب بالخط الكوفي: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾، كما كتب في نصف الدائرة قبالة وجه الإمام ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾.

زوجتي تحكي لي عن قدامة ما يصنعه المعماري للعبادة. تذهب إلى كنيسة «سان جوزيف بالقاهرة» تحكي لي عن الألوان والأشكال، ما تراه

العين وهي بين يدي الله غير ما تراه وهي غائصة في الأشياء. لكل شكل من هذه الأشكال انعكاس على البصر يختلف باختلاف عمق البصيرة. ما تراه اليوم وأنت تعبد الأشياء غير ما تراه غدًا وأنت تبحث وراء الأشياء، وما تراه بعد أن تبحث وراء الأشياء غير ما تراه بعد أن تعرف الله بالله. هكذا تقول يا أبا العباس.

تعال نصعد معًا إلى مئذنتك، بينما تسبح أنت في وميض الطمأنينة أتذكر أنا الماضي ويبقى الفنار يسيطر على الذاكرة. كنت تصعد إليه لاهثًا تارة يائسًا كثيرًا. المئذنة من أربعة أدوار الدور الأول مربع الشكل، والثاني مثمن الشكل كما فنار الإسكندرية فلطالما حكيت لي عليه يا أبا العباس، كنت تقف في الطابق الثاني تتأمل الأضلاع؛ هل تتذكر؟ ثم تتسلق إلى أعلى لتنعكس المرآة العملاقة على نفسك. أعرف أنك تريد شكلًا مثمنًا دومًا يعطيك الحرية التي كنت تبغيها طوال عمرك.

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

يا أبا العباس.. أنا ماريو رومي.. من بنى لك ضريحك هذه المرة. ترى هل سأدفن معك كما فعل الشيخ زين الدين بن قطان كبير تجار الإسكندرية ؟ بنى المسجد ليكون بجوارك. وما أهمية الجوار لو لم يصفُ القلب؟ لا بأس أنت تعرف.. ترى متى أسمع صوتك أنت وأصحابك؟ أصبحتم عشرة وصحبة. أكملوا الحكاية.. ماذا حدث بعد انتقال الشيخ؟ تعال يا بن عطاء الله، وأنت يا بوصيري، وأنت يا ياقوت..أنتظركم..

* * * * *

الوصول الأول لماريو

حكى ابن عطاء الله لماريو

هل تتذكر يا ماريو؟ أمرني شيخي بالتدريس في القاهرة بعض الوقت. ويومًا بعد الدرس لاح بخاطري أن أذهب إلى زاوية الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور بالقاهرة. كنت أسجد لربي ثم قبض الحزن على صدري، ورددت كلمات شيخي أبي العباس المُرسي: لا يدخل على الله إلا من بابين؛ إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت الطبيعي، وإما من باب الفناء الذي تعنيه هذه الطائفة كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيفنى بعد أن كان، ومن كلا طرفيه عدم، فهو عدم.

كأنني أراه أمامي يبتعد عن عيني، ما كذب الفؤاد ما رأى. قبل أن أرفع رأسي من السجود، سمعت كلام رجلين يقولان: لقد مات رجل كبير اليوم.

قلت وأنا أعرف أو أكاد: من هو؟

- الشيخ أبو العباس المُرسي.

رددت ودمعة تسقط رغمًا عني: تدخل على ربك يا شيخي -كما تمنيت- من باب الفناء الأكبر.

نظر إلي الرجل قائلًا: هل تعرفه؟ أنت سكندري. أليس كذلك؟ تعرف شيخ الإسكندرية؟

- هو شيخي.

تعرف يا ماريو إن لله عبادًا كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم. أبو العباس منهم. انتشرت كلماته بين أحناء الفؤاد، فأعطاني الله الكلمة، كتبت ودرست في الفقه والصوفية كما أراد وكما نصحني. هاجمني الشيخ

تقي الدين وبعد أعوام حدث له ما حدث من قبل وتم فضحه في الإسكندرية، فلم أتشفَ، تعلمت الدرس كأنه يعرف ما يحدث للبشر أو ربما هي حكاية واحدة لكل البشر تختلف كما المياه -من منابع مختلفة- ولكنها تبقى مياهًا. جاءني في الإسكندرية السلطان المملوكي المنصور حسام لاجين يريد نصيحتي، فنصحته بالشكر والعدل والرحمة، ولم أحاول رؤيته مرة أخرى ولا سعيت لرؤية أي ملك سوى ملك الملوك. فاض لساني وأكرمني وفاض القلم وتجمعت الكلمات وتآزرت بمعرفة تأتي من الله وليس من غيره. فلتعلم يا ماريو أن الله إذا أفناك عنك أبقاك به، فالفناء دهليز البقاء.

كنت قد كتبت شعرًا عن شيخي لم أزل أردده كلما دخل عليّ أحد الشيوخ أو التلاميذ. مكث أبو العباس في بلدتي في الإسكندرية أكثر من اثنين وأربعين عامًا لم يسعَ فيها إلى رؤية مُتولّي الإسكندرية ولا أي رجل ذي جاه من كل رياء وكل فتنة. تعلمت منه الكثير.

يا أبا العباس تتضاءل كل الإنجازات والحيوات أمام صفائك. لم تزل تفتح أبواب المعرفة وتنسجم من بين أضلعك أنوار الجلال والبهاء. هنا يمكث ابنك ياقوت العرش يطمئن النفوس ويهذبها، يدل الناس إلى الراحة والرضا. ها هنا أسمع قصيدة من الجنة للبوصيري ستتردد إلى انتهاء الزمان ولقاء المحبوب. هؤلاء دفعت بهم إلى اليقين ففتح الله عليهم بالكلمة والسعادة والاطمئنان. أتدري ماذا فعلت بي يا مُعلّمي؟ انطلقت الكلمات من حلقي بلا تنظيم معين ولا نظم كتبت عن معرفة الله وعن الرضا وعن الحب والتوكل تعلمت منك يا شيخ أن الحقائق مطوية في العباد، وأن الظاهر بسيط والخفي أعمق وأجمل ماكتب عنك لأن سيرتك لا بد أن تبقى، ولم يكن لديك وقت لتكتب عن نفسك أو لنفسك. كنت شيخي وشيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى. أنت يا

أبا العباس المُرسي من اقتبسنا من أنواره، وسلكنا على نهج آثاره، أنت من غرست غراس المعرفة في قلوبنا، فأينعت ثمراتها وفاحت زهراتها.
العارفون مثلك يا سيدي هم من أدخلهم إليه مدخل صدق بالفناء عمن سواه، وأخرجهم للخليقة مخرج صدق، هم باقون بنوره وسناه؛ فهم برازخ الأنوار ومعادن الأسرار، وصلهم لما قطعهم، وفرقهم لما جمعهم، وغيبهم عنهم، وعلى أسراره أطلعهم، فلو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لوسعهم.

***

حكى محمد البوصيري لماريو

انهمرت الدموع من عيني أيامًا حتى ظنت زوجتي أنني فقدت عقلي. الموت قريب ولكن موت الأحبة يرج الروح رجًا. كان كاللؤلؤ المكنون أحمد، وكان أصغر مني، واقترب الأجل وتفشى الحزن، كنت أردد كلماته أعوامًا وأنا أحاول أن أتخلى ولا أستطيع، ثم انتقل الصديق والمعلم فألقيت بكل متاعي إلى عرض البحر بنفسي، هبت رياح اليقين وأضاء بنوره وجلا القلب. سمعت عائشة وهي تناديني: محمد.. ماذا بك؟

ثم صرخت ونادت على الناس مستغيثة تقول: أصاب زوجي الفالج، لم يعد يستطيع تحريك نصف جسده، تساقطت شفتيه وارتخت يده وذراعه.

التف حولي الناس وترددت الكلمات بين شفتي منتظمة كما الدر. تدفق الفؤاد بالكلمة وألزمت أفكاري بمدح خير البرية محمد:

خدمته بمديح أستقيل به

ذنوب عمر مضى في الشعر والخدم

ما مضى ذهب وانتهى وما سيبقى مني هو الصدق. هكذا قال أبو العباس.. الأنوار مطايا القلوب.. وتبقى الودائع مطوية في العباد حتى تجيء أوقاتها. ألزمت نفسي بالصوفية عملًا وعلمًا وليس علمًا فقط. قررت الترك فأعانني الله. لجأت إليه أنا أيضًا اليوم بعجز جسدي ونفسي.

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا

وما لقلبك إن قلت استفق يهم

نعم سرى طيف من أهوى فأرقني

والحب يعترض اللذات بالألم

يا لائمي في الهوى العذري معذرة

مني إليك ولو أنصفت لم تلم

كنت أفكر في شوقي إلى الحب ولاح بأفكاري حب الله فتملكني، ندمت على عمر ضاع في مدح الأنام بلا فائدة، دينار أهلكته على مأكل وملبس لا وجود لهما، فانيين كما الدنيا. انبثقت الأحرف من رأسي حتى واللسان مربوط، وتجمدت الدموع في مقلتي، تكلمت مع الله ومع نبيه. همست في خفوت: لعل رحمة ربي حين يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسم.

كنت أمدح خير الخلق كلهم اليوم محمدًا، نظمت كلمات في سيرته وحبه:

ومنذ ألزمت أفكاري مدائحه

وجدته لخلاصي خير ملتزم

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به

سواك عند حدوث الحادث العمم

ثم رددت في خفوت مخاطبًا حبيبي الموجود:

والطف بعبدك في الدارين إن له

صبرًا متى تدعه الأهوال ينهزم

عند الفجر قمت من مكاني أصلي ناسيًا ما قد كان، خرجت بعد أن توضأت كأنني حلمت به -محمد رسول الله- وكأنه ألقى عليّ بردته، وكأنني شفيت من الفالج. صاحت زوجتي: أنت تمشي يا محمد.. يا بوصيري.

ماذا أحكي لك يا أبا العباس؟ هل أخبرك أنك كنت على حق، وأن النور خرج من بين أنحائي كما الندى؟ سمعت قصيدتي يرددها الناس من حولي، يهمسون بأنها كلمات من الجنة، فتح ونور. أنا العبد الفقير يكتب هذا يا أبا العباس، كأنني ألقيت بحملي إلى عرض البحر يا مرسي، وأصبحت صالحًا لأن أحب حبًا حقيقيًا:

مولاي صل وسلم دائما أبدًا

على حبيبك خير الخلق كلهم

***

حكى ياقوت العرش لماريو

نجمة خاتون.. دخلت علي مسجد العطارين بعد سنوات من انتقال الشيخ أبي العباس، انتظرت بعد أن انتهيت من درسي ثم قالت: ظننت أن حبه سيقتلع من الأحشاء بموته، ولكنه باقٍ كما أشجار الزيتون.

قلت في هدوء وأنا أدعوها للجلوس: هو حب روحاني كما قال الشيخ الأكبر.

- ذنب وأدفع ثمنه.

- بل نفحات من الجنة، غرس من الخير هو حرف في قصيدة كتبها الخالق البديع، فلا تتعلقي بالحرف وتنسي من كتبه ألم تسألي نفسك لِمَ يبقى حب سيدي في قلبك لا يفنى باللهو مع اللاهين؟ هو حب حقيقي يا سيدتي.. ولكن المنبع حجب عنك لشدة كثافة الأشياء حولك كما الغبش في النظر اغسلي عينيك لتري.. صلي معنا واذكري الله؛ فذكر الله أكبر لا تذكريه خائفة أو غاضبة بل لاجئة مضطرة.

- حاول معي أحمد ولم يفلح.. هل ستفلح أنت يا عبد حبشي أسود أعجمي.

ابتسمت: ربانى أستاذي، يقول لكل شيء وقت وميعاد. يضع سره في أضعف خلقه فتبقى الودائع مطوية في العباد حتى تجيء أوقاتها. كل منا يبحث عنه وكل منا يسعى إليه، ولكن أبدًا لا نتبع المسلك نفسه؛ لكل منا مسلك له مختلف عن أخيه. هل يمكن أن تخبريني ماذا وجدت في الشيخ أبي العباس ليملك قلبك كل هذه السنين؟

راقها الحديث عنه كما راقها الكلام مع الحبشي، قالت وهي تنظر إليّ: عيناك بهما ثبات يريح الحيرة، وصوتك كما نبات الجنة.. ثم قالت وهي تمسك بقلبها: أحمد، حنانه لا أعرف مثله، وحلمه وصبره. أسب أمامه فلا يكل له طرف، أغضب فلا يفزع، أذنب فلا يفضح. لا قسوة في قلبه ولا خداع. هو..

ردد ياقوت وهو ينظر إليها: نعم هو..

- تقصد أحمد؟

- لكنك لا تصفين شيخي، تصفينه هو. شيخي يحاول أن يتصف بصفاته ولكنه إنسان، فلِمَ تبحثين عن الصورة ولا تبغين الأصل؟ تكل عيناك من

ضوء الشمس فتكتفين بأشباح الظلام وظلال الوهم. ولو تركت الضوء يدخل لغمرك الحنان. بعضنا يريد حنانًا ملموسًا كما اليد والفم، قبلة يستنشق بها ري الحبيب، ولكن القبلة تنتهي والعناق لا يدوم، وكل ما دونه ليس بموصول. الشوق شوق الأرواح وهذا لايسكن بلقاء قصين بل بالحضور والمعاينة.

- كلماتك صعبة على من هي مثلي.

- جئت إلي لأنك تبحثين ومن يبحث يجد. هو من تبحثين عنه، من لا يفضح ولا يقسو وحلمه يتسع ورحمته أوسع من العالمين.

نظرت إلي برهة ثم قالت: ماذا وجد فيك الشيخ يا ترى ليزوجك ابنته ولا يزوجها من سلطان مصر؟

ابتسمت فقالت: رأيت في لثامك الصدق يتلألأ كما حصيلات الحمام.

انحنيت أضع الماء للكلاب الضالة، فاجتمعت حولي كلها في سكينة وأمل وأمان. نظرت إلي في فزع ثم قالت: أنتم قوم لا نعرفهم.. لستم مثلنا.

- المعرفة تأتي بإمداده، ادعي له بأن يضمر نار قلبك، هو يستطيع، وتعالي إلى الدرس يا سيدتي فقد أوصاني عليك الشيخ.

- أوصاك.. كيف؟

- قال يا ياقوت عندما تأتي نجمة خاتون إليك أحسن استقبالها فقلبها مجبول على الصفاء، فإذا هبت العواصف كان الطيب من يرمي متاعه بنفسه. كأنني أرى عاصفتك قد هبت يا سيدتي.

- هو قال هذا عني أنا؟

- نعم قال هذا.

صمتت تبتلع الحزن ثم قالت: لا تطلب مني الامتناع عن الخمر.

- من يأتي إلى الله بقلب مكسور يجد من يجبره.

- ولا تسأل عما لا يعنيك. أفعل كل المحارم يا فتى. أما زلت تريدني في درسك؟

نفضت يدي من تراب الوعاء الذي وضعته أمام الكلاب ثم قلت: هل لديك طعام لجرو وليد؟ ماتت أمه أمس..

نظرت إليّ في فزع ثم قالت: إلام تروم؟ أقول لك أفعل كل الذنوب.

- تأتين إلى درسي على أن تطعمي الحيوانات معي بعد الدرس، وهذا الجرو لك.

قرب منها الكلب الحائر فابتعدت متقززة، فقال: لا تخافي احمليه واعتني به.. سأنتظرك غدًا.

***

أحكمت زوجتي خمارها وهي تنظر إلى نجمة خاتون التي تضع اللبن للجرو الصغير وتضحك ثم ترتدي الخمار لتحضر درس ياقوت العرش.. أنا؟!

استغفرت ربها وانتظرتني حتى انتهيت ثم قالت وهي تكتم غيرتها: نجمة خاتون مرة أخرى؟ هل هامت بك يا ياقوت؟

نظرت إليها ثم انفجرت في الضحك وقلت: لا بالطبع لم تفعل.

قالت في صدق: ولكن كل من تراك لا بد أن تهيم بك يا شيخ.

- تهيم بالعبد الأسود بشفراته أم بغلظة شفتيه؟

مرت بكفها على وجنتي: تهيم بأجمل رجل في العالمين وأفضل زوج في الديار المصرية.

- مأصلي وأستغفر اليوم حتى لا يصيبني الكبر.

- ونجمة خاتون؟ ماذا تريد منك؟

- والدك يقول: عندما تهب الرياح يتخلص كل إنسان من متاعه بيده. هبت رياحها أو كادت. .

- لا أثق بها.

- ربك أرحم مني ومنك. ندعو لها ونتركه هو يتصرف في عباده.

***

رزقني الله ببنتين من بهجة وكانتا نعم الرزق. أما زوجة شيخي فلها هدف اليوم. أمسكت بيدها الهفيفة، ضغطت بكل ما تبقى من قوة الجسد، فرقت حملها بيني وبين العصا، انطوى الظهر على قلب صحيح لا يصيبه مرض. التفتت إليّ قائلة: ياقوت خذني إلى أحمد.

- أمرك سيدتي.

قالت بهجة وهي تضع الفاكهة أمام أمها: لا تطلبين شيئًا إلا منه يا أمي. كأنه هو ابنك وأنا زوجة ابنك. ياقوت يصيد القلوب كلها؛ قلب أبي ثم قلب أمي. أغار منه يا أمي..

كتمت ابتسامتي ثم شددت يد لطيفة زوجة شيخي في رفق إلى قبر زوجها في شرق الإسكندرية.

توقفت تلهث وأغمضت عينيها كأنها تحيك شركًا للذكريات لتتصيدها بين مقلتيها، نعست ثم أفاقت، بللت شفتيها ثم فتحت عينيها في يقظة غير مسبوقة كأنها شمت رائحة المرأة التي تجلس على القبر وتبكي. طبقت نجمة خاتون ذراعيها وتساقطت الدموع ثم نظرت إلى جاريتها وقالت: أعطي الفقراء والمساكين الطعام الذي طهوته بنفسي، أريد لكل الإسكندرية أن تأكل اليوم وتتذكر أحمد..

رفعت لطيفة حاجبا وقبضت على كفها ثم قالت: هل تأتي هنا كثيرًا يا ياقوت؟

لم أجب. فعاودت السؤال. قلت في رفق: سيدتي -هداها الله- توزع الطعام على الفقراء كل جمعة.

- لم تخبرني من قبل.

- يأتي الكثيرون لزيارة سيدي يا سيدتي. كلهم ينطقون اسمه كأنه صديق حميم، أحمد، يبكون عليه كأنه أب أو أم أو ابن، ثم يتوددون إليه لأنه أحب ربه، يهمسون وأسمعهم: بحبك لأبي العباس فك كربنا.. أبو العباس كان قريبًا من القلوب، هو إنسان مثلهم، أدرك كيف يصل إلى الحضرة ويستقر عند ربه، فكل من حوله يحبه. هي واحدة من ألف ألف.

نطقت أحرف اسمه في صمت. بقيت الآماق جامدة، لا دموع على من يسكن الروح. ستتبعه بعد قليل، تعرف. كيف للغيرة أن تتملكها في هذه السن ومع هذا الجسد الواهن؟ رددت استغفارًا ثم رفعت عينيها لعيني نجمة خاتون. أحنت نجمة خاتون رأسها ثم مسحت دموعها. توقف الزمان برهة، وياقوت ينظر إلى أرملة أبيه ومعلمه، ثابتة بين الشئون والأحوال، ترمق نجمة خاتون بنظرة غيرة ثم نظرة إعجاب وتقدير. أحنت رأسها مرحبة بنجمة خاتون، وفاضت عليها بنظرة إعجاب وتشجيع. ما الحب إلا

ثبات وود. انتشر الضوء حولهما، مر كما العمر على حين غرة. ثم تلاشى ولم يبق سواه، وحده الموجود، وحده البديع. برح الجمال وتخلل حبل الوريد. بلل عطش الفراق والمرض، فرددت: غربتك في الدنيا والآخرة ووطنك معه هو. هكذا كنت تردد.. يا أبا العباس.

* * * * *

الوصول الأخير لماريو

صمتت كريستينا بعض الوقت ثم قالت: نظرت حينها لماريو وهو يحكي لي ثم قلت: ثم ماذا؟ ماذا حدث ليلًا بعد افتتاح المسجد؟ تكلمت مع أصحابه؟

تكلمت معهم ثم حضر بنفسه وحكى لي.

بلعت ريقي ثم قلت: تقصد أبا العباس المرسي.

- أبو العباس وكل من في الميدان، حكينا ساعات، أنسوا إلي وأنست إليهم. كان يومًا لا يمكن نسيانه.

لم أنطق.

اقترب مني بوجهه حتى التقت أعيننا ثم قال: هل تصدقينني يا كريستينا؟

قلت بلا تفكير: أصدقك طبعًا.. لا يوجد أحد مثل ماريو رومي.

فردد مرة أخرى: صحت بصوت مسموع والجميع نائم: يا أحمد.. لم يتركني أمام بابه، خرج إلي في بشاشة، صافحني ثم جلس أمامي، فناديت ياقوت العرش والبوصيري، ثم صحت بأعلى صوت على ابن عطاء الله أن يأتي، فجاء مهرولًا من القاهرة. التفوا حولي جميعًا، تسامرنا وتكلمنا حتى صلاة

الفجر.حكوا لي ما حكيت لك يا كريستينا.

نظرت إليه برهة، شبكت أصابعي ثم قلت: أنت أعظم مهندس معماري في العالم، أؤكد لك..

لم يبتسم ولم يجب، بعد هنيهة قال: ولو كنت أبا العباس كنت سأقطب حاجبي وأصاب بالغم ولكني لا أرقى إليه، أشعر بالغبطة شئت أم أبيت.
صممت مائتين وستين مسجدًا ولا يوجد واحد يشبه الآخر هذا شيء أفتخر به.

حاولت الاقتراب منه ولا أدري لو لاحظ أم لا. ثم نظرت إلى وجهه وملامحه وقلت: ما الذي ندمت عليه؟

سكت، فأعدت السؤال، فقال مسرعًا: ندمت على قلة صبري ورغبتي في الوصول سريعًا كأن نقطة الوصول ثابتة لا تتغير مهما هرولت إليها، لا بد أن تصلي في ميعاد محدد ليس قبله ولا بعده وبعد الوصول؟ لا يوجد شيء كان لا بد من الاستمتاع بالرحلة.. السفر يفقدنا التركيز أحيانًا، فنتوه بين الأسواق بحثًا عن الأشياء، ثم ندرك أن الرحلة أوشكت على الانتهاء فنهرول للحاق بالركب. ثم ماذا؟ نصل. وبعد الوصول؟

- لم يدخل اليأس قلبك يا معلمي.. أبدًا.

- ولم يدخل قلب أبي العباس.

- من هو بالنسبة لك؟

- رفيق السفر قابلته وسط الرحلة فأرشدني إلى مسالك لم أدر بوجودها داخل النفس ربما.

ساد الصمت وأنا أراقبه وأتمنى فقط أن أقترب، نظرت إلى عينه المغلقة،

فقال كأنه قرأ أفكاري: انتهت مهمتي فلم يعد لي حاجة لهذه العين. يحدث أحيانًا أن تفقدي إحدى الحواس، ولو حدث بعد أن تجودي بما لديك يكون أفضل.

قلت: ألا تتذمر؟ تشكو؟ تثور.. أعني عملك يعتمد على عينيك..

ابتسم وقال: لا. لا أفعل.

ثم قلت وأنا أمد يدي وأضع أصابعي على أصابعه: أحبك.

بقي ماكثا فاقتربت أكثر استنشقت رائحته وقبلت وجنته. ابتسم ربما، لا أدري كنت أتصبب خجلًا وكان تائهًا. أبعد يده في بطء ثم قال: لو قلتِ لكِ أنت ما زلت صغيرة لن تسمعي، ولو قلتِ لكِ إنني متزوج لن تفهمي.

ضحكت في تهكم قائلة: كأنني أنا نجمة خاتون.. تعاطفت معها لو تعلم.

- أعلم.

- كأنك تعرف.

ساد الصمت وارتجفت فاحتضنت نفسي ثم قلت: التقى مصيرك بمصيره، وأنا؟

قال في بطء: إما أن تختاري أن تكوني مشكاة تنير طبقات نفسك أو تنطفئ شمعتك.

- توقعت أن.. ربما ..

- أين ستذهبين من هنا؟

- لا أدري، سأرحل هذا أكيد. رحل كل أهلي إلى المهجر.

فقال: ووطنك، أين؟

- هنا في الإسكندرية على ما أعتقد. هذه مدينة تمكث في القلب مهما تباعدت الأجساد. ولكن علي تركها، حان موعد الرحيل.

نظرت إليه فجأة ثم قلت: مرمي.. لم تحك لي ماذا حدث له. حارس معسكر فايد.

ابتسم في حنين ثم قال: مرمي جاء إلي بعد أعوام، أصبحت أعمل مستشارًا لوزارة الأوقاف، ثم سافرت إلى السعودية كما تعرفين، واشتركت في تجديد الحرم النبوي، مر الزمن واقترب الوصول جاءني بعد أعوام هنا عند مسجد أبي العباس المرسي جاء معه ولد في الثامنة، صافحني في حماس ثم أمر ابنه أن يعانقني ثم قال: هل تتذكرني؟ أنا مرمي يا خواجة.

قلت: وكيف أنساك؟

فقال في شيء من الذنب: أولًا أريد أن أشرح لك. لا تغضب من أجل محاولة الهروب التي لم تكتمل، لم يكن بيدي شيء.

نظرت إليه في شيء من التهكم ثم قلت: لِمَ ساعدتني وأنت تعرف أن الأمل مفقود؟

تذكر أنك حملت رواية ماريو وأبو العباس حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة والنادرة.

فقال بلا تردد: كان لا بد لك أن تتحرر حتى ولو ساعة لتستطيع أن تحمل هم الأيام. أليس من الأفضل محاولة الهرب ورؤية البحر ثم العودة إلى المعسكر؟ فكر في الأمر؟ كنت حرًا ساعة وهذا نعمة. ساعدتك أكبر

مساعدة. ثم من كان يأتي لك بالأوراق؟ أنا جئت اليوم لأن ابني صنع لك بنفسه هدية.

مد الطفل يده بمركب صغير من الخشب بشراع من الورق الأبيض، أمسكت المركب من يده، فقال مرمي: حكيت له عنك فصنعها لك حتى تتمكن من عبور البحر المرة القادمة عندما يسجنك الإنجليز وتهرب.

ضحكت حينها وكأنني سمعته يقول، مرمي الحارس أو أبو العباس المرسي لا أدري: يا سيدي لا تبتئس لكل سفر وصول، ربما تختلف سرعتنا في السير ونتخذ دروبًا متفرقة، ولكن لا بد من الوصول وعند الوصول نكتشف أنه درب واحد حتى ولو تعددت الصور. ولكن لا سفر دون عبور البحر، هكذا علمتني الإسكندرية.

ثم رحل الحارس ولم أره مرة أخرى.

قلت حينها وعيناي لا تتركان عينيه: لا سفر دون عبور بحر.. ابتلعت الدموع ثم نطقت اسمه: ماريو..

قال: يا كريستينا الغربة مكتوبة علينا لا محالة، ولكن لا تبتئسي، هي أرض لا أكثر، لا شيء يخيف في الطين يا كريستينا. لا شيء.

لم أر ماريو رومي مرة أخرى، مات بعد لقائنا بشهور. كنت غاضبة ثم مشتاقة وعند موته كنت تائهة. تزوجت وأنجبت، وطُلّقت وعملت، واستمر الوجد باقيًا.

***

كنت أستمع إلى كريستينا طوال الرحلة إلى أستراليا. ضحِكت، ارتجفت وتاهت، نامت واستيقظت، غفلت وتنبهت. هذه حكاية لا تنتهي ولم تبدأ

بعد.. سلكنا دروبًا وتركنا دروبًا لضعف الساعي والسامع، وقلة حيلة الحاكي والحكاية. هذا عجزٌ يشي بالقدرة، وقتلٌ يشي بالحياة. وهذا حب كامن كما النبات مطوي بين طيات الدهر ينتظر مرور السحاب.

لا أدري لم بكت كريستينا عند وصول الطائرة. رافقتها وأنا أمسك بيدها الضعيفة إلى صالة الوصول. أمسكت بيدي في قوة كأنها تريد هذه الصلة معي. وكأنني آخر البشر على الأرض، وآخر من سترى. بحثنا معًا عن الأوراق في حقيبة السفر. تمتمت بكلمات بالإيطالية، وبندنت أشعارًا قديمة لم أفهمها حينها، وبعد حين عرفت أنها تقول: أعرف مدينة تمتلئ كل يوم بنور الشمس. ثم نظرت إلي في عجز والكثير من الحيرة كأنها تريدني أن أؤكد لها وجود الأوراق.. ولم نجدها.. وجدنا الصورة نعم.. صورة لشيخ بلحية مهندمة مرسومة بالقلم الرصاص، هي تقول إن من رسمها هو ماريو رومي. أعطتها لي كريستينا بعد ذلك. لكننا لم نجد أي رسائل، وجدنا حكاية من فم امرأة تنتظرها ابنتها في ضجر وهي تقول إنها مصابة بخرف الشيخوخة وتحتاج إلى أن تمكث في مستشفى فلا أحد يستطيع الاعتناء بها. استمرت كريستينا تمسك بيدي حتى وهي ترافق ابنتها إلى باب الخروج. همست في أذني: خذيني إلى الكنيسة الكاثوليكية.

نظرت إلى ابنتها فقالت دون النظر إلي: لو عندك وقت خذيها إلى هناك. تتكلم مع الملائكة. تؤمن أمي بالأشباح، أما أنا فأعرف أن حكايتها أوهام. لا بأس خذيها لو استطعت.

كان لدي بضعة أيام في أستراليا وكنت أنوي أن أشتري الملابس والهدايا، ولكنني أشفقت على وحدتها فذهبت معها إلى الكنيسة. لم تترك يدي طوال الطريق هذه المرة كأنها تستغيث بي من قسوة القلوب وجفاف الخيال. دخلت كريستينا وأضاءت شمعة ثم جلست، وضمت يديها وبدأت تصلي.

سمعت صوتها الضعيف يدعو وسمعت الإجابة حينها:

أحي قلبي بنورك، وأقمني بشهودك، وعرفني الطريق إليك.

وجاءت الإجابة:

ها أنا مرسل ملاكًا أمام وجهك ليحفظك في الطريق.

تم الوصول بحمد الله أو كاد.

* * * * *

عني أنا

برفقة كريستينا أدركت أن البكاء أحيانًا يكون على عجزنا، عن القبض بأصابعنا على لحظات السعادة الفائتة. كنت أظنها تبكي من أجل حبها، ولكنها كانت تبكي مدينة استقرت في الفؤاد وابتعدت. عدت إلى مصر وأنا أبحث عن شاعر بعينه ذكرته لي كريستينا يدعى «أونجاريتي»، يفصلني عنه مائة عام، ولكن كلماته أصابت القلب لا محالة. مثلي عاش عشرين عامًا في الإسكندرية، ومثلي رحل عنها بعد العشرين بقليل، ومثلي ومثل كريستينا بحث عن أنقاض المدينة القديمة في أعماق البحر وعن بقايا الفنار القديم وعما تبقى من العمر ترك الميناء وهو يبحث عن نفسه دون أن يدرك أن ما يبحث عنه هو ما ترك رددت لنفسي حينها: فحتى لو تغيرت المدينة وسكانها يبقى البحر يستعصي على البشر تطويعه. كأن أونجاريتي يقصدني بقصيدته ويقصدها قال:

أعرف مدينة تمتلئ كل يوم بنور الشمس

وكل الكون يفرح حينها

رأيت مدينتي تختفي.. تتلاشى

ولكنها وهي تتلاشى تترك لبرهة

قبضة من النور

المعلق في الهواء اللانهائي.

لم أزل أردد كلماته. تسلمت الرواية من أنفاس موصولة تنتشر من حولي، ولكنني لم أنته منها إلا وبرفقتي حكايات لم أحكها. كنت أبحث كمن يقتفي أثر الماء، وكلما لاح له في الأفق ورد هرول إليه. ذهبت على الفور لزيارة مسجد أبي العباس المرسي، فوجدت عند ضريحه الأماني تتناثر والأمهات تمسك بأطفالها وتحكي له عن المعاناة والمرض، والأب يُسبّح باسم الله ويجلس في صحبة الشيخ ساعة أو ساعتين، هذا حبيب يتوق إلى حبيبته، وهذا حائر يبحث عن بيت ووطن امتدت الأيدي لطعام المساكين، كأن كل الدنيا منهم ولهم قرأت اسمه وأنا أعرفه، بيننا صحبة حتى وأنا لا أستحقها، وربما لا أكون أهلًا لها قط ثم تسلقت السلم إلى المسجد، نظرت إلى السقف الذي بناه ماريو. كان هنا. ماريو، وكان هنا أبو العباس، ترى هل ينتصر المكان على الزمان، أم تبقى الروح حرة خارج أي مكان وزمان؟ التقيا هنا كل في زمانه وكل بتكليف مختلف، ولكنهما طرقا أبوابًا، بعضها فتح لهما وبعضها استعصى على أحدهما أو كاد. وحان لي أنا أن أطرق الباب لو استطعت. أصبحت أبحث عن ماريو روسي وتاريخه، عن وجدان الفنان ورجفة العاشق. في بحثي التقيت بأناس لم أتوقع يومًا أن ألتقي بهم، وأنا أسأل عن ماريو انفتحت لي أبواب جديدة، وحكايات لم تكن في الحسبان. كنت أفتح فمي ذهولًا مما سمعت، ومن تقلبات البشر وهجرتهم، ومن تغير الدهر وخداع الأزمنة. استلمت حكاية من حكاية، وغرقت في تفاصيل كادت تحيرني أكثر للبحث نفسه حكاية طويلة سأحكيها في حينها.

اليوم سأقضي وقتي مع ماريو وأبي العباس، أسمع صوته يرج أنحاء المكان وهو يقول: أنت المخاطب أيها الإنسان، فاصغ.

*****

على هامش الحكي

ضريح الشيخ أبي القاسم القباري موجود في المنطقة التي خلدت اسمه في الذاكرة، منطقة القباري في الإسكندرية، ودُفن معه الشيخ الشهير العز بن عبد السلام لحبه الشديد للقباري.

أخرج أبو العباس اللؤلؤ والنور من قلوب أصحابه، كتب البوصيري قصيدته الشهيرة البردة التي تعتبر أشهر قصيدة مدح في العالم تتردد كل ساعة في مكان ما على الأرض. كتبت كلماتها في الماضي على المسجد النبوي. ألهمت كثيرًا من الشعراء، منهم الشاعر أحمد شوقي الذي حاكاها في قصيدته نهج البردة.

وكتب ابن عطاء الله السكندري كتابه «لطائف المنن»، فسجَّل حياة أبي العباس المرسي، وحياة شيخه أبي الحسن الشاذلي. ولولا كتب ابن عطاء الله السكندري لما عرفنا الكثير عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي وخليفته أبي العباس. ثم كتب ابن عطاء الله الحكم العطائية التي يعتبرها البعض من أهم الكتب الإنسانية على الإطلاق، ترجمت الحكم معظم لغات العالم.

استمر ياقوت العرش في طريق شيخه يهدي القلوب ويبعث فيها الراحة والأمل، عُرف بحبه للطير والحيوان وكل المخلوقات. فأصبح ضريحه يُذكّر الناس برحمة الله وحبه لجميع خلقه.

أما نجمة خاتون فقد أصبحت تطبخ الطعام للفقراء بنفسها وتناجي ربها

أيامًا وأيامًا.

وماريو رومي الصديق أبدع وأخرج النور من الأعماق، لم يزل مسجده الذي بناه لأبي العباس المرسي في الإسكندرية يعد أهم مسجد في المدينة، يضيء ويبرق ليذكرنا بكلمات أنشدها أبو العباس: قد تخللت مسلك الروح مني فإذا ما نطقت كنت كلامي، إذا ما صمت كنت الغليلا.

***

أنشد أصحاب أبي العباس الأشعار في حبه.

قال ابن عطاء الله السكندري:

ما زلت حتى طاوعتك نفوسنا

فأزلت عنها جهلها وعماها

الله أبقى للبرية أحمدا

وأقامه فيها لكي يرعاها

هم يعلمون بأنه قطب الورى

ولكنما غلب النفوس هواها

وقال البوصيري:

شرف لشاذلة ومرسية مرت

لهما الرئاسة من أجلّ رئيس

ما إن نسبت إليهما شيخيهما

إلا جلوتهما جلاء عروس

وتغنى أهل الإسكندرية باسمه واسم مريده بقية العمر في الفرح وفي الحزن وفي الحيرة واليقين، قالوا:

اقروا الفاتحة لأبو العباس

يا اسكندرية يا أجدع ناس

والفاتحة التانية لسيدي ياقوت

واللي يعادينا يطق يموت

* * * * *

تمت